العتبة العباسية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
شعبة الفكر والإبداع

الصدى

مجلة فصلية ثقافية تعنى بدراسة أحداث السنة الهجرية

شهر محرم الحرام

شهر صفر الخير

شهر ربيع الأول

Al-Sada

Cultural Quavterly Journal For Hegira Events

Issued by the al _abbas holey shrine Department of Intellectual and
Cultural Affairs Division of thought and creativity

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾

صدق الله العلي العظيم
سورة الأحزاب: الآية/ ٣٣.

الإشـــراف الـعـام
الــسـيـد لـيـث الــمـوسـوي

السلامة الفكرية
السيد عقيل عبدالحسين الياسري

رئيس التّحرير
صباح نعيم الصافي

مدير التّحرير
محمد الأسدي

هيأة التّحرير
رضوان عبد الهادي
حيدر فائق هادي
ياسين خضير عبيس
حسين فاضل الحلو
محمد يوسف محمد صالح

المراجعة اللغوية
محمد رضا جاسم

المشاركون
الشيخ عبدالرزاق فرج الله الأسدي
د. محمد علي رضائي الأصفهاني
الخطيب السيد محمد علي الأعرجي

التصميم و الإخراج الفنّي
حسين عقيل | ميثم القرعاوي | حسين شمران

التنفيذ الطباعي
دار الكفيل
للطباعة والنشر والتوزيع

.. للاشتراك

تستقبل مجلة الصدى المشاركات (البحوث والمقالات) باللغة العربية، ووفق المحاور التي تغطي أحداث السنة الهجرية وتتناول السيرة العطرة للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وأهل بيته عليهم السلام.

ترسل المشاركات على العنوان الآتي: العراق / كربلاء المقدسة / مجمع الكفيل الثقافي / شارع الإسكان / خلف متنزه الحسين عليه السلام الكبير

التواصل مع المجلة :

alsadda@alkafeel.net
info@alkfeel.net

في البدء

(عاشوراء) موسمُ العطاء الرّبّاني، موسم الفضيلة والتّقوى والأخلاق، موسم العلم والمعرفة، ورمز لانتصار مبادئ الحق على جيوش الضّلال.. وإذا كان عطاؤه قد بلَغَ (غاندي) محرِّر الهند الذي تعلّم من الحسين عليه السلام كيف يكون مظلوماً لينتصر، فإنّ المسلمين عامّة وشيعة الإمام عليه السلام خاصة أولى بهذا العطاء.

إنّ المطر الذي ينزل من السّماء ليحيي الله به الأرضَ بعدَ موتها، إن استفيد منه على الوجه الأكمل، أعطى مختلف الثّمار والأزهار، وملأ الأرض بالرّياض، والقلوب بالبهجة، فإذا هبطت نسبة الاستفادة من المطر هبطت نسبة الأرباح التي يُتوقّع حصولها أيضاً.

إنَّ أهداف وقيم عاشوراء قد استقاها الإمام الحسين عليه السلام من جدّه الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله حيث تربّى في أحضانه، وأخذ على يديه الشّريفتين منظومة القيم المتسامية، وكانت هذه المنظومة دليل الإمام الحسين عليه السلام في حياته وفكره وأقواله وسلوكه، وهي الدّافع الأوّل الذي حدا بالإمام عليه السلام، لمقارعة الانحراف لدى حكومة بني أميّة الذين استهانوا بالقرآن الكريم والعترة الطّاهرة عليهم السلام الذين أسّسوا وبنوا دولة الإسلام العظمى التي نشرت مبادئ الدّين الإسلامي في أصقاع المعمورة.

لقد أخذ الإمام الحسين عليه السلام سجيّة مقارعة الظّلم والطّغيان من جدّه الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله، ومن أبيه علي بن أبي طالب عليه السلام، وعندما يتشبع الإمام الحسين عليه السلام بهذا المنهج المتحرّر الثائر، فإنَّ منبعه الثّر معروف، لا يمكن أن يغض النظر عن الانتهاكات الأموية الخطيرة التي ارتكبها يزيد، من فسق وانحراف وأخلاق تتنافى مع روح الإسلام وفطرة الإنسان.

لذلك كانت ولا تزال وستبقى القيم العاشورائية مناراً عالياً تهتدي به الدنيا، ومناراً متوهّجاً يضيء للمظلومين طريق الحق والحرية والكفاح الإنساني المتواصل، والثورة على الطغاة والمتسلّطين على رقاب الفقراء أينما كانوا، وهذا هو السّبب الأساس في انبهار قادة العالم المتحرّرين بالفكر الحسيني المتوقّد، ولعلّنا على معرفة تامّة واطلاع وافٍ على هذا التّأثير الكبير للقيم العاشورائية، في الثّورات والانتفاضات العالمية التي اندلع لهيبها في أمم كثيرة من العالم المترامي، وقد أعلن كثير من قادة العالم الخالدين في الذّاكرة البشريّة، مدى تأثّرهم بالفكر الحسني ومنظومة القيم التي أفرزتها هذه النّهضة العملاقة، حتى غطّت الإنسانية جمعاء، ببهاء نورها وجمال فكرها وصفاء ونقاء مسارها وتوجهاتها.

ولاشكّ أنَّ القيم العاشورائية لا تنحصر في كيفية مقارعة القادة الظّالمين أو السّاسة الفاسدين فحسب، إنَّما تمتد الى السّلوك الشّخصي والتّفكير الفردي، وأهمّيّة أن يكون الإنسان صادقًا أمينًا قويًّا رحومًا متعاطفًا مع أخوته في كل شاردة و واردة، فمحبة الإنسان لأخيه الإنسان هي إحدى أهم ما تدعو إليه قيم عاشوراء، وعندما تحمي أخاك من الضّرر فإنَّك تُعبِّر في ذلك عن تمسّك واضح وقوي بالمنهج الحسيني الذي يدعو الى التّآزر ضدّ الظّلم والتّجاوز والتّعالي على الناس، ولا يمكن تحقيق هذا الهدف ما لم ينسجم المسلمون كافّة، في تطلّعاتهم وتعايشهم وفق قيم إنسانية عظيمة، مستمدّة من قيم الإسلام شكلاً وجوهرًا، وهي نفسها منظومة القيم العاشورائية الخالدة.

المحتوى

شهر محرم الحرام

من معطيات النَّهضة الحسينية لحياة الأمة ٨
مواقف خالدة ٢٢
المباني القرآنية لنهضة عاشوراء ٣٦
النضال العلمي للإمام زين العابدين عليه السلام في مجال الفكر والعقيدة ٥٠
نهضة الإمام الحسين عليه السلام الجهاديّة (أسبابها وآثارها) ٦٠

شهر صفر الخير

التسليم للمعصوم عليه السلام ٦٨
توسعة حريم الزّيارة زماناً ومكاناً ٧٨
زيارة النّساء مواساة للزهراء عليها السلام ٩٠
محطات في حياة الإمام الرّضا عليه السلام ٩٦

شهر ربيع الأوّل

عالمية الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله ١٠٨
الهجرة وليلة المبيت .. أولى التّضحيات ١٢٠
الأبعاد الجمالية والمعرفية للتصوير عند الإمام الصادق عليه السلام دراسة في نصوص مختارة ١٢٨
الإمام العسكري عليه السلام بين تأصيل مرجعية الفقهاء العدول وبناء الكوادر العلمية ١٣٨

بسم الله الرحمن الرحيم

ذَٰلِكَ وَمَن

يُعَظِّمْ شَعَائِرَ ٱللَّهِ

فَإِنَّهَا مِن

تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ

صدق الله العلي العظيم

سورة الحج/ الآية:٣٢

شهر محرم

- من معطيات النهضة الحسينية لحياة الأمة
- مواقف خالدة
- المباني القرآنية لنهضة عاشوراء
- النضال العلمي للإمام زين العابدين عليه السلام في مجال الفكر والعقيدة
- نهضة الإمام الحسين عليه السلام الجهاديّة (أسبابها وآثارها)

من معطيات النهضة الحسينية لحياة الأمة

سماحة الشيخ عبد الرزاق فرج الله الأسدي

لا ينبغي أن نستهين بما انسجمنا معه من الشَّعائر الحسينية الخالدة؛ لأنَّها من أهمّ ثمرات ونتائج النهضة الحسينية الخالدة، وأصبحت تشكل جزءاً مهمًّا في حركتنا، فينبغي أن نتحرّك بها كي نلتحم بها مع رسالة سيّد الشّهداء الحسين عليه السلام التي من أجلها ارتفعت واعيته في كربلاء البطولة والصبر والتَّضحية.

ولذا أنّ الذي نريد أن نقوله: قبل أن نرفع علماً أحمراً أو أخضراً أو نرتدي السَّواد، وقبل أن تحمرّ صدورُنا، وقبل أن نردّد أهازيج العزاء، وكلمات الرّثاء، ومستهلّات المسيرة الراجلة إلى كربلاء، علينا أن نفكِّر ونعزم أن يكون من أولويات اهتمامنا رسالة الإمام الحسين عليه السلام وأن تكون لنا هذه الشَّعائر طريقاً إلى رحاب الله –تعالى– وساحات طاعته لنيل الخلود في جنان الإمام الحسين عليه السلام .

ومن أجل ذلك، علينا أن نردّد معها إهزوجة الصّلاة، وترانيم الفلاح المعطّرة بذكر الله–تعالى–، وأن نتحرّر من ربقة الخطايا، وذلّ الذّنوب، وثورة الأنا، وحبّ الجاه، وإطاعة الشَّيطان،كما تحرّر الإمام الحسين عليه السلام من كلّ تلك القيود، ورفض ذلّ الاستسلام إلى عبد الهوى يزيد، ثم لنردّد إهزوجة المجد التَّليد بالقول:

ما نسيناك شاهداً وشهيدا ... أنت يا من أبيت إلَّا الخلودا
ما نسيناك ثورة ضد قهر الـ ... ـمستبدين زحفها لن يهيدا
ما نسيناك بسمة في وجوه الـ ... ـمستميتين للجهاد جنودا

ما نسيناك قولة تتحدى عالما ظل مترفوه رقودا
من قساة تجاهلوا رسالة الـ ـدم واستعذبوا القعود صدودا
وتناسوا مجد الشهادة بالأطـ ـماع واستدبروا الغد الموعودا

فقد صنع لنا الإمام الحسين عليه السلام بتضحيته، تأريخًا للعِبرة قبل تأريخ العَبرة، وأماط لثام التّشويه وأستار الزيف، عن وجه الإسلام الحقيقي، الذي حاول يزيد القرود والفهود إخفاء معالمه وطمس حقائقه، فكانت عظمة التّضحية، وجلالة الرّزء، وهول الحدث، وفداحة المصيبة في السّماء والأرض، دليلاً على عظمة الهدف واستقامة الخطى ونزاهة الثورة.

علينا أن نقرأ تأريخ النَّهضة الحسينية، الذي احتدمت على ساحته قوّتان: قوّة عبد الدّنيا والشّهوات يزيد بن معاوية وأعوانه، ومعهم الدنيا بكل خيلائها وبهرجها وزبرجها ومكرها وخدعها وضلالاتها وجهالاتها.

والأخرى هي قوّة الشّمم والإباء، متمثّلة في أبي الأحرار الحسين عليه السلام وأنصاره الغيارى، ومعهم الحق، والعدل، والإيمان والحرّيّة، والإرادة الواعية ضدّ الباطل.

هذه الإرادة الثّورية الصَّلبة التي نطقت على لسان الإمام الحسين عليه السلام بقوله : (لا والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذّليل ولا أفر فرار العبيد)[1].

وبقوله : (ألا إنَّ الدَّعي ابن الدّعي قد ركز بين اثنتين بين القلة والذلة، وهيهات ما آخذ الدنية، أبى الله ذلك ورسوله، وجدود طابت، وحجور طهرت، وانوف حميّة ونفوس أبيّة لا تؤثر مصارع اللئام على مصارع الكرام، ألا قد أعذرت وأنذرت ألا إنّي زاحف بهذه الاسرة، على قلة العتاد، وخذلة الأصحاب ثم أنشأ يقول:

فإن نهزم فهزامون قدما وإن نهزم فغير مهزمينا
وما إن طبنا جبن ولكن منايانا ودولة آخرينا»[2]

ولنعم ما قال الحميري:

طمعت أن تسومه الضيم قوم وأبى الله والحسام الصنيع
كيف يلوى على الدنية جيدا لسوى الله ما لواه الخضوع
فأبى أن يعيش الا عزيزا أو تجلى الكفاح وهو صريع[3]

(١) بحار الانوار / ج ٣٣ / ص ٤٠٥.
(٢) المصدر نفسه / ج ٤٥ / ص ٩.
(٣) المصدر نفسه / ٧٤ / ١٦٢

إنّ كلّ كلمة من هذه الكلمات، سلاح لا يقهر، وحدّ لا ينبو، وكلّ حرف من حروفها عتاد يخترق كلّ ما اصطنعه الظّالمون والمتجبّرون من أقبية الظّلام والضّلال والتّشويه، وقيود القهر والاضطهاد التي تتحرّك ضدّ هذه المسيرة الثّورية، المسيرة التي تتدفّق حرارتها في الأجيال التي آمنت بالإمام الحسين عليه السلام شهيداً ثائراً ضدّ كل عتاة الأرض وطغاة الزّمان.

بم نتحرك لاستثمار النّهضة الحسينية؟

إنّ ذكرى عاشوراء قد استلهمت عظمتها من عظمة بطلها الذي صنع تأريخها، وعطّر ساحها بعطر الدّم الزّكي الذي أهريق على رمال كربلاء الشهادة، لتنبت من خلاله شجرة الحق والفضيلة والحرّيّة والطهر.

هذا الدّم الذي كان يتلقّاه الإمام الحسين عليه السلام بكفّيه من نحر الطفل والشاب، ومن مصرع القريب والبعيد، والحرّ والعبد، ويرمي به نحو السّماء وهو يقول: (هوّن ما نزل بي أنّه بعين الله)[1].

ولما لم تسقط من ذلك الدّم قطرة إلى الأرض،كان ذلك دليلاً على نزاهة المضمون، وسموّ المعنى الذي امتزج بهذا الدّم، كما أنّ إليه يصعد الكلم الطّيّب والعمل الصّالح يرفعه فقد كان الدّم الزكي موضع قبول ورضا جميل عند الله -عزّ وجل-، لما يتوقف عليه من مصير الأمة.

إنا لا نزال نؤمن بأنّ العاطفة ودموع المأساة كان أمراً مطلوباً وجزءاً مقصوداً في حركة الإمام الحسين عليه السلام من أوّل خطوة خطاها نحو التّضحية، فأراد من هذه الدّموع أن تكون طريقًا لبلورة المضمون الأسمى لقضيّته عليه السلام إلاّ أنّنا إن بقينا نتحرّك بمجرّد هذه العاطفة دون أن ننظر إلى ما وراءها من مضمون - فإنّنا نكون قد أهملنا الجانب المعنوي الضّخم، الذي تحرّكت به ومن أجله دماء الشهداء.

هذا الجانب المعنوي هو: الإلتحام بالحق الذي تحرّكت به كلّ عناصر النّهضة الحسينيّة، لأجل أن نتحرّك به في كلّ أنحاء سلوكنا ونشاطنا على امتداد تأريخنا باتجاه خدمة الرّسالة،وتحقيق العدالة، لذا فإنّ حبّنا للحسين عليه السلام ليس كحبّنا لأهلنا ومالنا وأولادنا؛ لأنّ حبّنا للمال والأهل والأولاد من عاطفتنا المحضة.

أمّا حبّنا وولاؤنا للحسين عليه السلام فينبع من واقع العقل والعاطفة ليكون رسالة للحب والولاء والعمل الصالح، ولتحرّك فينا الوعي واليقظة، وتثير فينا الثورة أوّلا على واقعنا النّفسي وعلى أنانياتنا ومصالحنا الخاصة،ثم الثورة على سلبيات الواقع.

لذا شاء الله -عزّ وجل- لهذه العاطفة أن تتحرّك تجاه الحسين عليه السلام بلا عناء ولا كلفة،ولا تحتاج منّا إلى جهد؛ لأنّ الله -عزّ وجل- أهوى إليه القلوب.

---

(١) بحار الأنوار / ٤٥ / ص ٤٦.

ولكن عندما نريد أنْ نحوّل هذه الحركة العاطفية إلى رسالة كما يريد الإمام الحسين عليه السلام فهنا نحتاج إلى جهد كبير، وذلك عندما تمتزج العاطفة بالفكر، وتقع تحت توجيه العقل من أجل الحق والدّين والرّسالة، ومن أجل المبادئ والقيم التي حملها أبو عبدالله الحسين عليه السلام، فمن هنا يكون هذا الاستثمار جهادًا ونصرة للحسين عليه السلام، وعملاً موجباً لثواب الله -تعالى- ونعيم جنانه.

إنَّنا إذا ما تحرّكنا بهذا المعنى الضّخم الذي امتزج بالمأساة وانغمرت به ساحة الشّهادة، فإنَّنا بذلك نكون قد تحرّكنا بإرادة الحسين عليه السلام وصبره، وبروحه وفكره، ونكون قد اتجهنا بالاتجاه الصّحيح في استثمار هذه النّهضة.

وإلَّا فما قيمة دمنا الذي يسري في عروقنا، وهو فقط يحرّكنا لنمشي، ونعمل، ونأكل، ونلهوا، وننام، ونستيقظ؟.

وما قيمة هذه الحركة التي قد لا تصل بنا إلا إلى منتصف الطريق، ما لم يتحرّك معها المعنى السامي، والإحساس الواعي لضرورات هذه الحياة، وما لم يمتزج معها المضمون الثّوري من أجل إعلاء كلمة الله-تعالى-، وما لم يزيّنها المضمون الأخلاقي، والشعور الرّسالي لتوجيه الحياة؛ لتصل بنا إلى تحقيق مطامح وآمال الإمام الحسين عليه السلام ؟؟.

هذا المضمون الذي بلوره الإمام الحسين عليه السلام في نهضته بقوله : (ألا ترون إلى الحق لا يعمل به والى الباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله محقّا فإنّي لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظّالمين إلا برما)[1].

يستوحى من هذه الكلمات الخالدة، عظم المسؤولية الملقاة على عاتق كل مسلم، وهي: أن يجعل الحق نصب عينيه ميزانًا يزن به كلّ كلمة وكل عمل وكل حركة في واقع الحياة.

بمعنى: أن يكون لدينا شعور بالمسؤولية عن الحق، كما كان يحمل الإمام الحسين عليه السلام من الشعور بالمسؤوليّة الكبرى، والشعور بالألم والحسرة، لما يجري من تصرف، ومن حركة منحرفة تجاه رسالة الأمّة وأمّة الرّسالة.

(ليرغب المؤمن بلقاء ربّه محقاً) يستوحى من هذه الكلمات الخالدة: أنّ أيّ عمل لا يحرّكه حبّ الله -تعالى- وابتغاء رضوانه عمل يقصر بصاحبه عن بلوغ الغاية، فتشير هذه الكلمات إلى ما كان يحمله عليه السلام من روح التّضحية والفداء والحب لله -عزّ وجل-،كما جسّد هذه الرّوح العالية وهو على رمال كربلاء، متمثّلاً بهذه الأبيات :

تركت الخلق طراً في هواكا ... وأيتمت العيال لكي أراكا

فلو قطعتني بالحب إرباً ... لما مال الفؤاد إلى سواكا

إنّ هذا المضمون الذي جسّده الإمام الحسين عليه السلام من حبّه لله -عزّ وجل- على ساحة الطّف، قد ترشحت منه في قلبه شآبيب الحنان والحبّ والرّحمة لكلّ فصائل الوجود البشري،حتى لأعدائه الذين قاتلوه.

---

(١) كلمات الإمام الحسين عليه السلام / ١ / ٣٥٣

فلو أخذت الأمّة – ولو ومضة يسيرة – من قيمه وإنسانيته وأخلاقه، ومن حنان هذا القلب، لتتعايش به مع بعضها، لأربعت حياتها، وازدهر وجودها، وأغدق عليها الخير والسلام والنعمة، (وألّو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا)[1].

إذن، ما لم تتحرك الأمة لاستثمار النّهضة الحسينية بالإيمان والاستقامة، وبحب بعضها للبعض فستكون حياتها صحراء قاحلة صمّاء خالية من كلّ روح وحراك وحيوية.

ما هي منطلقات الحركة الحسينية؟

إنّ لكلّ ثائر في التأريخ دوافعه التي تدعوه للثورة على الواقع، تتناسب مع مستوى شخصيته وموقعه في التأريخ، ومن جوهر الفكرة والعقيدة التي ينتهجها والخط الذي يترسمه والمبدأ الذي ينتمي إليه .

فمن منّا لا يعلم ما هو مستوى إيمان ووعي الحسين الثائر عليه السلام؟ ومن منّا لا يعلم ما هو جوهر الفكرة التي ينطلق منها، وما هو الخط الذي يترسمه للحركة؟.

فعلى هذا الأساس علينا أن ندرس دوافع نهضته عليه السلام على مستوى الأمة التي ينتمي إليها، والرّسالة التي يؤمن بها ويسعى لحمايتها بالمال والأهل والنّفس والدم.

فقد انطلق الإمام الحسين عليه السلام في هذه النّهضة من ثلاثة منطلقات، إليكم قبل كلّ شيء جدولاً موجزًا بها، إذ تتمثّل هذه المنطلقات في:

الأوّل: فساد الجهاز الحاكم فيما كان يتظاهر به :

أ – التجريء على المقدّسات.

ب – استبداد السّلطة.

ج – الإرهاب المنظّم.

د – تفتيت البنية الاقتصاديّة.

الثّاني: تهاون الأمّة – إمّا خوفاً أو حرصاً على المصالح الخاصة – ممّا أدّى إلى تفشّي ظواهر:

أ – التّمزّق الاجتماعي.

ب – التّحلّل الأخلاقي.

ج – التّحريف الدّيني .

(١) سورة الجن / ١٦

الثّالث: مسؤولية الإمامة التي تتمثّل في اتجاهين:

أ – بلورة الصّلة برسول الله صلى الله عليه وآله .

ب – اتجاه المجابهة للحكم الجائر.

فمعي أيّها الأخوة، إلى شيء من البيان والتفصيل لهذه العوامل والمنطلقات للنهضة الحسينية الظافرة :

الأوّل : فساد الجهاز الحاكم

فقد تفشّت ظاهرة الفساد، معلنة في عهد الحكم اليزيدي الظّالم، وماتت فيه كلّ القيم الإنسانية والأخلاقية، وخرقت كلّ النّواميس والضّوابط والحدود، وذلك من خلال بروز مظاهر الفساد والانحراف التي تمثّلت في مصاديق عدّة:

أ – تجرّؤ الحاكم على المقدّسات

وإهانته لها، وخرق حرمتها، باللهو وشرب الخمر واللعب بالقمار والقرود والفهود، حتى في المسجد الحرام، وإن كان هناك من المسلمين من لم يصدق بذلك، فليقرأ تأريخ يزيد وأبيه.

فإنّ الذي يعمد على ضرب الكعبة بالمنجنيق،كيف يستعظم جريمة اللهو واللعب فيها بالقرود والفهود...وكيف يستكبر قتل النّفس المحرّمة....خصوصاً نفس الإمام الحسين عليه السلام.

فواهاً على أمّة يحكمها فاجر مستبد مثل يزيد بن معاوية، الذي لم يصل إلى المنصب عن طريق نص ولا شورى، ولم يكن يملك علماً ولا حكمة ولا عدالة تؤهّله للخلافة.

بل كان باغياً طاغياً فاسداً، فكان لا بدّ للحق من صرخة في وجهه، ولا بدّ من الخروج على نظام حكمه الجائر، ولا بدّ من قتاله لبغيه على الإسلام (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كلّه لله...)[1].

وإليكم جملة ممّا قاله الإمام الحسين بن علي عليهما السلام بحق تلك العصابة الظّالمة، على مسامع القوم الذين تخلّوا عن نصرة الحق الذي دعا إليه: (غررتموني كما غررتم من كان من قبلي، مع أيّ إمام تقاتلون بعدي، مع الكافر الظالم الذي لم يؤمن بالله ولا برسوله قط، ولا أظهر الإسلام هو وبني أميّة إلا فرقا من السّيف؟ ولو لم يبقَ لبني أميّة إلا عجوز درداء، لبغت دين الله عوجا)[2].

ما أبلغ كلمات الإمام الحسين عليه السلام الهادفة إلى تعرية هذا الحاكم وفضحه، وكشف مساوئه ومثالبه، عندما دعي عليه السلام إلى البيعة له، فقال:

---

(١) الأنفال :٣٩

(٢) بحار الأنوار : ٤٤ / ٤٣

(إنا أهل بيت النّبوّة ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، بنا فتح الله أمّته وبنا يختم، ويزيد رجل فاسق، شارب الخمر، قاتل النّفس المحرّمة، معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله، ولكن نصبح وتصبحون وننظر وتنظرون، أينا أحق بالبيعة والخلافة)[1].

بمعنى: أنّ هناك طغاة – على امتداد الزّمن – يحذون حذو يزيد في ترويج الباطل ونشر الفساد، فمن كان من المؤمنين، اتخذ الحسين عليه السلام قدوته في الحياة، فإنَّه لا يهادن ولا يسالم أحداً من أولئك الطّغاة.

فلا بدّ لروّاد مدرسة الإمام الحسين عليه السلام وحملة كلمته، من أن يكون لهم موقف في ميدان الصّراع الدّائم، الذي فيه الحق هو الحق والباطل هو الباطل، والأعداء هم الأعداء الذين لم تتغيّر عقائدهم وأفكارهم وتوجّهاتهم، وإنْ تغيّرت مظاهرُهم وأشكالهم وأنماط حياتهم.

ففي ميدان هذا الصّراع المرير، لا بدّ وأن تبقى كلمة الإمام الحسين عليه السلام تقارع الباطل في كلّ مظاهره وأشكاله.

ب – الاستبداد بالسلطة

كانت هذه الخطوة، تمثّل سحقاً لإرادة الأمة، واستخفافاً بقدرها، واستهانة برأيها، ومصادرة الحرّيّات، ومنع الآخرين عن التّدخّل الإصلاحي في شؤون الحكم، حيث فرض معاوية ولده يزيد خليفة بالقهر والغصب دون رضا الأمة.

فأخذ يروّج لابنه منصب الخلافة من بعده عبر عملائه المأجورين أمثال مروان بن الحكم،الذي ما إن وصل إليه كتاب معاوية بالمدينة أن يأخذ البيعة ليزيد .

ج – السلوك الإرهابي المنظم

ومتابعة الرّموز والشّخصيّات الإسلاميّة المخلصة للدين والأمة، وقد امتدّ هذا السّلوك منذ عهد أبيه معاوية الذي كان يكتب إلى عمّاله في جميع الأنحاء والأمصار:

(انظروا إلى من قامت عليه البيّنة أنّه يحبّ عليًا وأهل بيته فامحوه من الدّيوان، وأسقطوا عطاءه ورزقه، ومن اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم، فنكِّلوا به وأهدموا داره)[2].

وتفشى القتل على أيدي عمّاله بصورة فضيعة، مثل (سمرة بن جندب) و(بسر بن أرطاة) و(زياد بن سميّة) و(الضحاك بن قيس) وغيرهم، هؤلاء كانوا من أقسى الخليقة.

(سأل رجل ابن سيرين قائلاً: هل كان سمرة قتل أحداً؟ فأجابه : وهل يحصى من قتل سمرة بن جندب؟ إستخلفه

(١) مروج الذهب: ج/ ٢/ ٥٢.

(٢) نهج البلاغة: ١١/ ٤٥

زياد على البصرة وأتى الكوفة فجاء وقتل ثمانية آلاف من الناس،فقال له: هل تخاف أن تكون قتلت أحداً بريئاً؟ فردّ عليه قائلاً : لو قتلت إليهم مثلهم ما خشيت)[1].

د – تفتيت البنية الاقتصادية

التلاعب بثروات الأمّة، وتبذير الأموال هنا وهناك، من أجل إشباع شهواته وملذّاته ونزواته، وتوزيع المال رشاوي للشعراء والمرتزقة من الوعّاظ المنحرفين، الذين راحوا يختلقون الأحاديث في حقّ بني أمية، ويثقفون الناس على الطاعة والاستسلام للسلطة الحاكمة، ويضعون الرّوايات التي تلزم بطاعة الحكام وإن كانوا فجّاراً ظالمين.

يقول أبو الفرج الأصفهاني : (وتسارع المخدوعون لمبايعة يزيد بخلافة المستقبل، وبينما هم يتزاحمون حول منبره،وإذا بصوت رفيع يدعوهم للهدوء والإنصات فجلس الناس وأصغت الآذان، واشرأبّت الأعناق، وإذا بشاعر يقف على رأس معاوية، بينما اتجه بإشارته إلى يزيد، وكان ممّا قال:

ألا ليت شعري ما يقول ابن عامر ... ومروان أم ماذا يقول سعيد
بني خلفاء الله مهلاً فإنّما ... يبوّئها الرحمن حيث يريد
إذا المنبر الغربي أخلاه ربّه ... فإنّ أمير المؤمنين يزيد

وارتفع تصفيق حاد من الحاضرين بينما أسرّ معاوية إلى الشّاعر قائلاً: قد فرضنا لك عطاء وأنت في بلدك، فانْ شئت أنْ تقيم بها أو عندنا فافعل فإنّ عطاءك سيأتيك، ونادى معاوية على أحد أصحابه وقال له: وبشره أني قد فرضت لأربعة آلاف من قومه من خندف)[2].

الثّاني : تهاون الأمّة

علينا أنْ نستذكر آيات الكتاب الكريم ونصوص المعصومين عليهم السلام، التي تركّز على أنّ الأمة متى هابت أن تقول للظالم يا ظالم ومتى تركت مسؤولية الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر فقد تودع منها، وضربت عليها الذّلّة وصبّ عليها العذاب ليشمل البر والفاجر (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)[3].

وجاء عن الإمام علي عليه السلام قوله : (سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : (قال الله تعالى : لأعذبنّ كلّ رعيّة دانت بطاعة إمام ليس منّي وإن كانت الرّعيّة في نفسها برة)[4].

(١) تاريخ الامم والملوك: ٦/ ٢٣٢
(٢) الاغاني: ٢٠/ ٢٢٤ .
(٣) الأنفال : ٢٥
(٤) بحار الأنوار: ٣٦/ ٣٣٧.

إذ ليس في كلّ الأحوال تكون الأمة بمستوى مسؤوليّتها، بل هناك حالة من حالات التّردّد والتّهاون تؤدّي بها إلى الصّمت المطبق عمّا يجري في جهاز الحكم وفي الوسط الاجتماعي، وإنّ من أمرّ المرارات أنْ يتفاعل على الواقع فساد الحاكم وتهاون الأمة، وقد يكون البعض من أبناء الأمّة – آنذاك – غير راضٍ في أعماقه بما يجري من مظاهر الظّلم والفساد والانحراف الأموي.

ولكن هناك ما يدعوه إلى الصّمت والتّهاون والاستسلام للأمْر الواقع، وهناك منهم من يتطلّع إلى التّغيير بروح الإتكالية على الغير، ناسيًا بذلك النّص القرآني القائل: (إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم)[1]،التّغيير باتجاه الخير والصّلاح والفضيلة، والنّص القرآني القائل: (ذلك بأنّ الله لم يك مغيّرًا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم)[2]،وهو التّغيير باتجاه الشرّ والانحراف، والرّضا بمظاهر الفساد والفسق والخرق لحدود الله عزّ وجل.

فهنا عندما تخبو جذوة الإيمان، وينطفئ وهج الإعتزاز بالرّسالة والشّعور بالمسؤولية، يكون الإنسان في الأمة كجالس في دفء الشّمس في أيّام البرد القارص، فأسدل عليه الظّل بعد غياب الشّمس دثارًا من السّكون والهدوء والقعود.

فلقد تحرّك الإمام الحسين عليه السلام للنهضة في هذا الوضع، ومن خلال قراءته لواقع الأمّة، وتحديده للسبب الذي يجعل الناس يتحرّكون في ركاب أمثال الظّالم يزيد وبني أميّة، بالرغم من معرفتهم من هو الحسين ومن هو يزيد، وبالرغم من شهادتهم بالتّوحيد والنّبوّة، وصلاتهم وصيامهم وحجّهم.

ولكنّ الذي نزل إلى عمق تفكير أولئك الناس وعاطفتهم وممارستهم آنذاك، ليس هو الدين، بل الدنيا، والجاه، والمال، والسلطان، وهو ما غرسه الحكام الأمويّون الظلمة في أعماق النفوس الضعيفة،لذا قال الإمام الحسين عليه السلام: (الناس عبيد الدنيا والدّين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درّت به معايشهم فإذا محصوا بالبلاء قل الديانون)[3].

أي : أنّ لسان الإنسان قد يتحرّك بالدّين كما يتحرّك بأيّ مطعوم من مطعومات الدنيا، فما دامت حلاوة المطعوم في فمه فهو يتحرّك، فإذا ذهبت الحلاوة سكن اللسان،فهكذا ترى الناس يصلون ويصومون ويحجّون وتلعلع ألسنتهم بالدين ما دام هناك عنوان يستدرّه من وراء هذه الحركة (فإذا محّصوا بالبلاء قل الديانون).

وأيّ بلاء كبلاء الأمّة بالموقف بين الدّنيا والدّين؟ هذا الموقف الذي سقط فيه الكثير، ونجى منه اليسير ممّن امتحن

---

(١) الرعد : ١١.

(٢) الأنفال:٥٤.

(٣) بحار الأنوار : ٤٤ / ٣٨٣.

الله قلوبهم للتقوى، وهي الثّلّة التي استخلصها الله عزّ وجل لنصرة الحق في رسالة الحسين عليه السلام وسقط الذين كانوا يفكّرون بالطّريقة التي كان يفكّر بها عمر بن سعد وغيره، إذ يقول :

فو الله لا أدري وإنّي لحائر أفكر في أمري على خطرين
أأترك ملك الرّي والرّي منيتي أم ارجع مأثومًا بقتل حسين

إلى قوله:

يقولون أنّ الله خالق جنة ونار وتعذيب وغل يدين
فإن صدقوا فيما يقولون إنني أتوب إلى الرحمن من سنتين

وكثير من الناس اليوم يفكّرون بهذه الطريقة، فهم يقولون أنّنا نعصي الله إلى حين، ثم نصلّي ونصوم ونتعبّد ونتوب فيتوب الله علينا، إنّهم يؤمنون بالحقيقة ثم يعاكسونها إلى غيرها، لأنّ هناك ما يغشي الفكر كما يغشي البصر في لحظة الصراع بين الدين والدنيا، وبين القيم العليا والمادة.

إنّ علينا أن نقرأ الحسين عليه السلام كما نقرأ النبي صلى الله عليه وآله، في تاريخه ومواقفه وأهدافه وغاياته، ومن ثمّ ننعى مأساة شذاذ هذه الأمّة في نمط تفكيرهم،ونعجب لها كيف فرّقوا بين الحسين وجدّه في الموقف والغاية، فمضوا يقولون: إنّ الحسين قتل بسيف جده؟!.

في الوقت الذي كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : (حسين منّي وأنا من حسين) ليؤكّد بأنّ هناك اندماجا رساليًا وتمازجًا بينه وبين الحسين عليه السلام في الفكرة وجوهر الحركة والهدف، كما أسلفنا.

سوى فارق واحد ينعكس على أسلوب العمل وطريقة الحركة، وهو: أنّ حركة النبي صلى الله عليه وآله حركة تغيير جذري لمجتمع عشعشت فيه الفكرة الوثنية قلبًا وسلوكًا.

وأمّا حركة الحسين عليه السلام،فهي حركة تغيير إصلاحي لما علق في بنية هذه الأمة، وما ران على القلوب، وغشي البصائر من ذرّ الأهواء وغبار الأطماع.

إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله بنى الأساس، وأقام الهيكل العام لبناء الأمة، ووضع فيه مصابيح الهدى والنور، فجاء الأمويون فغلفوا هذه المصابيح، وعتموا الأجواء، ولا نقول: أطفأوا المصابيح، بل أرادوا ذلك (يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)[1].

(١) التوبة : ٣٢.

لقد انعدمت الرؤية بما صنعه الأمويّون من سدود وحواجز بين الأمّة وبين مصابيح هدايتها، فأصبحت الأمّة في الموقف على ثلاثة أشكال:

١- كان في الأمّة نمط من الناس قد لفّه دثار السكون والهدوء والإستسلام، خوفًا وعجزًا عن مواجهة تيّار الإنحراف، مع الشّعور بالمرارة وعدم الرّضا بالواقع، ولكنه لا يستطيع التّعبير عمّا في داخله خشية بطش الظّالم.

٢- هناك من لفّه عامل التّهالك على الدنيا، وأغرته المطامع، ودفعته المصالح الخاصّة، وألقت به في ركاب الظالم بشكل فاضح، فشهر السيف في وجه الحق، مع يقينه بما عليه أهل البيت عليهم السلام من حق واستقامة.

٣- هناك نمط من الناس، راح يسعى لخلق المبرّر لما عليه من الضّعف والاهتزاز في الإيمان، ومن منطلق الحرص على مصالحه، راح يتدخل في أمر القيادة الإسلامية، ويبدي نصائحه من منطلق ضعفه، لتغيير قرارها باتجاه القعود عن النهضة.

مثاله عمر الأطرف، الذي خاطب الإمام الحسين عليه السلام بقوله: (حدثني أبو محمد الحسن عن أبيه أمير المؤمنين عليه السلام إنّك مقتول فلو بايعت لكان خيرًا لك).

وعبد الله بن عمر بن الخطاب الذي خاطب الحسين عليه السلام بضرورة التّراجع والكف عن المواجهة مع بني أمية فردّ عليه الإمام الحسين عليه السلام بقوله:

(يا أبا عبد الرحمن أما علمت، أنّ من هوان الدّنيا على الله تعالى، أنّ رأس يحيى بن زكريّا أهدي إلى بغيّ من بغايا بني إسرائيل، أما تعلم أنّ بني إسرائيل كانوا يقتلون ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشّمس سبعين نبيًا ثم يجلسون في أسواقهم يبيعون ويشترون كأن لم يصنعوا شيئًا، فلم يعجل الله عليهم بل أخذهم بعد ذلك أخذ عزيز ذي انتقام... (إتق الله يا أبا عبد الرحمن ولا تدعن نصرتي)[1].

فبين عامل الخوف وعامل الحرص على المصالح الخاصّة غابت روح النّجدة في الأمّة، واحتجبت حرارة الشّعور بالمسؤولية، وعندها تفشّت في الأمّة عدّة ظواهر منها:

١- ظاهرة التمزّق الإجتماعي

هذه الظّاهرة التي غذّاها الحكم الأموي بإثارة الفتن بين القبائل كتفضيل قريش على العرب، وإثارة الصّراع بين المهاجرين، والأنصار وانتزاع ثقة البعض بالآخر.

فالأمّة التي تتراجع وتتقوقع وتعيش لأطماعها ومصالحها لا لرسالتها ومسؤوليتها، سوف يكون من الطبيعي أن تتسع فيها الخلافات وتتأجج الصراعات، وتكبر الجفوة،وتفتقد روح المودّة والألفة فيما بينها، إذ لم تجتمع على خط

(١) بحار الانوار: ٤٤/ ٣٦٤

مشترك ولا غاية توحد طموحها وآمالها.

٢- ظاهرة التحلل الأخلاقي

ومن الطبيعي أنّ الأمّة في هذا الحال، ستفتقد الشعور بضرورة التناصح بدين الله-تعالى-، وتتجاهل مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما بينها، وبالتالي يلقى الإنحراف والتحلل الأخلاقي رواجاً وشيوعاً في صفوفها؛ لأنّ الشعور بالمسؤولية الرّسالية ينبع من واقع العقيدة، ويكون هو القاعدة التي تنطلق منها الأمّة إلى فرض الرّقابة الاجتماعيّة، ومتابعة الخلل في السلوك والتعامل العام.

٣- ظاهّرة التحريف الديني

فإنّ الأمـّة التي تفتقد الشعور بالمسؤولية، وينصرف أبناؤها إلى التفكير بأنفسهم ومصالحهم تصبح أرضية سهلة لغرس المفاهيم الخاطئة، والمعاني المحرّفة حول أوامر الشريعة وتوجيهاتها، وتغزوها التيّارات التي قد تتخذ الإسلام لباساً وواجهة تنفذ من خلالها إلى فكر الأمّة ومعتقدها وقضاياها الهامَّة لتؤسّس فيها مفاهيم ورؤية دينية أخرى.

لقد فهم الكثير من الناس – ومنهم الشخصيّات المعوّل عليها آنذاك – أنّ فساد الجهاز الحاكم وظلمه لا يقع تحت مسؤوليتهم كما تقع الصّلاة والصيام وغيرها من الواجبات الفردية.

فعندما كانت تطرح مسألة الحكم والبيعة ليزيد، وما هو الموقف من هذا الأمر، كان عبد الله بن عمر وأمثاله الكثير يقول : (أما أنا فعليّ بقراءة القرآن ولزوم المحراب).

فقد شمل هذا التحريف حتى المفهوم للصراع القائم، فتصوّر الكثير من الناس أنه لا يعدو كونه حالة من حالات النزعة المتصارعة على موقع القيادة، وذلك لجهلهم بمفهوم الإمامة ومسؤوليتها في حياة الأمة.

فكان من نتائج هذا التصوّر ما حدث من خيانة وإنقلاب في مجتمع الكوفة الذي بايع الإمام الحسين عليه السلام على يد مبعوثه مسلم بن عقيل عليه السلام بادئ الأمر.

وذلك عندما وصل عبيد الله بن زياد إلى الكوفة ونزل قصر الإمارة، وبثَّ جواسيسه لإشاعة الإرهاب فقالوا: أيها الناس الحقوا بأهاليكم، ولا تعجلوا الشَّر، ولا تعرضوا أنفسكم للقتل، فإنَّ هذه جنود أمير المؤمنين يزيد قد أقبلت، وقد أعطى الله الأمير عهداً لئن تممتم على حربه، ولم تنصرفوا من عشيتكم، أن يحرم ذريتكم العطاء، ويفرق مقاتليكم في مفازي الشام، وأن يأخذ البرئ منكم بالسقيم، والشاهد بالغائب، حتى لا يبقى له بقية من أهل المعصية إلَّا أذاقها وبال ما جنت أيديها...

فلمَّا سمع الناس مقالتهم أخذوا يتفرقون وكانت المرأة تأتي ابنها أو أخاها فتقول: انصرف ! الناس يكفونك، ويجيئ

الرجل إلى ابنه أو أخيه ويقول: غداً تأتيك أهل الشام، فما تصنع بالحرب والشر؟ انصرف! فيذهب به فينصرف، فما زالوا يتفرقون حتَّى أمسى ابن عقيل، وصلى المغرب وما معه إلَّا ثلاثون نفساً في المسجد.....)[1].

الثالث: مسؤوليّة الإمامة

إنّ تحسس الإمام ﷺ، وشعوره بمرارة الواقع كان ينطلق من مسؤوليته تجاه هذا الواقع، لذا فهو يختلف عن أيّ شعور،كما أنّ تعامله مع الواقع يختلف تمامًا عن تعامل أيّ من الناس، لأنّ نظرة الإمام المعصوم ﷺ إلى الواقع نظرة دقيقة، وموقفه من الوقائع والأحداث والظواهر الاجتماعية موقف دقيق ينطلق فيه من خلال زاويتين:

أ- تارة من خلال شخصيته البشرية التي يملك فيها حرية الحركة والتصرف ضمن المسيرة الطبيعية كما ينطلق ويتحرك أيّ إنسان، لذا عليه أن يتوقى مواقع الضرر والخطر على النفس والمال والأهل.

ب- وتارة أخرى ينطلق من خلال شخصية الإمامة المعصومة التي تعتبر ملكًا لله وللرسالة والأمة، فيتوجه ضمن التَّخطيط الرَّباني لحياته ومماته بالطَّريقة التي تقتضيها الحكمة الرَّبانية ومصلحة الأمة والرسالة حتى مع علمه بالطريقة التي يموت عليها.

ولإيضاح الفكرة نقدم مثالًا واحدًا من تعامل الإمام أمير المؤمنين ﷺ مع الواقع، وهو: أنه ﷺ كان جالسًا مع جمع من أصحابه بظلِّ جدار يوشك أن يقع، فنهض على عجالة من مكانه إلى مكان آخر فبينما هو كذلك حتى سقط الجدار، فقيل له: أفررت من قضاء الله وقدره؟! فأجاب ﷺ: فررت من قضاء الله وقدره إلى قضائه وقدره، ليؤكد لنا أنّه كأيّ إنسان آخر لا يخرج - في كلّ أحواله - عن القضاء والقدر، ولكنه مع علمه بموقع الخطر يعتبر مسؤولًا عن إيقاع نفسه وحياته فيه.

أما في لحظة انطلاقه من شخصية الإمامة المعصومة ليلة استشهاده ﷺ، فقد كان يتحرك بكامل الرّضا والقناعة بأنَّها الليلة التي وعده بها رسول الله ﷺ كما نقرأ في قصة استشهاده ﷺ، ولا ينبغي أن نستغرب منه ذلك الموقف أو نتهمه بأنه ألقى بنفيه إلى التهلكة؛ لأنه لم يمتنع من الخروج إلى المسجد ولم يعاجل قاتله بالعقاب.

وهل يختلف الإمام الحسين ﷺ عن أبيه أمير المؤمنين ﷺ في المثال؟ الجواب: كلَّا لا يختلف.

وذلك عندما دعي إلى البيعة، كتب يزيد إلى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان وكان - أي الوليد - على المدينة من قبل معاوية أن يأخذ الحسين ﷺ بالبيعة له، ولا يرخص له في التأخير عن ذلك.

فأنفذ الوليد إلى الحسين في الليل فاستدعاه فعرف الحسين ﷺ الذي أراد، فدعا جماعة من مواليه وأمرهم بحمل

(١) بحار الأنوار: ٤٤/ ٣٥٠

السلاح، وقال لهم : إنّ الوليد قد استدعاني في هذا الوقت، ولست آمن أن يكلفني فيه أمرًا لا أجيبه إليه، وهو غير مأمون، فكونوا معي فإذا دخلت إليه فاجلسوا على الباب، فان سمعتم صوتي قد علا فادخلوا عليه لتمنعوه....)[1].

في الوقت الذي نرى أنّه عليه السلام كله رضا وابتسام لما كان مخططًا له ومعدّا لاستشهاده من أوّل خطوة غادر فيها مدينة جده صلى الله عليه وآله إلى آخر لحظة من لحظات حياته، انطلاقًا من مسؤولية الإمامة الشرعية التي حاول الإمام الحسين عليه السلام أن يبلور مفهومها للأمة، ويعرّفها بأنّ الإمامة هي الإمتداد لرسالة الرسول محمّد صلى الله عليه وآله،لأجل أن تعرف الأمة أنّ الذي يقوم به الإمام الحسين عليه السلام من عمل وما يتخذه من موقف المجاهدة ضد الحاكم هو من صميم رسالته ومسؤوليته الشرعية.

لذلك جاءت كلماته في رسالته إلى أهل البصرة تؤكد على الحق الشرعي لأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وعلى كونهم أصحاب المسؤولية، وأنهم أسباب الهداية في الأمة بأي ثمن يقدمونه، فقال عليه السلام:

(أما بعد فإنّ الله اصطفى محمّدًا صلى الله عليه وآله على خلقه، وأكرمه بنبوّته، واختاره لرسالته، ثمَّ قبضه إليه وقد نصح لعباده، وبلغ ما أرسل به، وكنا أهله وأولياءه وأوصياءه وورثته وأحق الناس بمقامه في الناس، فاستأثر علينا بذلك قومنا فرضينا،وكرهنا الفرقة وأصبنا العافية ونحن نعلم أنا أحق بذلك الحق المستحق علينا ممن تولاه، وقد بعثت رسولي إليكم بهذا الكتاب،وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه، فإنّ السنة قد أميتت،والبدعة قد أحييت، فإن تسمعوا قولي أهدكم إلى سبيل الرشاد)[2].

إنّ المسؤولية الشرعية – قد أملت على سيد الشهداء الحسين عليه السلام أن يعمل باتجاهين يعضد أحدهما الآخر وهما:

أولاً: إتجاه بلورة صلته وارتباطه برسول الله صلى الله عليه وآله وكون وظيفة الإمام عليه السلام إمتدادًا لرسالة الرّسول صلى الله عليه وآله ليكون مفهومًا لدى الأمّة مدى شرعية الموقف.

ثانياً: بيان استعداده وتصميمه على المواجهة للحكم الجائر ورفض أيّة مبادرة للصلح معه؛ لأنّ ذلك يعدّ تراجعًا عن أداء الواجب الرّسالي، وإقرارًا لمفاسد الحكم الجائر.

وقد جاء البيان الذي أعلن فيه الإمام الحسين عليه السلام العزم على النهضة، مؤكّدًا على ربط ذهنية الأمّة بهذين الاتجاهين:

(إني لم أخرج أشرًا ولا بطرًا ولا مفسدًا ولا ظالمًا،وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي صلى الله عليه وآله، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدّي وأبي علي بن أبي طالب، فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومن ردّ علي أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق وهو خير الحاكمين)[3] .

(١) بحار الأنوار : ٤٤ / ٣٢٤

(٢) مقتل الامام الحسين عليه السلام للسيد عبد الرزاق المقرم ومثير الاحزان: ص٢٧.

(٣) بحار الأنوار : ٤٤ / ٣٢٩

مواقف خالدة

الشيخ طاهر الغانمي

مواقف العباس عليه السلام

لا شك أن انفراد العباس عليه السلام بمقام خاص دون سائر الشّهداء مع الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء يدلّ على مكانة خاصة ومميّزة لذلك العبد الصالح عند الله -عزَّ وجل-، ولا شك بأنَّ الكرامات المعروفة عنه أيضاً والمشهورة والذائعة الصيت بين الجماهير الموالية لأهل بيت العصمة عليهم السلام تشير إلى ذلك، وكذلك انفراده بزيارة خاصة إلى جانب زيارة الإمام الحسين عليه السلام وعلي الأكبر والشّهداء تدلّ بوضوح لا مزيد عليه على عظمة تلك الشّخصية المتفرّعة من الشّجرة العلوية المباركة صنو النبوّة وتوأمها في الجهاد الكبير المؤسس لمسيرة الإسلام.

ومما يؤسف له أنَّ سيرة العباس عليه السلام لا نملك منها الشيء الكثير من التفاصيل، إلاَّ أنَّ مواقفه الرّسالية الثابتة والقوية في كربلاء وتضحيته واستبساله في الذّود عن الإمام الحسين عليه السلام واستشهاده في المعركة تعطينا صورة واضحة لا غبار عليها، خاصّة إذا لاحظنا أنَّه كان حامل اللواء في معسكر الإمام عليه السلام والمعلوم أنَّ حامل اللواء عادةً يكون من أوثق الناس وأشدّهم إيماناً بمبادئه وأقواهم مراساً وعراكاً وخبرة في القتال.

من هنا نرى أنَّ الإمام الحسين عليه السلام لم يفرّط بالعباس عليه السلام من أوّل المعركة، وإنّما تركه إلى جانبه حتى

المرحلة الأخيرة من مجرياتها، وكان أغلب من هم مع الإمام عليه السلام سواء من أصحابه أو من أهل بيته قد نالوا درجة الشّهادة الرّفيعة وارتحلوا إلى الله العلي القدير.

أما الوقفات التاريخية التي سجَّلتها وقائع السيرة الحسينية للعباس -سلام الله عليه- فهي ما يلي:

أوّلاً: رفضه لأمان الأمويين:

وهذا ما تكرّر مرتين، ففي المرّة الأولى أرسل ابن زياد أماناً للعباس وأخوته بسبب توسُّط أحد أخوالهم، إلاَّ أنَّ العباس عليه السلام أجاب عن ذلك بقوله: « .. لا حاجة لنا في الأمان، أمان الله خير من أمان ابن سميّة»[1]، والمرّة الثَّانية كانت في اليوم العاشر عندما نادى الشمر -لعنة الله عليه-: « أين بنو أختنا، أين العباس وأخوته؟»[2] إلاَّ أنهم أعرضوا عنه، فقال الإمام الحسين عليه السلام أجيبوه ولو كان فاسقاً، فأجابوه وقالوا: ما شأنك وما تريد؟ قال: يا بني أختي أنتم آمنون لا تقتلوا أنفسكم مع الحسين والزموا طاعة أمير المؤمنين يزيد، فقال العباس عليه السلام: « لعنك الله أتؤمننا وابن رسول الله لا أمان له وتأمرنا أن ندخل في طاعة اللعناء وأولاد اللعناء»[3].

إنَّ ذلك الموقف المشرّف من العباس عليه السلام حري بالمؤمنين الملتزمين المجاهدين أن يكون لهم درساً بليغاً عندما يكونون في ساحات القتال ضد الأعداء وتعرض عليهم أمثال ذلك النوع من الأمان الكاذب من القتل؛ لأنَّ الاستجابة لمثل تلك النّداءات الخبيثة هي الخسارة الكبرى في الدنيا والآخرة، وكيف يمكن للعباس وهو شبل أمير المؤمنين عليه السلام أن يقبل لنفسه بوصمة العار الأبدية في الدنيا والآخرة.

ثانياً: موقفه ليلة العاشر من المحرم

إذ أنَّه في تلك الليلة الأخيرة لأصحاب الحسين عليه السلام في هذه الدنيا كان الإمام عليه السلام قد جمعهم وخطب فيهم قائلاً: « **أمَّا بعد فإنِّي لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي فجزاكم الله عنّي جميعاً... فانطلقوا جميعاً في حل ليس عليكم منّي ذمام، وهذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً، وليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي...**»[4]، وعند ذلك قام العباس عليه السلام وقال: « لِـمَ نفعل ذلك؟ لنبقى بعدك، لا أرانا الله ذلك أبداً» إنَّ تلك الكلمات لا ريب أنَّها أثلجت قلب الإمام الحسين عليه السلام الذي أراد أن يكتشف مدى القوّة والصلابة

(١) مواقف من كربلاء: ج١، ص١٣ .

(٢) المصدر نفسه: ج١، ص١٣ .

(٣) الملهوف: ص ٨٩.

(٤) المصدر نفسه: ص ١٥١.

عند أولئك الأصحاب وعند أهل بيته ﷺ، أولئك المقبلون عند انتهاء ذلك الليل على المعركة التي كانت نتيجتها العسكرية محسومة قبل البدء في القتال، ولا شك أنَّ كلمات العباس عليه السلام قد شجَّعت الكثير من الأصحاب أيضاً على التَّعبير عن الوفاء وعن الالتزام بالقتال إلى جانب الإمام الحسين عليه السلام.

فالعباس عليه السلام كان بإمكانه لو لم يكن يعيش الوفاء لدينه وإسلامه وإمامه، لكان رضي بذلك العرض السّخي والكريم من الإمام عليه السلام لحفظ حياته وحياة أخوته بذلك أيضاً، وفي هذا الموقف درس بليغ وموعظة لكل المجاهدين الثّائرين الذين قد يصادفون مثل هذا الموقف من قادتهم حرصاً على حياتهم، ولهذا فإنَّ المجاهدين الذين قد تعرض عليهم مثل هذه القضايا أن لا يأخذوا من ذلك ذريعة للانسحاب والتخلُّف خاصة إذا كانت المعركة قائمة.

ثالثاً: موقفه عند مشرعة الماء

إنَّ قطع الطريق من جانب الجيش الأموي أمام الحسين عليه السلام وأصحابه وأهل بيته، قد أوصل كل من في معسكر الإمام عليه السلام إلى حالة شديدة من العطش في ذلك الجو اللاهب النّاتج عن شدّة حرارة الشّمس وسخونة رمال الصّحراء، والعباس عليه السلام كان يحمل لقب «السقّاء» لأنَّه كان متكفّلاً لشدَّة بأسه وشجاعته بإحضار الماء، وكان قد فعل ذلك قبل اليوم العاشر، فهنا تجمع روايات السيرة الحسينية أنَّ العباس عليه السلام شقّ جموع ذلك الجيش ووصل إلى المشرعة عند حافّة النّهر، واغترف غرفة بيده؛ لكي يشرب لإرواء بعض ظمأه الشّديد، إلاَّ أنّه تدارك الأمر وتذكّر أنَّ سيده وإمامه الحسين عليه السلام يعاني مثله العطش أيضاً، فما أسرع ما رمى الماء من يده، ومثَّل ذلك شعراً فقال:

يا نفس من بعد الحسين هوني ... وبعده لا كنت أن تكوني

هذا الحسين وارد المنونِ ... وتشربين بارد المعين[1]

فحمل وهو شديد العطش قربة الماء ليوصلها إلى الإمام عليه السلام وأهل بيته لكي يشربوا، إلاَّ أنَّ القوم الظالمين عالجوه عبر كمين بقطع يده اليمنى فنقل الماء إلى يده اليسرى فبادروه بقطعها أيضاً، ومع ذلك لم ييأس من إيصال الماء، إلى أن أصابت السهام قربة الماء فأريق ماؤها، وانهمرت عليه السهام إلى أن سقط صريعاً على الأرض، ونادى الإمام الحسين عليه السلام فحضر عند جسده الشّريف يريد حمله إلى المخيم، فإذا بالعباس يرفض، إذ كيف سيواجه العطاشى من النساء والأطفال الذين كانوا ينتظرون الماء الذي كان يحمله إليهم ليرتووا.

إنَّ ذلك الموقف فيه من الإيثار الشيء الكبير والعظيم، فالقضية لم تكن كفّاً من الماء، إلاَّ أنَّه كان يساوي في تلك اللحظات الحرجة حياة إنسان لشدّة الاحتياج إلى قطرة من الماء لإرواء الأجساد التّوَّاقة، وهذا الموقف هو الذي

(١) بحار الأنوار: ج ٤٥/ ص٤١.

ترمز إليه وتعبّر عنه الآية القرآنية (**ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة**)[1]، فتلك الطّاعة وذلك الوفاء هي النّفسيّة المؤمنة التي ينبغي للشباب المؤمن المجاهد أن يكون عليها، ولأنَّ ذلك الإيثار من العبّاس هو الذي مدحه الإمام زين العابدين عليه السلام عندما كان في مقام تبيان الفضائل التي كانت عند أبي الفضل العباس، حيث قال عليه السلام: « **رحم الله العباس، فلقد آثر وأبلى**»[2].

وبتلك المواقف الرسالية البليغة الوعظ والتّأثير في النّفوس وصل العباس عليه السلام إلى ذلك المقام السامي الذي جعل منه قبلة أنظار وأتباع ومحبّي أهل البيت عليهم السلام ليشفع لهم عند الله وليطلبوا منه قضاء حوائجهم التي يضعونها بين يديه، ويتحقّق بالتّالي كثير منها كما هو المعهود والمعروف منذ تلك العصور من كربلاء، حتى صارت استجابة الله -عزَّ وجل- لدعوات المؤمنين وطلباتهم التي يتوجّهون بها إليه من خلال أبي الفضل العباس أثراً مشهوداً عنه، وفي هذا كله من الدّلالة على سمو الرّفعة وعلوّ المنزلة ما لا يخفى على كل ذي عقل وقلب.

وممّا لا ريب فيه أنَّ تلك الشّخصية استحقّت بكل تقدير وعن جدارة تلك الزيارة الخاصّة التي وردت عن الأئمة الأطهار عليهم السلام والتي جاء فيها: « **السّلام عليك أيّها العبد الصّالح والصديق المواسي أشهد أنَّك آمنت بالله ونصرت ابن رسول الله ودعوت إلى سبيل الله وواسيت بنفسك فعليك من الله أفضل التحية والسلام، بأبي أنت وأمي يا ناصر دين الله، السلام عليك يا ناصر الحسين الصديق، السلام عليك يا ناصر الحسين الشهيد، عليك منّي السلام ما بقيت وبقي الليل والنهار**»[3].

موقف الإمام زين العابدين عليه السلام

هو الإمام الرابع في سلسلة الأئمة الأطهار عليهم السلام تلك الشّموس الرّبّانية والأنوار الإلهية التي أضاءت بإيمانها وأقوالها وأفعالها طريق الحياة للبشرية جمعاء لتهتدي إلى الله -سبحانه- وتعيش الحياة من موقع العبودية والطاعة، وقد أبلوا في ذلك البلاء الحسن، وتحمّلوا في سبيل هذا الهدف كل أنواع الأذى والضيق فحفظوا بذلك دين الله وسنّة نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم.

لقد عاش الإمام السجاد عليه السلام حياته كلّها على أنَّها كربلاء، كانت معه في حِلّه وترحاله، كانت تمتزج مع طعامه وشرابه، وكانت جزءاً لا يتجزّأ من علاقته بالناس؛ لأنَّه كان يرى أنَّ كربلاء ليست قضية الحسين عليه السلام كأب له فقط

(١) سورة الحشر/ الآية: ٩.
(٢) بحار الأنوار: ج٤٤/ ص٢٩٨.
(٣) المزار: ٤٢٥.

أو كشخصٍ عزيزٍ عليه، وإنَّما كان يراها على أنَّها قضيّة الإسلام كله وقضيّة الرسالة الإلهية كلّها، ولهذا لم تنتهِ كربلاء عنده بانتهاء المعركة، بل إنّها بدأت منذ تلك اللحظة التي سقط فيها الحسين عليه السلام شهيداً مضرّجاً بدمه على رمال الصّحراء اللاهبة.

فصحيح أنَّ الإمام الحسين عليه السلام قد سقط شهيداً، إلاَّ أنَّ ذلك أوجب مسؤولية كبيرة جدّاً، وهي إيصال صوت الإمام عليه السلام إلى الأمّة الإسلامية كلّها لتعلم أسباب الاستشهاد وظروفه لتستفيق بذلك على حقيقة المؤامرة التي تُحاك ضدّ الإسلام والأمّة معاً.

وهكذا تشاء القدرة الإلهية أن يكون الإمام السّجّاد عليه السلام مريضاً يوم المعركة، مع أنَّ الرّوح المحمّديّة العلوية الحسينية لم تكن تسمح له بالنظر إلى مصارع أولئك الأصحاب والأهل، فتحامل على مرضه واستقوى عليه متّكئاً على عصا يريد الخروج إلى الميدان بعد أن خلت السَّاحة من الناصر والمعين، إلاَّ أنَّ سيّد الشّهداء عليه السلام عندما رأى منه ذلك أمر النساء من أهل بيته بإعادته إلى فراشه فهناك واجب آخر ثقيل لا يقدر على حمله غيره في مرحلة ما بعد الحسين عليه السلام فالقضية ليست قضية إرادة استشهاد بل هي أكبر من ذلك، ودم الحسين عليه السلام مع من سقطوا معه شهداء كفيلٌ بالنّهوض بالأمّة إذا وصل صوت كربلاء الرافض للظلم إلى الأسماع، وهناك خط الإمامة الذي لا ينبغي أن تخلو منه أرض الله -سبحانه وتعالى-؛ لأنّه الضمانة لاستمرار الحياة البشرية وهذا الخط وإن كان مكفول البقاء بعد كربلاء بالإمام الباقر عليه السلام الذي كان طفلاً صغيراً إلاَّ أنَّ هذا كان يعني أن يتأخّر إسماع الصوت الحسيني الثّائر الشّهيد حتى يصل الإمام الباقر عليه السلام إلى السن التي يتمكَّن فيها من القيام بمسؤوليات الإمامة ومقتضياتها، وفي هذا على احتمال كبير ضياع دم الإمام الحسين عليه السلام ونسيان كربلاء من عقول وقلوب أبناء الأمّة مما يعطي الفرصة لبني أميّة أن يوجّهوا الضّربة القاضية للإسلام ساعتئذٍ، ولهذا كان مرض الإمام السجاد عليه السلام طريقاً لعدم استشهاده وليقوم بمهمّة تبليغ الرسالة الحسينيّة.

ولم يَطُلِ الأمر بالإمام السجاد عليه السلام للقيام بتلك المهمّة ومن موقع الأسر والتّقييد بالأغلال في العنق واليدين، فكانت خطبته وكلماته في الكوفة والشام، وكانت مواجهاته ومناظراته مع أمراء السّوء قد صارت على كل شفة ولسان تنتقل من بيت إلى بيت، ومن بلدٍ إلى بلد، تخبر عن فظاعة الجريمة النّكراء التي ارتكبها بنو أمية بحق أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله.

فالموقف الأوّل

للإمام السجاد عليه السلام كان في الكوفة، عندما تجمَّعت الناس لرؤية السبايا من نساء أهل البيت عليهم السلام إذ خطب بالناس قائلاً: «**أيّها الناس من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أنا من انتُهكت حرمته، وسُلبت نعمته، وانتُهب ماله، وسُبي عياله، أنا ابن المذبوح بشط الفرات، أنا ابن من قُتِل صبراً وكفى بذلك فخراً...**».

والموقف الثاني

وهو الأقوى من سابقه كان في قصر الإمارة حيث اللعين ابن زياد الذي بادر الإمام عليه السلام قائلاً له: « ما اسمك؟ قال عليه السلام: علي بن الحسين عليه السلام، فقال له: أولم يقتل الله علياً؟ فقال الإمام عليه السلام: «**كان لي أخ أكبر مني يسمَّى علياً قتله الناس**»، فردَّ عليه ابن زياد بأنَّ الله قتله، فقال الإمام عليه السلام: «**الله يتوفّى الأنفس حين موتها وما كان لنفسٍ أن تموت إلاَّ بإذن الله**»، هذا الجواب الذي هزَّ ابن زياد من الأعماق، إذ كيف يجرؤ هذا الإنسان الأسير بين يديه على تحدِّيه بتلك الصراحة وبذلك الوضوح، ولهذا انفجر غضباً وأمر بقتل الإمام عليه السلام إلاَّ أنَّ الله حماه بعمّته زينب -عليها السلام- فقال الإمام ساعتئذٍ: « **أما علمت أنَّ القتل لنا عادة وكرامتنا من الله الشهادة**» [1]، فهذا الموقف يدل بالقطع واليقين أنَّ بقاء الإمام عليه السلام حيّاً وعدم استشهاده في كربلاء كان لحكمة إلهية بالغة، لكي تصدر هذه المواقف الفاضحة للأمويين التي تعريهم أمام الأمة وتسقط كل ادعاءاتهم المزيّفة والكاذبة.

والموقف الثالث

من تلك المواقف هو ما جرى بينه وبين يزيد اللعين في الشام عندما سأله اللعين كيف رأيت صنع الله يا علي بأبيك الحسين عليه السلام؟ قال عليه السلام: « **رأيت ما قضاه الله -عزَّ وجل- قبل أن يخلق السماوات والأرض**»[2] واستشار يزيد جلاوزته في أمر الإمام عليه السلام فأشاروا عليه بقتله فأجابهم الإمام عليه السلام وأجابه معهم: « يا يزيد لقد أشار عليك هؤلاء بخلاف ما أشار به جلساء فرعون عليه...»[3] فأمسك يزيد عن قتله، فاغتنم الإمام عليه السلام حينها الفرصة وطلب الإذن في مخاطبة الناس، فأذن له مكرهاً، فقال الخطبة المعروفة التي بدأها بحمد الله وتفضيل أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله على سائر العالمين بالخصال الموجودة فيهم... ثم قال عليه السلام: « **أنا ابن المرمّل بالدماء، أنا ابن ذبيح كربلاء، أنا ابن من بكى عليه الجن في الظلماء، وناحت الطير في الهواء**»[4] عند هذا المقطع ضجَّت الناس بالبكاء والعويل وأدركوا الخدعة

(١) الملهوف: ٢٠٢.

(٢) مواقف من كربلاء: ٢٠.

(٣) المصدر نفسه: ٢٠.

(٤) المصدر نفسه: ٢٠.

الكبرى واكتشفوا من خلال كلمات الإمام عليه السلام المكر الذي مكره يزيد وبنو أمية، فخشي يزيد عندها افتتان الناس بالإمام عليه السلام فأمر المؤذّن بأن يؤذّن للصلاة حتى يتخلَّص من ذلك الإحراج.

وبذلك نرى أنَّ الحكمة الإلهية قد لعبت دورها في إنقاذ الإمام عليه السلام من القتل في كلّ تلك المواقف، وما ذاك إلاَّ من أجل أن يصل صوت الحسين عليه السلام إلى كل أبناء الأمة، ومن أجل أن تلفح حرارة دمائه العزيزة على الله كل وجوه المسلمين ليثوروا على بني أميّة الطّلقاء الذين توصّلوا بالمكر والحيلة والنّفاق إلى أن يتسلّموا الحكم ويتلاعبوا بمقدرات الأمّة الإسلامية ومصيرها.

ولم يمر وقت طويل على كربلاء، إلاَّ وقامت الثورات ضد الحكم الأموي، من كل مكان، ولا شك بأنَّ الإمام السجاد عليه السلام لعب دوراً كبيراً في ذلك من خلال سيرة حياته الشّريفة التي لم تغب كربلاء لحظة من لحظاتها عنها، فأثبت في وجدان الأمّة وعقلها قضية الحسين عليه السلام لذي ثار من أجل قضيّة الحق السليب وأن يكون نوراً للأمة تهتدي به وتنعم، بدلاً من أن يكون الحق بيد حفنة من الأدعياء يستغلونه لمصالحهم النفعية الضيقة على حساب الأمة كلها.

لقد أدخل الإمام زين العابدين عليه السلام كربلاء إلى عمق الشعور عند المسلم فجعلها جزءاً من كل مفردة من مفردات حياتهم، فإذا أكلوا تذكّروا جوع الحسين عليه السلام وإذا شربوا تذكَّروا عطش الحسين عليه السلام وإذا خلدوا إلى الراحة تذكَّروا تعب الحسين عليه السلام ومعاناته، وبذلك تحوَّلت كربلاء بفعل الإمام السجاد عليه السلام وطريقته الخاصة إلى أسلوب حياة لدى قسم كبير من أبناء الأمة الإسلامية مما مهَّد بالتالي لكل حركة الثّورات التي أسقطت في النّهاية الدولة الأموية وقضت على أحلامهم الخبيثة ونواياهم الشّرّيرة المنحرفة.

موقف العقيلة زينب عليها السلام

ثمرة طيّبة من الثّمرات الخالدة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، حملت في شخصيتها الطهر الفاطمي والعصمة العلوية والحكمة والفداء الحسيني وفوق كل ذلك العطر النبوي فأنبت كل ذلك وأنتج الشّخصية الفريدة المسمَّاة بـ»زينب» -عليها السلام-، والملقَّبة بـ"أم المصائب".

إنّها الأنموذج الكامل للمرأة المسلمة للعصور كلّها والدّهور، إنّها الشّعلة التي اقتبست النور من نور أنوار الدنيا رسول الرّحمة محمد صلى الله عليه وآله، وإنَّها البطلة التي ورثت الشجاعة والجرأة والإقدام من قاتل صناديد العرب أمير المؤمنين عليه السلام، وهي المشاعر الإنسانية المرهفة التي تفيض حبّاً وعطفاً وحناناً دافقاً حيث أخذت ذلك كلّه من أمّها الزّهراء البتول -عليها السلام- التي يرضى الله لرضاها ويغضب لغضبها، وهي الرّسالة الإسلامية بما ترمز إليه من القوّة

والثّبات والعنفوان والإخلاص والعلم والحجَّة والبرهان كما ظهر ذلك جليّاً في مواقفها الكربلائية فصارت صنو الإمام الحسين عليه السلام في ثورته والجزء المتمم لحركة الثورة الحسينية ودورها التغييري في حياة الأمة كلها وعلى امتداد الأجيال.

هي القدوة بجهادها وصبرها وأذاها وحزنها وفَقْدِ أحبّتها من الأخوة والأولاد وأولاد الأخوة وأسرِهَا والتنقل بها من بلد إلى بلد، فهي التي تحمَّلت كل ذلك؛ لأنّه في سبيل الله -عزَّ وجل- فداءً لدينه وإخلاصاً.

لقد كانت -عليها السلام- في كربلاء حركة لا تهدأ، فتارةً تحضن أطفال أهل البيت عليهم السلام الذين كانت تصمّ آذانهم وتروّعهم خيول العدو الصاهلة ووقع السّيوف النازلة فتكاً بالأجساد الطاهرة وتارةً أخرى تواسي النّساء النّاحبات الباكيات على فقد الآباء والأخوة والأبناء وثالثة تساعد الرجال وتشد من أزرهم وهم يتأهّبون للنزول إلى الميدان ومواجهة الأعداء، ورابعة تقف عند الأجساد الطريحة على الرّمال تودّعها وهي راحلة إلى الله حيث الأمن والأمان، وخامسة تحمل بين يديها الجسد الطاهر لأبي عبد الله سيّد الشّهداء عليه السلام وتدعو الله بقلبٍ يعتصره الألم ونفس تغلي بالثورة على الأمة الظالمة وهي تقول: «**اللهم تقبّل منّا هذا القربان**»، وسادسة تدافع عن الإمام العليل زين العابدين عليه السلام وتَحُولُ بين القوم الظالمين وبينه وتقدّم نفسها فداءً له وتهب نفسها للقتل لحفظ الحجة الإلهية في الأرض ومن دون أي تردُّد أو خوف.

فأي إيمان ملأ ذلك القلب الكبير؟ وأي صبرٍ تحمَّلته؟ وهي ترى كل ذلك أمام ناظريها، فمن الطفل الرضيع البريء المذبوح من الوريد إلى الوريد الذي سقوه الدم بدل الماء، فتلك الجريمة وحدها كافية لتنفطر القلوب من أجلها لفظاعتها ووحشيَّتها وهمجيَّتها، إلى القاسم بن الحسن الشاب في أوّل انفتاحه على الدّنيا، إلى علي الأكبر الشّبيه برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى قمر العشيرة أبي الفضل العباس إلى ولديها عون وجعفر، وإلى أخوتها من أبيها أمير المؤمنين عليه السلام أولاد الأم الصابرة أم البنين عليها السلام، وصولاً إلى الجريمة الأكبر التي ارتكبها أولئك الفسقة الفجرة، وهي سبي زينب -عليها السلام- والحرائر من نساء أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم حيث تصفح وجوههنّ القريب والبعيد والموالي والمعاند، تلك الجريمة التي هي أفظع من القتل الذي فيه إزهاق الأرواح، وهي الجريمة التي عبَّر عنها الإمام وصاحب العصر والزّمان عجّل الله تعالى فرجه الشريف في زيارة النّاحية المقدَّسة بقوله: « **فلأندبنَّك صباحاً ومساءً، ولأبكينَّك بدل الدموع دماً**»[1]، ومع كل ذلك الجو المليء بالانكسار وتوهين العزيمة وفَقْدِ القدرة على الضبط لحركة المشاعر والانفعالات نرى زينب -عليها السلام- في القمّة من الانضباط والاتزان والثّقة بالنّفس والتّماسك وقوّة الإرادة وشدَّة العزيمة، ولا شك أنَّها في تلك اللحظات الحرجة كانت تكتب انفعالاتها من موقع

(١) المزار: ٥٠١.

الإيمان العميق بالله والمعرفة التّامة بأنَّ كل ما جرى هو بعين الله، ولم تُسقط تلك الدّماء أي شعار من شعاراتها الإسلامية، ولم تتنازل أمام كل ذلك عن أي مبدأ من مبادئ الإسلام، بل انطلقت بكل عزم وتصميم على التّحدّي للقوة الظّالمة المستبدّة من ذلك الموقع الذي كان يتصوَّر فيه العدو أنّه أخرس بعده كل صوت يمكن أن ينطق بالتعريض للحكم الأموي ولفضح خياناته وجناياته بحق الإسلام والأمة الإسلامية.

بتلك الرّوح الإلهية والنّفس المطمئنة الواثقة تحمَّلت زينب -عليها السلام- كل تلك الآلام وتجرَّعت كل تلك الغصص، واحتسبتها عند الله -سبحانه-، ولم تترك مجالاً للادعاء لكي يهزموا ثقتها واطمئنانها، بل أخذت المبادرة أيضاً في الرّد عليهم بما أخرس ألسنتهم ودحض حجَّتهم كما فعلت بعبيد الله بن زياد عندما أراد أن يشمت بها قائلاً لها: كيف رأيت فعل الله بأهل بيتك؟ قالت -عليها السلام-: « **ما رأيت إلا جميلاً، هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاج وتخاصم، فانظر لمن الفلج يومئذ ثكلتك أمك يا ابن مرجانة قال: فغضب وكأنه هم بها، فقال له عمرو بن حريث: إنّها امرأة والمرأة لا تؤاخذ بشيء من منطقها، فقال له ابن زياد: لقد شفى الله (قلبي) من طاغيتك الحسين والعصاة المردة من أهل بيتك، فقالت: لعمري لقد قتلت كهلي، وقطعت فرعي، واجتثثت أصلي، فإن كان هذا شفاؤك فقد اشتفيت، فقال ابن زياد: هذه سجاعة ! ولعمري لقد كان أبوك سجّاعاً شاعراً، فقالت: يا ابن زياد ما للمرأة والسجاعة**»[1].

وكذلك موقفها من يزيد -لعنه الله- عندما خطبت تلك الخطبة بعد أن سمعت أبيات الشعر التي قالها معلناً فيها كفره الصريح وخروجه عن دين الإسلام، تلك الخطبة المليئة بالثورة والعنفوان والمشبَّعة بروح الإسلام المحمّدي العلوي الحسيني الفاطمي، والتي جاء فيها: « **أمِنَ العدل يا ابن الطلقاء؟! تخديرُك حرائرَك وإماءَك، وسوْقك بنات رسول الله ﷺ سبايا، قد هتكتَ ستورَهنّ، وأبديتَ وجوهَهنّ، يحدُوا بهنّ الأعداءُ من بلدٍ إلى بلدٍ. ويستَشْرفهن أهل المناقل. ويبرُزنَ لأهل المناهل. ويتصفحُ وجوهَهنّ القريب والبعيد. والغائب والشهيد، والشريف والوضيع، والدني والرفيع ليس معهن مِن رجالهِن ولي. ولا من حُماتِهن حميٌ، عتواً منك على الله ، وجحوداً لرسول الله ﷺ. ودفعاً لما جاء به من عند الله. ولا غرو منك، ولا عجب من فعلك، وأنى يُرتجى الخير ممن لفظ فوه أكباد الشهداء. ونبَتَ لحمُه بدماء السعداء. ونصبَ الحربَ لسيد الأنبياء. وجمع الأحزاب، وشهَرَ الحراب، وهز السيوف في وجه رسول الله ﷺ. أشدّ العرب لله جحوداً، وأنكرهم له رسولاً، وأظهرهم له عدواناً، وأعتاهم على الربّ كفراً وطغياناً. ألا إنها نتيجة خلال الكفر، وضبٍ يُجرجَر في الصدر لقتلى يوم بدرٍ.**

فلا يستبطئ في بغضنا أهل البيت من كان نظرُه إلينا شنَفاً وشنآناً وإحَناً وأظغاناً، يُظهر كفره برسول الله ﷺ،

(١) بحار الأنوار / ج ٤٥ / ص ١١٦.

ويُفصح ذلك بلسانه، وهو يقول فرحاً بقتل وُلدِه، وسبي ذريته، غير مُتحَوِّب ولا مستعظم، يهتف بأشياخه:

لأهلّوا واستهلّوا فرَح ولقالوا يا يزيدُ لا تشلْ منحنياً على ثنايا أبي عبد الله -وكان مُقبِّل رسول الله ﷺ ينكُتها بمِخصرتِه، قد التمع السرور بوجهه. لعمري! لقد نكأتَ القرحَة، واستأصلتَ الشأفة، بإراقتِك دمَ سيد شباب أهل الجنة، وابن يعسوبِ الدين والعربِ، وشمس آل عبد المطلب. وهتفتَ بأشياخِك، وتقرّبت بدمهِ إلى الكفرة من أسلافِك. ثمّ صرَختَ بندائك -ولعمري- لقد ناديتهم لو شهدوك! ووشيكاً تشهدُهم، ولم يَشهدوك، ولتوَدّ يمينك -كما زعمت- شَلّت بك عن مرفقها وجَذت، وأحببتّ أمَّك لم تحملْك، وإياك لم تلد. أو حين تصير إلى سخط الله، ومخاصمك رسول الله ﷺ.

اللهمّ خُذ بحقنا، وانتقِم من ظالمنا، واحلُلْ غضبك على من سفك دماءَنا ونقض ذِمارَنا، وقتل حُماتِنا، وهتكَ عنا سدولَنا. وفعلت فعلتك التي فعلتَ، وما فريتَ إلا جِلدك، وما جزَزتَ إلا لحمَك. وسترد على رسول الله ﷺ بما تحمَّلتَ من دم ذريته. وانتهكتَ من حرمته، وسفكتَ من دماء عترتِه ولُحمته، حيث يَجمع به شملُهم، ويلمَّ به شعَثهم، وينتقِم من ظالِمهم، ويأخُذ لهم بحقهِم من أعدائهم.

فلا يستفزنَّك الفرحُ بقتلهم. "وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ* فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ"(سورة آل عمران١٦٩-١٧٠)وحسبك بالله ولياً وحاكماً، وبرسول الله ﷺ خصماً. وبجبرئيل ظهيراً وسيعلم من بوَّأك ومكّنك من رقاب المسلمين أن "بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً"(سورة الكهف ٥٠)

وأيُّكم شرٌ مكاناً وأضلّ سبيلاً. وما استصغاري قدرَك، ولا استعظامي تقريعَك توهماً لانتجاع الخطابِ فيك بعد أن تركتَ عيونَ المسلمين به عبرى، وصدورَهم عند ذكرهِ حرّى، فتلك قلوبٌ قاسية، ونفوسٌ طاغية، وأجسامٌ محشوة بسخطِ الله ولعنةِ الرسول، قد عشّش فيه الشيطان، وفرّخ، ومِن هناك مثلُك ما درجَ ونهضَ.

فالعجبُ كلّ العجب لقتل الأتقياء، وأسباط الأنبياء، وسليل الأوصياء، بأيدي الطلقاء الخبيثة. ونسل العهَرَة الفجَرَة، تنطِفُ أكفهم من دمائنا وتتحلّبُ افواهُهم من لحومنا، تلك الجثثُ الزاكية على الجيوب الضاحية، تنتابها العواسِل وتعَفرُها أمهات الفراعِل.

فلئن اتخذتنا مغنَم لتجدُ بنا وشيكاً مغرَماً حين لا تجدُ إلا ما قدّمتْ يداك، وما الله بظلام للعبيد، فإلى الله المشتكى والمعوّلُ، وإليه الملجأ والمؤمَّلُ.

ثمّ كِد كيدَك، واجْهَد جَهدَك، فوالله الذي شرّفنا بالوحي والكتابِ والنبوة والانتجابِ، لا تُدرك أمدَنا، ولا تبلُغ غايتنا، ولا تمْحو ذِكرَنا، ولا يُرحَضُ عنك عارنا. وهل رأيُك إلا فند، وأيامُك إلا عددٌ، وجمعُك إلا بددٌ، يوم يناد

المنادي: ألا لعنَ اللهُ الظالمَ العادي.

والحمدُ لله الذي حكمَ لأوليائه بالسعادة، وختمَ لأصفيائه بالشهادة، ببلوغ الإرادة، ونقلَهُم إلى الرحمة والرأفة، والرضوان والمغفرة، ولم يَشقَ بهم غيرُك، ولا ابتلى بهم سواك. ونسأله أن يُكمل لهم الأجرَ، ويَجْزلُهم الثوابَ والذخر، ونسأله حسنَ الخلافة، وجميلَ الإنابة، إنه رحيمٌ ودودٌ.

فقال يزيد مجيباً لها:

يا صيحة تُحمَدُ من صوايح ... ما أهونَ الموتَ على النوائح

خطبة السيدة زينب عليها السلام برواية السيد ابن طاووس (رحمه الله) في اللهوف

... قال: وجعل يزيد يتمثل بأبيات ابن الزبعري:

ليتَ أشياخي ببدر شهِدو ... جزعَ الخزرج من وقع الأسَل
لأهلّوا واستهلّوا فرح ... ثمّ قالوا يا يزيدُ لا تشلّ
قد قتلنا القومَ من ساداتهم ... وعدلْناهُ ببدر فاعتدَل
لعِبت هاشمُ بالمُلك فل ... خبرٌ جاءَ ولا وحيٌ نَزل
لستُ من خندفَ إن لم أنتقِم ... من بني أحمدَ ما كان فعل

قال الرّاوي:

فقامت زينب بنت علي بن أبي طالب (عليهم السلام)، فقالت: **"الحمد لله رب العالمين وصلى الله على رسوله وآله أجمعين"**. صدق الله سبحانه كذلك يقول: **"ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِّ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُون"**(سورة الروم١٠).

أظننتَ يا يزيد حيث أخذتَ علينا أقطارَ الأرض، وآفاقَ السماء، فأصبحنا نُساق كما تساق الأسرى، أنَّ بنا هواناً عليهِ، وبك عليهِ كرامة، وأن ذلك لعِظَم خطَرك عندَه، فشمَختَ بأنفك، ونظرتَ في عِطفِك، جذلانَ مسروراً، حيث رأيتَ الدنيا لك مستوثقة، والأمورَ متسقة، وحين صفا لك مُلكُنا وسلطانُنا.

فمهلاً مهلاً! أنسيتَ قول الله تعالى: "وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْماً

وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ"(سورة آل عمران١٧٨) أمِنَ العدل يا ابن الطلقاء! تخديرُك حرائرَك وإماءَك، وسوْقك بناتِ رسول الله ﷺ سبايا. قد هتكتَ سُتورَهنَّ، وأبديتَ وُجوهَهنَّ، تحْدو بهن الأعداءُ من بلدٍ إلى بلدٍ، ويَستشرفُهُنَّ أهلُ المناهلِ والمناقلِ، ويَتصفحُ وُجوهَهنَّ القريبُ والبعيد، والدنيُّ والشريف. ليسَ معَهنَّ من رجالِهنَّ وليٌّ، ولا مِن حُماتِهنَّ حميٌّ، وكيف يُرتجى مراقبة من لفظَ فوه أكبادَ الأزكياء، ونبَت لحمُه من دماءِ الشهداء، وكيف يستبطئ في بغضِنا أهلَ البيت مَن نَظرَ إلينا بالشنَفِ والشنئان والإحَن والأضْغان. ثمّ تقول غير مُتأثم ولا مُستعظم:

لأهـــلّـــوا واســـتـــهـــلّـــوا فـــرح ثـــمّ قـــالـــوا يـــا يـــزيـــدُ لا تـــشـــلّ

منتحياً على ثنايا أبي عبد الله سيد شباب أهل الجنة تنكُتها بمِخصَرتَك!

وكيف لا تقول ذلك، وقد نكأت القرحة، واستأصَلتَ الشأفة بإراقتك دماءَ ذرية محمد ﷺ، ونجوم الأرض من آل عبد المطلب، وتهتِفُ بأشياخِك! زعمتَ أنك تناديهم، فلتردَنَّ وشيكاً موردَهم، ولتودَّنَّ أنك شلَلتَ وبكَمْتَ،ولم تكن قلتَ ما قلتَ، وفعلتَ ما فعلت. اللهُمَّ خُذ لنا بحقنا، وانتقِم من ظالمِنا، وأحلِل غضبَك بمَن سفكَ دماءَنا، وقتل حُماتنا. فوالله ما فريتَ إلا جِلدَك. ولا حزَزتَ إلا لحمَك، ولتردَنَّ على رسول الله ﷺ بما تحمَّلتَ من سفكِ دماءِ ذرّيَته، وانتهكتَ من حرمتِه في عترتِه ولُحمته، حيث يجمعُ الله شملَهم، ويلمَّ شعَثهُم، ويأخذَ بحقهِم "وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِّ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ"(سورة آل عمران١٦٩)

وحسبُك بالله حاكماً، وبمحمدٍ ﷺ خَصيماً، وبجَبرئيلَ ظهيراً، وسيعلمُ مَن سوَّلَ لك، ومكّنَك مِن رقابِ المسلمينَ "بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً"(سورة الكهف ٥٠). وأيّكم شرٌّ مكاناً وأضعفُ جنداً.

ولئنْ جرّتْ عَليَّ الدّواهي مخاطبَتكَ، إنّي لأستصْغِرُ قدرَك، وأستعظِمُ تقريعَك، وأستكثِرُ توبيخَك، لكنَّ العيونَ عبرى، والصّدورَ حرّى.

ألا فالعجبُ كلَّ العجبِ! لِقتل حزبِ الله النجباءِ بحزبِ الشيطان الطلقاءِ. فهذه الأيدي تنطِفُ من دمائنا. والأفواهُ تتحلّبُ من لحومِنا. وتلك الجثثُ الطواهرُ الزواكي تنتابُها العواسِلُ. وتعفرُهاأمهات الفراعِلُ.

ولئنِ اتخذتنا مغنَماً لتجدَنا وشيكاً مغرماً، حين لا تجد إلا ما قدّمتْ يداك، "وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ"(سورة فصلت٤٦) فإلى الله المشتكى، وعليهِ المعوَّلُ، فكِد كيدَك، واسعَ سعيَك، وناصبْ جُهدَك، فوالله، لا تمحو ذكرَنا، ولا تميتُ وحيَنا، ولاَ تدرك أمَدَنا، ولا ترحَضُ عنكَ عارَها. وهل رأيُك إلا فندٌ، وأيّامُك إلا عددٌ، وجمعُك إلا بَددٌ،

يوم يُنادي المنادي: ألا لعنة الله على الظالمين. فالحمد لله ربِّ العالمين الذي ختمَ لأوَّلنا بالسعادةِ والمغفرة. ولآخرنا بالشهادةِ والرحمة. ونسأل الله أن يكمِلَ لَهُمُ الثوابَ، ويُوجبَ لَهُمُ المزيدَ، ويُحسِنَ علينا الخِلافة، إنَّهُ رحيمٌ ودودٌ، وحسبُنا اللهُ ونِعَم الوكيلُ". (١).

وبتلك الكلمات القصيرة الدامغة ذكّرته بماضي أهله حين قُبض عليهم أذلّاء في مكّة ثمّ أُطلقوا بعد أن أسلموا خائفين من بارقة الحقّ، فدلّت على عدم جدارته للحكم من جهة، وعلى جوره ونشره للظلم من جهة أُخرى. واستَشهدت أخيراً بآيات قرآنيّة لتعلن بصراحة أنّ موقعه ليس كرامة إلهيّة - كما زعم أو حاول أن يلقّن الناس به - بل هو انغماس ملوّث بالكفر في أعماق الجحود، وزيادة في الكفر، وأمّا الشهادة فهي كرامة لآل اللهَّ....

كانت خطب زينب الكبرى في ذروة الفصاحة والبلاغة والتأثير، كما كانت حكيمة في تشخيص الموقف المناسب. ولمّا أُرجعت إلى المدينة لم تتوقّف لحظة عن الاضطلاع برسالة الشهداء، وتنوير الرأي العام، وتوعية الناس وإطلاعهم على ظلم بني أُميّة، فاضطرّ حاكم المدينة إلى نفيها بعد أن استشار يزيد في ذلك.

تلك هي بعض جوانب تلك الشخصية الرسالية التي تجاوزت حدود التأثير في نوعها لتصبح قدوةً كأمّها الزّهراء -عليها السلام- لعموم المسلمين لامتلاكها الصّفات الكبيرة للإنسان التي تتفوَّق على كل الخصوصيات الأخرى في الشخصية الإنسانية المتعارفة.

ولا نغالي هنا إذا قلنا إنّ أمّهات وزوجات وبنات الشّهداء من الحشد الشعبي قد اقتدين بزينب -عليها السلام- اقتداءً رائعاً، حتى صرنا نسمع من كل أم شهيد وزوجة شهيد وابنة شهيد بأنَّ لها أسوة بزينب عليها السلام التي قدَّمت إخوتها وأبناءها وأرحامها شهداء في سبيل الله وطلباً لنيل ثوابه ورحمته ومرضاته.

وهذا الاقتداء لا شكَّ كان له كبير الأثر في تنامي حالة الجهاد وازديادها وترسيخها كمسار للتحرير والعزّة والكرامة.

إذ عندما يشعر المجاهد بأنَّ أمه أو زوجته أو أبناءه وبناته يشجعونه على سلوك هذا الطّريق فلن يتوانى عن المضي في سلوك سبيل الجهاد والشّهادة آمناً مطمئناً واثقاً من قدرته على النّهوض بأعباء الجهاد من دون قلق أو خوف ممن هم وراءه من أهله وأرحامه ومحبّيه.

ولا شكّ أنَّ موقف زينب عليها السلام هذا في كربلاء يجعلها شريكة في الأجر والثواب مع كل أم شهيد أو زوجته أو ابنته.

---

(١) بحار الأنوار / ج ٤٥ / ص ١٣٤.

يا أبا الفضل العباس

المباني القرآنية لنهضة عاشوراء

د. محمد علي رضائي الأصفهاني

إذا تأمّلنا حركة الإمام الحسين عليه السلام من المدينة إلى كربلاء، وحلّلنا ما فيها من توجيهات وخطابات ومواقف، يتضح لنا أنَّ نهضته عليه السلام في عاشوراء كانت مبنيّة على تعاليم القرآن الأساسية المتينة، وأنّ معرفة هذه المباني تجعل من هذه النّهضة قدوة لكلِّ محبيّ القرآن ومتّبعيه؛ ذلك لأنَّ هذه النّهضة تُبيّن الوظيفة القرآنية لكلِّ المسلمين على مدى التاريخ، أي: إنّه كلّما واجه المسلمون ظروفاً مشابهة لظروف زمان الإمام الحسين عليه السلام، تعيّن عليهم ـ بناءً على تلك المباني القرآنية ـ أن يسلكوا سبيل الإمام الحسين عليه السلام في حركته الإصلاحية الشّاملة.

وبعبارة أُخرى: من خلال استنباط المباني القرآنية لنهضة عاشوراء تتحول حركة الإمام الحسين عليه السلام إلى حركة قرآنية، وتصبح قدوةً لكلِّ المسلمين.

المقصود من المباني القرآنية

إنَّ المراد من المباني القرآنية هي النّظريات المسلّمة المستنبطة من تعاليم القرآن الكريم، والتي شكّلت أرضية قيام الإمام الحسين عليه السلام. وبعبارة أُخرى: هي المستندات القرآنية العامة. والتي منها المستندات والنّظريّات المستنبطة لنهضة عاشوراء.

هذه المباني تشمل أوامر الله -تعالى- والتي وجّهها بشكل مباشر إلى كلّ المسلمين، على الصّعيد الاجتماعي والتّربوي والسّياسي والثّقافي والجهادي؛ كما تشمل أيضاً التّعاليم القرآنية غير المباشرة، والتي يمكن استخراجها من كلمات وسيرة الإمام الحسين عليه السلام، بالاستعانة بقاعدة الجري والتّطبيق، وقاعدة بطون القرآن.

إذن؛ استنباط المباني القرآنية لنهضة عاشوراء، يتم من خلال استخدام القواعد والطّرق التّفسيرية القرآنية، كقاعدة الجري والتّطبيق، وقاعدة حجية ظواهر القرآن، وأُسلوب التّفسير الرّوائي، والتّفسير الإشاري (الباطني).

مصادر استنباط المباني القرآنية لنهضة عاشوراء

إنَّ المصادر التي يمكن الاعتماد عليها لاستنباط المباني القرآنية لنهضة الإمام الحسين عليه السلام، هي عبارة عن:

١ـ كلمات الإمام الحسين عليه السلام.

٢ـ رسائل الإمام الحسين عليه السلام.

٣ـ سلوك الإمام الحسين عليه السلام.

فهذه المصادر نابعة من قلب هذه النهضة، ومستندة إلى قائدها العظيم.

أهمُّ مباني نهضة عاشوراء

أوّلاً: إعلاء كلمة اللهّ -تعالى-

نُقل أنّ الإمام الحسين عليه السلام أثناء مسيره إلى كربلاء، التقى بالفرزدق في منزل صفاح، وتحدّث معه، وبيّن أنَّ هدفه النّهائي ـ بل الأساسي ـ من هذه النّهضة المباركة هو إعلاء كلمة الله -تعالى-، وإيجاد الآليات والضمانات التي تساعد في الحفاظ عليها، فقال عليه السلام: «**وأنا أَوْلى مَن قام بنصرة دين الله، وإعزاز شرعه، والجهاد في سبيله؛ لتكون**

كلمة الله هي العليا»[1].

وعند ملاحظة هذا المبنى الذي جعله الإمام الحسين عليه السلام أحد أهمّ مباني نهضة عاشوراء ـ بل هو المنطلق الأساس لها ـ نجد كلامه عليه السلام قد نظر واستند به إلى آية قرآنية؛ حيث يقول الله -تعالى-: **(وَكَلِمَةُ اللَّـهِ هِيَ الْعُلْيَا)**[2].

ثانياً: نصرة الدين وإعزاز شريعة الله -تعالى-

إنَّ هذا المبنى وهذا الهدف من أهم الأهداف في الإسلام ومن الأُسس التي تستحق أن يُبذل من أجلها الغالي والنّفيس، بل حريّ بالمرء أن يبذل مهجته من أجل ذلك، وهذا الهدف السامي قد صرّح به الإمام عليه السلام، وبيّن أنّه مأخوذ بنظر الاعتبار في نهضته المباركة من خلال كلامه الذي مرّ معنا في قوله عليه السلام للفرزدق في منزل صفاح: «وأنا أوْلى مَن قام بنصرة دين الله، وإعزاز شرعه، والجهاد في سبيله».

فإنَّ المنطلقات التي بيّنها الإمام الحسين عليه السلام في كلمته هذه ـ والتي تبيّن أحد أهمّ منطلقات ثورة الإصلاح ـ مرتكزة إلى آيات قرآنية متعدّدة؛ بل إنّ روح القرآن الكريم بشكل كلّي، تدعو إلى نصرة دين الله وإعزازه.

قال -تعالى-: **(حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ)**[3].

وقال -تعالى-: **(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ)**[4].

نعم، لقد نصر الإمام الحسين عليه السلام دين الله -سبحانه-، كما نصر الله -تعالى- نهضة الإمام الحسين عليه السلام، فقد انتصر دم الإمام الحسين عليه السلام على سيف الظّالمين، كما تحقّق هدفه في عزّة دين الإسلام؛ فقد استمرّ هذا الدّين الحنيف بفضل تلك الدّماء الزّاكيات، فبعد أربعة عشر قرناً، لا تزال نهضة عاشوراء حيّة، ولا تزال قدوة لكل أهل العالم، وأمّا أعداء الحسين عليه السلام فقد اندحروا واندثروا في غياهب الزّمن

.

ثالثاً: الجهاد لحفظ الإسلام

إنَّ مبدأ الجهاد وتشريعه في الدّيانات السابقة من الأمور المسلّمة؛ فقد نص القرآن الكريم على حدوث معارك بين جبهة الحق والباطل، وذلك في زمن النبي طالوت، وذلك في قوله -تعالى-: **(فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّـهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا**

(١) لجنة الحديث في معهد باقر العلوم عليه السلام، موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ص٤٠٨.

(٢) التوبة: آية٧٢.

(٣) الأنفال: آية٣٩.

(٤) البقرة: آية١٩٣.

قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّـهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّـهِ وَاللَّـهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)[1]، وهذا المبدأ والهدف جاء أيضاً في كلام الإمام الحسين عليه السلام، عندما لاقى الفرزدق في مسيره إلى كربلاء، حيث قال: «**يا فرزدق، إنّ هؤلاء القوم لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد في الأرض، وأبطلوا الحدود، وشربوا الخمور، واستأثروا في أموال الفقراء والمساكين؛ وأنا أوْلى مَن قام بنصرة دين الله وإعزاز شرعه، والجهاد في سبيله؛ لتكون كلمة الله هي العليا**»[2].

ونُقل أيضاً أنّه لمّا دعا مروان الإمام الحسين عليه السلام إلى بيعة يزيد في المدينة، قال الإمام عليه السلام: «**وعلى الإسلام السلام؛ إذ قد بُليت الأُمّة براع مثل يزيد**»[3].

فكلمة الإمام الحسين عليه السلام هنا تشير إلى الفساد الاجتماعي والسياسي والاقتصادي الذي تفشّى في المجتمع آنذاك؛ فقد كان أصل الإسلام في تلك الظروف عُرضة للخطر.

ونتيجة لهذا؛ أصبح الجهاد واجباً في سبيل حفظ الإسلام؛ لأنَّ حفظ الإسلام أهمُّ الواجبات الإلهية.

فهذا الخطاب الحسيني يُشير إلى أحد أهمّ مرتكزات نهضة عاشوراء، ألا وهو الجهاد في سبيل الله. ولا يخفى، فإنَّ الجهاد أحد المفاهيم القرآنية المهمّة في الإسلام، والتي أُشير إليها في آيات متعدّدة، وللجهاد أهداف وغايات مصيرية لا تتحقّق إلّا به.

ويمكن القول: إنَّ الأهداف الأساسية للجهاد الإسلامي هي:

١ـ الدّفاع عن الدّين الإسلامي في مقابل هجوم الأعداء، والحفاظ على المسلمين، سواء أنفسهم، أو أموالهم، أو أعراضهم.

٢ـ تخليص المستضعفين من قيود الشّرك والكفر والظّلم، ونشر الإسلام في الأرض بفضائله الحسنة، وأخلاقه القيّمة التي تنسجم مع الفطرة الإنسانية، وتتلازم مع العقل السليم.

إلى غير ذلك من الفوائد المترتبة على الجهاد.

من هنا؛ فإنّ جهاد الإمام الحسين عليه السلام، كان تحقيقاً لتلك الأهداف الإنسانية والإسلاميّة، والقرآنية، واستُشهد في سبيل ذلك. قال -تعالى-: **(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّـهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا)**[4].

---

(١) البقرة: آية٢٤٩.

(٢) لجنة الحديث في معهد باقر العلوم عليه السلام، موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ص٤٠٨.

(٣) ابن أعثم الكوفي، أحمد، الفتوح: ج٥، ص١٧. الخوارزمي، محمد بن أحمد، مقتل الحسين: ج١، ص١٨٤. نقلًا عن لجنة الحديث في معهد باقر العلوم، موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ص٣٤٦.

(٤) الأنفال: آية٧٤.

وقال -تعالى-: (**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**)[1].

رابعاً: طلب الإصلاح

رُوي أنّ الإمام الحسين عليه السلام كتب وصية، وأودعها عند أخيه محمد بن الحنيفة في المدينة. وقد ذكر في هذه الوصية أهداف نهضته عليه السلام، جاء فيها:

«**إنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً، ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أُمّة جدّي؛ أُريد أن آمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدّي وأبي علي بن أبي طالب**»[2].

فقد كان أحد أهداف ثورة الإمام الحسين عليه السلام، هو إصلاح الأُمّة الإسلامية، في كافّة الأبعاد الفردية والاجتماعية والعقائدية والسياسية والاقتصادية.

ويُعتبر طلب الإصلاح أحد أهمّ أهداف الأنبياء عليهم السلام، والتي بُيِّنت في القرآن الكريم بشكل واضح، فقد جاء في القرآن الكريم على لسان النبي شعيب عليه السلام: (**إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ**)[3]. وقال -تعالى-: (**لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ**)[4].

خامساً: الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر

لقد عدَّ الإمام الحسين عليه السلام الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر أحد أهداف نهضته الأساسية؛ وهو صريح وصيته المشهورة التي جعلها عند أخيه محمد بن الحنفية في المدينة فيقول عليه السلام: «**إنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً، ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أُمّة جدّي، أُريد أن آمر بالمعروف، وأنهي عن المنكر، وأسير بسيرة جدّي وأبي علي بن أبي طالب**».

إنَّ الأمر بالمعروف وسيلة لحفظ فضائل المجتمع، والتّذكير المستمر بها، وبالوظائف التي على المسلم أن يتحلّى بها، ويعمل على وفقها، كما أنّ النهي عن المنكر وسيلة تنقية دائمة للمجتمع، وتصفيته من الرّذائل والانحرافات الفكرية والعملية.

ومن هنا؛ يُعدُّ الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر من فروع الدّين، وقد أكّد القرآن على هذين المبدأين مراراً، وعدّهما واجباً شرعيّاً، قال الله -تعالى-: (**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَـٰئِكَ**

---

(١) التوبة: آية٧٣.

(٢) المجلسي، محمد باقر، البحار: ج٤٤، ص٣٢٩.

(٣) هود: آية٨٨.

(٤) النساء: آية١١٤.

هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[1]، بل وصف الذين يقومون بالأمر بالمعروف وينهون عن المنكر بأنهَّم خير أُمّة؛ فقال عزَّ من قائل: **(كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّـهِ)**[2].

نعم، لقد كان الإمام الحسين عليه السلام في صدد إجراء هذا الواجب القرآني، وهو الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر.

ولهذا الفرع الإسلامي والمبدأ القرآني مراحل ومراتب، كما ذُكرت في الفقه الإسلامي، وهي كما يلي:

١ـ الإنكار القلبي: بأن يستنكر المؤمن أيّ أنواع المنكر التي يراها استنكاراً في قلبه؛ بحيث تظهر آثار ذلك الإنكار على وجهه، من الغضب، وعدم الرضا، وما شاكل هذه الأُمور.

٢ـ الإنكار اللساني: يعني عندما يرى المؤمن أمراً منكراً قد تلبّس به البعض، فعليه أن يؤنِّبهم بلسانه، وهذا الأُسلوب بدوره على مراحل؛ لأنّه لا بدّ أن يبتدئ أوّلاً بالنصيحة والكلام الطيب، وبأُسلوب ليّن، مستدلاً على ما يقول، فإذا لم يؤثر ذلك، استخدم اللهجة الحادّة، والأُسلوب الخشن في الكلام.

٣ـ الإنكار العملي: وهذه هي المرحلة الثالثة في النهي عن المنكر، وهي المنع العملي عن المنكرات، أي: وضع حدٍّ لأعمال المفسدين، والحيلولة دون وقوع أعمالهم المنكرة في المجتمع، وهذا أيضاً بدوره على مراحل، والتي آخرها اللجوء إلى الحرب والقتال، وهذه المرحلة هي آخر مراحل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا تُنفَّذ إلّا عندما تكون المراحل السابقة غير مؤثّرة.

ولا يخفى، فإنّ تنفيذ هذه المرحلة وتطبيقها في المجتمع إنّما هو بيد الإمام عليه السلام، أو أو نائبه الخاص أو العام.

وهذا ما نجده من سيرة الإمام الحسين عليه السلام في تعامله مع طاغية زمانه، الذي ارتكب أبشع أنواع المنكرات والمحرمات، وترك الواجبات، ففي حقيقة الأمر أنّ الإمام الحسين عليه السلام عرض برنامجاً سياسياً وعملياً متكاملاً؛ لمبارزة الطاغوت ضمن إطار النهي عن المنكر، وكما بيّنّا في مراحل النهي عن المنكر؛ فإنّ الإمام الحسين عليه السلام ابتدأ بنصح أصحاب السلطة، ثمّ بيّن انحرافاتهم وظلمهم، وشناعة أعمالهم، ثمّ كانت المواجهة والمبارزة المسلّحة، كلّ ذلك ضمن إطار الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر.

سادساً: الحفاظ على سنَّة النبي صلى الله عليه وآله وسلم

إنّ الإمام الحسين عليه السلام في وصيّته ـ ومجمل أقواله ـ كان يدعو الناس إلى سنّة النبي صلى الله عليه وآله والحفاظ عليها، والعمل بها وإحياء ما غُيّب منها، وتفنيد ما حُرّف فيها، فقد عُدّ ذلك أحد أهمّ أهداف نهضة كربلاء المباركة: «إنّي لم أخرج

(١) آل عمران: آية ١٠٤.

(٢) آل عمران: آية ١١٠.

أشراً ولا بطراً، ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أُمّة جدّي، أُريد أن آمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدّي وأبي علي بن أبي طالب».

وقوله عليه السلام: «**أنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيه؛ فإنّ السنّة قد أُميتت، وإنّ البدعة قد أُحييت**»(١).

إنّ سنّة النبي صلى الله عليه وآله تُعدُّ ـ إلى جانب القرآن الكريم ـ وسيلةً مهمّة لإرشاد المسلمين؛ فكما أنّ كلّيات الدّين تؤخذ من القرآن، فإنّ جزئيات الإسلام تؤخذ من السّنّة؛ إذ إنّ أقوال وأفعال النبي صلى الله عليه وآله تُعدّ التفسير الحقيقي للقرآن الكريم؛ فقد قال الله -تعالى-: (**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**)(٢).

ويجب على جميع المسلمين أن يتّبعوا سنّة النبي صلى الله عليه وآله، ويدعوا غيرهم إليها، ويدافعوا عنها ويحافظوا عليها من الاندراس والتحريف والتزييف؛ لأنّ الدفاع عن السنّة دفاع عن الدين، وترك العمل بها ترك للدين، فليس للمسلمين الحقُّ في مخالفة أوامر النبي صلى الله عليه وآله أو ارتكاب نواهيه، والآيات القرآنية بهذا الصدد كثيرة:

منها: قوله -تعالى-: (**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ**)(٣).

ومنها: قوله -تعالى-: (**قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ**)(٤).

ومنها: قوله -تعالى-: (**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا**) (٥).

وقال عز وجل أيضاً: (**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا...**)(٦).

نعم، إنَّ الإمام الحسين عليه السلام في نهضة عاشوراء كان في صدد إحياء سنّة النبي صلى الله عليه وآله، والدفاع عنها، ونقلها إلى حيّز التّطبيق في حياة المسلمين؛ لأنّ تعاليم النبي صلى الله عليه وآله كانت قد أُهملت آنذاك، كما أنّ البدعة قد أُحييت وظهرت.

سابعاً: الهجرة

عزم حاكم المدينة على تنفيذ أوامر يزيد القاضية بقتل الإمام الحسين عليه السلام؛ فخرج عليه السلام من المدينة. ولمّا خطّطوا لقتله عليه السلام في مكة أيضاً، خرج منها أيضاً، وتوجّه إلى العراق. وقال ـ في جوابه لرجل سأله: ما الذي أخرجك عن حرم الله وحرم جدّك رسول الله صلى الله عليه وآله؟ـ: «**إنّ بني أُميّة أخذوا مالي فصبرت، وشتموا عرضي فصبرت، وطلبوا دمي**

(١) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الطبري: ج٤، ص٢٦٦. ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ: ج٨، ص١٧٠.
(٢) النحل: آية٤٤.
(٣) الأنفال: آية٢٠.
(٤) التغابن: آية١٢.
(٥) الأحزاب: آية٣٦.
(٦) الحشر: آية٧.

فهربت»[1].

فيُستفاد من كلامه عليه السلام أنّ المؤمن عندما تتعرض حياته للخطر لا يجوز له الصبر على ظلم الظالم، وأنّ أقلّ ما ينبغي فعله هو الهجرة.

وهذا التّحرّك من الإمام الحسين عليه السلام، كان على أساس الآيات القرآنية التي توجب الهجرة على مَن يواجه الصعاب في بلاده، على نحوٍ لا يستطيع معه إقامة واجباته الدينية، أو تصبح نفسه ومَن يرتبط به في خطر، كما حدث للنبي صلى الله عليه وآله في مكة، قال الله -تعالى-: **(قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّـهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَـٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا)**[2].

وبيّن القرآن الكريم أنّ مَن قُتل في طريق هجرته فإنّ أجرهُ على الله -سبحانه-، وأنّ المهاجرين في سبيل الله لهم أجر عظيم.

قال الله -تعالى-: **(وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّـهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّـهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّـهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)**[3].

وقال عز مَن قال: **(. . . وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّـهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّـهِ وَكَانَ اللَّـهُ غَفُورًا رَّحِيمًا)**[4].

وقال عزَّ وجلَّ: **(الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّـهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّـهِ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ)**[5].

ثامناً: مواجهة الظّلم

تكرّر من الإمام الحسين عليه السلام، ذكر حديث عن النبي صلى الله عليه وآله في رسالته عليه السلام إلى رؤساء أهل الكوفة، وفي خطابه لأصحابه، وفي خطابه لجيش الحرّ، فكان عليه السلام يستدل بذلك الحديث النبوي كثيراً، ويطبقه على بني أُميّة. وهذا الحديث هو: «**مَن رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يُغيّر عليه بفعل، ولا قول كان حقاً على الله أن يُدخله مدخله**»[6].

(١) الحلي، ابن نما، مثير الأحزان: ص٣٣.

(٢) النساء: آية ٩٧.

(٣) الحج: آية ٥٨.

(٤) النساء: آية ١٠٠.

(٥) التوبة: آية ٢٠.

(٦) الأزدي، أبو مخنف، مقتل أبي مخنف: ص٨٥. الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الطبري: ج٤، ص٣٠٤. ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ: ج٤، ص٤٨.

إنَّ هذا التوجيه النبوي ـ والذي نظَّم الإمام الحسين عليه السلام ثورته في كربلاء على أساسه ـ مأخوذ من القرآن الكريم، فالقرآن يُقبّح الظلم، ويستنكره في آيات كثيرة، ويعدُّ الظلم سبباً في عذاب بعض الأُمم، بل أوجبت الآيات العقاب على مَن مال إلى الظالمين وركن إليهم.

قال الله -تعالى-: **(وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ)**[1].

ثمّ يجيز الله -تعالى- الجهاد لكلّ مظلوم، فيقول: **(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ)**[2].

نعم، إنّ دين الله -تعالى-، وكذا الإمام الحسين عليه السلام، بل وجميع الأُمّة الإسلامية كانوا تحت ظلم يزيد وبني أُميّة. وقد صوّر الإمام الحسين عليه السلام هذا الظلم والقائمين به بقوله: «**يزيد رجل فاسق، معلن بالفسق، يشرب الخمر، ويلعب بالكلاب والفهود، ويبغض بقية آل الرسول**»[3]، «**قاتل النفس المحترمة... ومثلي لا يبايع مثله**»[4]، وقال أيضاً: «**يا فرزدق، إنّ هؤلاء القوم لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد في الأرض، وأبطلوا الحدود، وشربوا الخمور، واستأثروا في أموال الفقراء والمساكين**»[5]، «**وأحلّوا حرام الله، وحرَّموا حلاله، واستأثروا بالفيء**»[6].

وفي مثل هذه الشرائط والظروف، فإنّ وظيفة كلّ مسلم ـ وطبقاً لما جاء في القرآن الكريم ـ أن يهبَّ لمبارزة الفساد والظلم، وهكذا فعل إمامنا الحسين عليه السلام.

تاسعاً: الحرية والتّحرير

كلمة الحرية أحبُّ الكلمات التي ذُكرت في تاريخ البشر، لكن هذه الكلمة لها معانٍ متفاوتة، من جملتها الاستقلال (الحرية الفلسفية)، الاختيار، الحرية على صعيد التربية، الحرية في الحقوق (على صعيد فلسفة الحقوق)، الحرية في مقابل العبودية (في الحقوق المدينة والعالمية) كما تأتي بمعنى الشّرف والكرامة.

وإنّ بحث الحرية في نهضة عاشوراء هو بمعنى الشّرف والكرامة، كما تكون بمعنى إباء الذل، والحفاظ على عزّة النّفس، وتكون بمعنى الشّهامة أيضاً[7].

وهناك نماذج عديدة تثبت هذا المعنى من خلال كلمات الإمام الحسين عليه السلام، وتأكيده على القيم النبيلة للنهضة الحسينية:

(١) هود: آية١١٣.

(٢) الحج: آية٣٩.

(٣) لجنة الحديث في معهد باقر العلوم، موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ص٣٤٠.

(٤) المصدر السابق: ص٢٧٨.

(٥) المصدر السابق: ص٤٠٨. نقلًا عن تذكرة الخواص.

(٦) المصدر السابق: ص٤٣٨. في رسالة إلى أهل الكوفة، وكذا في ص٣٦٠ في خطاب له مع جيش الحرّ. ابن أعثم، أحمد، الفتوح: ج٥، ص٨١. الخوارزمي، محمد بن أحمد، مقتل الحسين: ج١، ص٢٣٤. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٤، ص٣٨٢.

(٧) للاستزادة راجع مقالة: قرآن و آزادي (القرآن والحرية)، للمؤلف، مجلة قرآن وعلم، العدد الرابع، خريف ١٣٨٨هـ.ش.

منها: ما نُقل عن الإمام الحسين عليه السلام، أنّه قال لأعدائه: «**إن لم يكن لكم دين، وكنتم لا تخافون المعاد، فكونوا أحراراً في دنياكم هذه، وارجعوا إلى أحسابكم إن كنتم عُرباً كما تزعمون**»(١).

يعني أنّ التّديّن والخوف من الآخرة يوجبان التقوى، فلا يجيزان للإنسان أن يظلم الآخرين، ولكن هناك طريق آخر فطري يمنع من الظلم، ألا وهو كون الإنسان حرّاً؛ إذ كلّ إنسان ولد حرّاً، فهو يحب الحرية والتّحرر، واحترام حقوق الناس.

ومنها: إعفاء أتباعه من الوفاء ببيعتهم، وهو إعطاء أصحابه وأنصاره مطلق الحرية في الاختيار بين الاشتراك في الحرب والانصراف إلى بلدانهم، وهذا يدلّ على أنّ إجبار الآخرين على خلاف مرادهم أمر مرفوض في مدرسة أحرار العالم. وهكذا كان في عاشوراء، لمّا أعفى الحسين عليه السلام أصحابه من بيعتهم وفي عدّة مرات، وذلك في طريقه من مكة إلى الكوفة، فقد أعطاهم مطلق الحرية في أن يذهبوا أو يبقوا معه، حتى أنّه أخبر أصحابه بالمصير المحتوم، فقال: «**فإنّكم إن أصبحتم معي قُتلتم كلّكم**»(٢).

نعم، إنّ الإمام الحسين عليه السلام يريد ألّا يبقى معه إلا مَن رافقه عن بصيرةٍ ورضًى، وإحساس بالوظيفة، وعشق له عليه السلام.

ومنها: روح نهضة الإمام الحسين عليه السلام نفسها؛ فقد كانت لتحرير الناس من ظلم بني أُميّة واستبدادهم، وتخليصهم من أنواع الانحرافات الفكرية والأخلاقية.

وتُعدُّ طريقة الإمام الحسين عليه السلام هذه في الوصول إلى الحرّيّة، وتخليص الناس وتحريرهم نوعاً من اتباع القرآن الكريم وسنّة النبي الأمين صلى الله عليه وآله؛ لأنّ تحرير الناس أحد أهداف رسالة النبي صلى الله عليه وآله التي ذكرها القرآن، فجعل رسالة النبي صلى الله عليه وآله ترفع القيود والأغلال عن أيدي الناس وأرجلهم، وتخلّصهم من العقائد الباطلة، والأعمال الخرافية والظلم، قال الله -تعالى-: (**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**)(٣).

كما أنّ القرآن عدَّ رسالة النبي موسى عليه السلام ـ عند مقابلته فرعون ـ تحريراً للبشر من العبودية والذل، ونجاةً لهم(٤).

---

(١) لجنة الحديث في معهد باقر العلوم، موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ص٦٠٧.

(٢) لجنة الحديث في معهد باقر العلوم، موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ص٤٨٠. المجلسي، محمد باقر، بحارالأنوار: ج٤٥، ص٨٩.

(٣) الأعراف: آية١٥٧.

(٤) أُنظر: طه: آية٤٧، وآية٨٠، الشعراء: آية١٧، وآية٢٢.

عاشراً: العزّة ورفض الذّل

أحد أهمّ تعاليم نهضة الإمام الحسين عليه السلام السياسية هي عدم الرّضوخ للذل، وهذا من الشّعارات والرسائل العاشورائية التي كانت مثالاً يُحتذى به، وقدوةً لكلّ الشيعة، بل وكلّ الأحرار على مرّ التاريخ.فإنّ السائرين على خطى الحسين عليه السلام يرجّحون الموت في عزٍّ على الحياة في ذلٍّ: «**موت في عزّ خير من حياة في ذلّ**»(١).

وهكذا هم الحسينيون، يرون سعادتهم في الشهادة، والعيش مع الظالم خسارة وذلة: «**وإنّي لا أرى الموت إلّا سعادة، والحياة مع الظالمين إلّا برماً**»(٢).

وقد أصبحت كلمة الإمام الحسين الخالدة: «هيهات منّا الذلة»(٣)، عنواناً لكلّ أحرار العالم، يرددونها ويتغنون بها باستمرار واعتزاز وافتخار.

ففي مدرسة الإمام الحسين عليه السلام ليس معيار السعادة المال والحياة والترف، بل كلّ أنواع النعيم المادي ليس بشيء؛ وإنّما المعيار هو العزّة والكرامة، والحياة الشّريفة، وهذه رؤية وهبها الدّين الخاتم للبشرية، وطبّقها الإمام الحسين عليه السلام بدروس عملية، علّمنا من خلالها كيف يجب أن يكون الإنسان عزيزاً أبيّاً حرّاً، يأبى الذل والهوان، والسكوت على الظلم والانحراف، فقد غيّر عليه السلام نظرة الأحرار إلى الحياة والموت.

فإنّ الموت كيفما كان فهو أمر محتوم لا مفرّ منه، والمهم كيف تكون نظرة الإنسان إلى الموت، فالحسين عليه السلام بيّن تعريفاً جديداً للموت والحياة، وغيَّر نظرة البشر إلى الموت، وأوضح للناس أنّ الموت الحقيقي إنّما هو في العيش مع الظالم، وأنّ الحياة مخبوءة في الشهادة؛ فلمّا رأى الإمام الحسين عليه السلام أنّ نصائحه لم تعد تنفع في حكومة بني أُميّة، وأنّ يزيد رجل فاسق وحكومته حكومة فاسدة لا تجوز مبايعته؛ ورأى أيضاً أنّ الظلم الذي تمارسه السلطة لا يمكن السكوت عليه؛ عند ذلك وقف الإمام الحسين عليه السلام في وجه عدوّه وقفة الأبطال، وقاتل حتى آخر نفس، وقال كلمته الخالدة: «**لا والله، لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أفرُّ فرار العبيد**»(٤).

وهذا السلوك من الإمام الحسين عليه السلام في سبيل العزّة والاستنكاف عن الذّل يمثّل مراد القرآن، وينسجم مع مبانيه السّامية؛ إذ يجعل العزّة لله ولرسوله وللمؤمنين، ما يلزم عنه أنّ الذل والهوان بعيدان عن المؤمنين، قال الله -تعالى-: (**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ**)(٥).

---

(١) ابن شهر آشوب، محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب: ج٣، ص٢٢٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) لجنة الحديث في معهد باقر العلوم، موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ص١٦.

(٤) المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج٢، ص٩٨.

(٥) المنافقون: آية٨.

الحادي عشر: اختيار إحدى الحسنيين

ما من شك في أنّ الإمام الحسين عليه السلام لو بقي في المدينة أو مكة لكانت عاقبته القتل؛ فإنّ السلطة الحاكمة كانت قاصدة إذلاله من خلال إجباره على البيعة، وبما أنّهم كانوا متيقّنين وعالمين بأنّ الإمام عليه السلام لا يبايع يزيد؛ لذلك كان الحل الراجح عندهم هو قتله عليه السلام، وأمّا لو خرج متوجّهاً إلى العراق فالأمر يختلف؛ وذلك لأنّ احتمال الوصول إلى الكوفة، واحتمال النصر كان قائماً.

من هنا؛ فإنّ الإمام عليه السلام في خروجه سوف يحصل على إحدى الحسنين.

ولذا قال عليه السلام: «**إنّ بيني وبين القوم موعداً، أكره أن أُخلفهم، فإن يدفع الله عنّا، فقديماً ما أنعم علينا وكفى، وإن يكن ما لا بدّ منه، ففوز وشهادة إن شاء الله**»[1].

وحاصل هذا الكلام هو: أنّ الناس إذا دافعوا عن الإمام ونصروه وآزروه، فإنّ الكفّة ستكون في صالح الإمام الحسين عليه السلام؛ وستسقط حكومة يزيد، ويتم الأمر لصالح الإسلام، فتكون حُسنى النصر، وتلك نعمة إلهية، وأمّا إذا لم يدافع الناس عن الإمام الحسين عليه السلام، فسيُستشهد عليه السلام، وتلك حُسنى الشهادة، ويتبع ذلك ستُفتضح حكومة يزيد، وسيُحيى الإسلام بدم الحسين عليه السلام.

والنتيجة؛ فإنّ خروج الإمام من مكة إلى الكوفة كان الخيار الأفضل من بين الخيارات الأخرى، بل هو المتعين من بينها؛ لأنّ البقاء إمّا أن يكون مع البيعة، وإمّا مع الموت الصامت الذي لا يؤتي ثماره. وهذا يعني أنّ شهادة الإمام الحسين عليه السلام ظلماً في صحراء كربلاء ـ وأمام جيش عظيم ـ أوجبت اندلاع حملة إعلامية عظيمة لصالح الإسلام، تفضح ظلم بني أُميّة، وتضمن حياة الإسلام على طول التاريخ.

هذه الطريقة المنطقية والعقلانية التي اتبعها الإمام الحسين عليه السلام، مطابقة للآيات القرآنية؛ إذ إنّه لمّا أساء بعض الناس السير في حربهم مع النبي صلى الله عليه وآله، وقالوا ما لا يليق ولا ينبغي، أجابهم القرآن: (**قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّـهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّـهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ**)[2]. ومعنى ذلك: أنه على أية حالٍ ـ وعلى كلّ تقدير ـ فإنّ طريق الحقّ عاقبته خير، سواءً أكانت الخاتمة هي الشهادة أم كانت النّصر.

وبخلاف تلك العاقبة عاقبة المخالفين؛ فإنّها مهما كانت، فهي لا بدّ وأن تُفضي وتنتهي إلى الهلاك والخسران، فهي إمّا الهزيمة والذلة في الحياة الدنيا، وإمّا القتل والمصير إلى النار، قال -تعالى-: (**وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّـهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ**)[3].

إذن؛ فالعقل والمنطق يحكمان أن نُكمل طريقنا، وهذا ما فعله الإمام الحسين عليه السلام.

---

(١) الحلي، ابن نما، مثير الأحزان: ص٢٨.

(٢) التوبة: آية٥١-٥٢.

(٣) التوبة: آية٥٢.

الثاني عشر: وجوب قبول الإمام عليه السلام لطلب الناس إتماماً للحجة عليهم

تعدّدت الرسائل من أهل الكوفة، وتتابعت رسلهم إلى الإمام الحسين عليه السلام: أَن لا أمير علينا، وأنّنا نريد أن نبايعك. ولأجل ذلك؛ أرسل الإمام الحسين عليه السلام مسلم بن عقيل ممثلاً شخصياً عنه؛ ليمتحنهم ويُنبئه عن أوضاعهم. ولمّا بايع أهل الكوفة مسلم بن عقيل، تمت الحجة، وكان لا بدّ من الخروج إليهم، والتوجه إلى العراق.

ومن هنا؛ قال عليه السلام: «هذه كتُب أهل الكوفة ورسلهم، وقد وجب عليَّ إجابتهم، وقام لهم العذر عليَّ عند الله سبحانه»[1].

ولذلك؛ نجد أنّ الإمام عندما عدّد أسباب مجيئه إلى الكوفة عدَّ منها تلك الرسائل والدعوات التي أوجبت حضوره، فقد بيّن أوّلاً خصوصيات الحاكم الذي يستحق الحكومة، وأنّ يزيد لا يصلح لذلك، فقال: «**ما الإمام إلا العامل بالكتاب، والآخذ بالقسط، والدائن بالحقّ، والحابس نفسه على ذات الله**»[2].

ثمّ بيَّن أنّ أحد أهمّ الأسباب التي دعت إلى قدومه واختياره الكوفة هو الطلب الجماهيري من أهلها، فقال عليه السلام: «ومقالة جلّكم إنّه ليس علينا إمام فأقبل»[3]؛ ولأجل ذلك قَبِل دعوتهم ليتمَّ الحجة عليهم بقدومه، كما تّمت الحجة عليه بدعوتهم، ويُعتبر هذا من المبادئ القرآنية التي كرر التأكيد عليها في آيات عديدة[4]. حتى أنّ القرآن الكريم جعل سبب إرسال الرسل الإلهية، إتمام الحجة على الناس.

قال الله -تعالى-: (**لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ**)[5] .

وبذلك يتبيّن أنّ مبادئ وقيم ومفاصل حركة ونهضة عاشوراء جميعها كانت من صُلب الدين، ومنصوصاً عليها في القرآن الكريم، وفي آيات متعدّدة، فنهضة عاشوراء هي أعظم تطبيق حي لمفاهيم وتعاليم ومبادئ القرآن الكريم، فإذا ما كانت تعاليم القرآن ومبادئه تعاليم إنسانية، نابعة عن الفطرة البشرية، عرف بذلك أنّ نهضة الإمام الحسين عليه السلام هي ثورة لكلّ البشر، ولكلّ مَن يريد العيش بكرامة وعدالة وعزّة.

---

(١) المازندراني، محمد مهدي، معالي السبطين: ج١، ص٢٤٦. محمد تقي، ناسخ التواريخ: ج٢، ص١٢٢، الدربندي، أسرار الشهادة: ص٢٤٧. نقلًا عن موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ص ٣٨٩.

(٢) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك: ج٧، ص٢٣٥. وأُنظر: ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ: ج٣، ص٢٦٧. المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج٢، ص٣٩. الخوارزمي، محمد بن أحمد، مقتل الخوارزمي: ج٦، ص١٩٥.

(٣) لجنة الحديث في معهد باقر العلوم، موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ص٣٧٩.

(٤) أُنظر: البقرة: آية١٥٠. الأنعام: آية٤٣، وآية١٤٩. الشورى: آية١٥.

(٥) النساء: آية١٦٥.

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

صدق الله العلي العظيم

سورة آل عمران/ الآية: ١٠٤

النضال العلمي للإمام زين العابدين عليه السلام في مجال الفكر والعقيدة

سماحة السيّد محمد رضا الحسيني الجلالي

جاء الإسلام ليرسّخ الحقّ بين الناس، ومن أهمّ ما هدف إلى تثبيت قواعده وتشييد أركانه هو (التوحيد الإلهي) فإلى جانب الاستدلال على ذلك بما يوافق الفطرة والعقل السليمين، سعى لمحو آثار الوثنية، وكسر أصنام الجاهلية، لما استتبعت من تحميق الناس، وتعميق الجهل والذلّ في نفوسهم على حساب تضخّم الثروة عند الطغاة، وتوغّل الفساد في المجتمع الإنساني.

ولمّا كانت الوثنية والصنمية فكرة ناشئة من عقيدة تجسيم الإله وتشبيهه بالخلق، سعى الإسلام لنفي التجسيم والتشبيه، ودعا إلى التوحيد في الذات والصفات، والتنزيه عن كل ما يمتّ إلى المخلوقات، كل ذلك بالدلائل والبراهين والآيات البينات.

لكن الاتجاه الرجعي تسلّط على المسلمين في فترة مظلمة من تاريخ الإسلام، بدأت بتسنّم الحزب الأموي أريكة الخلافة، وسيطرته من خلالها على ربوع البلاد ورقاب العباد، أولئك الذين كانوا آخر الناس إسلاماً، وهم مسلمة الفتح، ولم تنمح من أذهانهم صور الأصنام، ولم يَزُل من قلوبهم حبّ الجاهلية وعباداتها، فكما كانوا في الجاهلية من أشدّ الناس تمسّكاً بالصنمية ورسوم الجاهلية الجهلاء ودعاة الشرك والفجور، ورعاة الدعارة والعهارة والخمور، فكذلك وبتلك الشدّة أمسوا في الإسلام أعداء التوحيد والتنزيه ومحاربي العفاف والإنصاف.

وعندما بُلِيَ المسلمون بولاة من هؤلاء، بدأوا تشويه الصِبْغة الإسلامية بانتهاك الأعراض والحرمات، وامتهان

الشخصيات والكرامات، وتشويش الأفكار والمعتقدات، وتزييف الوجدان وإثارة الأضغان، وتعميق العداء والبغضاء، وتعميم الجور والعدوان.

عقيدة الجبر:

وكان من أخطر ما روّجوه بين الأمة وأكّدوا على إشاعته هو فكرة (الجبر الإلهي) بهدف التمكّن من السلطة التامّة على مصير الناس، والهيمنة على الأفكار بعد الأجسام.

فإنّ الأمة إذا اعتقدت بالجبر، فذلك يعني: أنّ كل ما يجري عليها فهو من الله وبإذنه، فما يقوم به الخليفة من فساد وظلم وجور وقتل ونهب وغصب، فهو من الله – تعالى عن ذلك – استكانت الأمة للظالم ولتعدّياته، ولم تحاول أن تتخلّص من سيطرته، ولا دفع عدوانه، بل لم تفكّر في الخلاص منه؛ لأنّ ذلك يكون مخالفة لإرادة الله ومشيئته، فالخليفة والأمير والحاكم والوالي إنّما ينفّذون إرادة الله، وهم يد الله على عباده.

فكيف يرجى من أمة كهذه أن تقوم بوجه سلطة الظالم واعتداآته وتجاوزاته[1] .

لقد أظهر الأمويون عنادهم للإسلام حتّى في مسائل الدين، ومن عندهم ظهرت الفتاوى في الشام بخلاف ما في العراق، كما ظهر القول بالجبر في أصول الدين.

وأوّل ما انتحله معاوية من التفرقة بين المسلمين هو القول بالجبر، فقد كان هو أوّل مَنْ أظهره.

قال القاضي عبد الجبار في (المغني في أبواب العدل والتوحيد): أظهر معاوية أنّ ما يأتيه بقضاء الله ومن خلقه، ليجعله عذراً في ما يأتيه ويوهم أنّه مصيب فيه، وأنّ الله جعله إماماً وولاّه الأمر، وفشا ذلك في ملوك[2] .

وكان الأمويّون يقولون بالجبر[3] .

ولقد قاوم أئمّة أهل البيت (عليهم السلام) فكرة الجبر بكل قوّة ووضوح منذ زمان أمير المؤمنين عليه السلام[4].

ولكن لمّا استفحل أمر بني أمية، وملكوا أنفاس الناس، وتمكّنوا من عقولهم وأفكارهم، انفرد معاوية في الساحة، وغسل الأدمغة بفعل علماء الزور ووعّاظ السلاطين.

فكان معاوية يقول في خطبه: (لو لم يرني الله أهلاً لهذا الأمر ما تركني وإيّاه ولوكره الله تعالى ما نحن فيه لغيّره).

وقال معاوية في بعض خطبه: (أنا عامل من عمّال الله أُعطي مَنْ أعطاه الله، وأمنع مَنْ منعه الله، ولو كره الله أمراً لغيّره).

فأنكر عليه عُبادة بن الصامت وغيره من الصحابة. نقله ابن المرتضى وقال: هذا صريح الجبر[5] .

(١) لاحظ رسائل العدل والتوحيد (ص ٨٥ – ٨٦).

(٢) المصدر نفسه: (٢:٤٦).

(٣) تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، لأبي ريّان (ص ١٤٨ – ١٥٠).

(٤) لاحظ الاحتجاج (ص ٢٠٨) في احتجاج أمير المؤمنين عليه السلام.

(٥) المنية والأمل (ص ٨٦).

وهذا هو الذي شدّد قبضة الأمويين على البلاد والعباد، ومكّنهم من قتل أبي عبد الله الحسين سبط رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) بكل جرأة، ومن دون نكير.

وقد أظهر يزيد، أنّ الحسين عليه السلام إنّما قتله الله فأعلن ذلك في مجلسه وأمام الناس.

لكن الإمام السجاد عليه السلام لم يترك ذلك يمرّ بلا ردّ، فانبرى له وقال ليزيد: قتل أبي الناسُ[1].

وقبل ذلك في الكوفة قال عبيد الله: أليس قد قتل الله علي بن الحسين؟

فقال الإمام عليه السلام **(اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا)** [سورة الزمر (٣٩) الآية (٤٢)].

فغضب عبيد الله وقال: وبك جرأة لجوابي، وفيك بقية للردّ علي، اذهبوا به فاضربوا عنقه. ثم صعد المنبر، وقال: الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله ونصر أمير المؤمنين وحِزبه[2].

إنّ الموقف كان خطراً جداً، فالطاغية في عتوّه، ونشوة الانتصار تغمره، فالردّ عليه في مثل هذه الحالة يعني منازعته سلطانه.

ولكنّ الإمام السجاد عليه السلام وهو أسير، يُعاني آلام الجرح والمرض، لم يتركه يُلحد في دين الله، ويمرّر فكرة الجبر أمامه، على الناس البسطاء، الفارغين من المعارف، التي نصّ عليها القرآن بوضوح.

وليس غرضنا من سرد هذه الأخبار إلاّ نقل ردّ الإمام عليه السلام على مزاعم الحكّام بنسبة القتل إلى الله، بينما هو من فعل الناس، والتذكير بالفرق بين الوفاة للأنفس واسترجاعها الذي نسب في القرآن إلى الله حين حلول الأجل والموت حتف الأنف، وبين القتل الذي هو إزهاق الروح من قِبَل القاتل قبل حلول الموت المذكور.

إنّ تحدّي الحكّام وفي مجالسهم، وبهذه الصراحة ينبي عن شجاعة وبطولة، وهو تحدٍّ للسلطة أكثر من أن يكون ردّاً على انحراف في العقيدة فقط.

في حديث رواه الزهري من كبار علماء البلاط الأموي أجاب الإمام زين العابدين عليه السلام عن هذا السؤال: أبِقَدَرٍ يصيب الناس ما أصابهم، أم بعمل؟

أجاب عليه السلام بقوله: **"إنّ القَدَرَ والعمل بمنزلة الروح والجسد... ولله فيه العون لعباده الصالحين.**

ثم قال عليه السلام: ألا، من أجور الناس مَنْ رأى جوره عدلاً، وعدل المهتدي جوراً" [3].

عقيدة التشبيه والتجسيم:

وقد تجرأ أعداء الإسلام بعد سيطرتهم على الحكم على المساس بأساس العقيدة الإسلامية، وهو التوحيد الإلهي،

(١) الاحتجاج (٣١١).

(٢) الإرشاد للمفيد (ص ٢٤٤)، ولاحظ صدره في تاريخ دمشق (الحديث ٢٥).

(٣) التوحيد للصدوق (ص ٣٦٦).

وذلك بإدخال شُبه التجسيم والتشبيه في أذهان العامّة؛ لإبعادهم عن الحق، وجرّهم إلى صنمية الجاهلية.

ولقد استغلّ الأعداء جهل الناس، وبعدهم عن المعارف، حتّى اللغة العربية فموّهوا عليهم النصوص المحتوية على ألفاظ الأعضاء، كاليد والعين، مضافة في ظاهرها إلى الله -تعالى-، وتفسيرها بمعانيها المعروفة عند البشر، بينما هي مجازات مألوفة عند فصحاء العرب في شعرهم ونثرهم، يعبّرون باليد عن القوّة والقدرة، وبالعين عن البصيرة والتدبير، وهكذا...

وقد قاوم الإسلام منذ البداية هذه الأفكار المنافية للتوحيد والتنزيه، وقام الرسول -صلّى الله عليه وآله وسلّم- والأئمّة الأطهار بمقاومتها وإبطال شُبهها، وفضح أغراض ناشريها ودعاتها.

وفي عهد الإمام السجّاد عليه السلام، وبعد أن استشرى الوباء الأموي بالسيطرة التامة.

كان أمر هؤلاء الملحدين قد استفحل، وتجاسروا على الإعلان عن هذه الأفكار بكلّ وقاحةٍ، في المجالس العامّة، حتّى في مسجد رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم-، فكانت مهمّة الإمام السجاد عليه السلام حسّاسة جداً؛ لكونه ممثّلاً لأهل البيت -عليهم السلام-، بل الرجل الوحيد ذا الارتباط الوثيق بمصادر المعرفة الإسلامية بأقرب الطرق وأوثقها، وبأصحّ الأسانيد، مصحوباً بالإخلاص لهذا الدين وأهله، وعمق التفكير وقوّته، وبالشكل الذي ليس لأحد إنكار ذلك أو معارضته.

ومع ما كان عليه الإمام السجاد عليه السلام من قلة الناصر، فقد وقف أمام هذا التيار الإلحادي الهدّام، وأقام بأدلته وبياناته سداً منيعاً في وجه إحياء الوثنية من جديد فقام الإمام بعرض النصوص الواضحة التعبير عن الحق، والناصعة الدلالة على التوحيد والتنزيه، مدعومة بقوّة الاستدلال العقلي، وكشف عن التصوّر الإسلامي الصحيح، وشهر سيف الحق والعلم والعقل على تلك الشبه الباطلة.

ولنقرأ أمثلة من تلك النصوص:

جاء في الحديث أنّ الإمام زين العابدين عليه السلام كان في مسجد الرسول -صلّى الله عليه وآله وسلّم- ذات يوم، إذ سمع قوماً يشبّهون الله بخلقه، ففزع لذلك، وارتاع له، ونهض حتّى أتى قبر رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- ، فوقف عنده، ورفع صوته يدعو ربّه، فقال في دعائه:

(إلهي بدت قدرتك، ولم تبد هيبة جلالك، فجهلوك، وقدّروك بالتقدير على غير ما أنت به مشبّهوك. وأنا بريء يا إلهي من الذين بالتشبيه طلبوك، ليس كمثلك شيء يا إلهي ولن يدركوك، فظاهر ما بهم من نعمة دليلهم عليك لو

عرفوك، وفي خلقك يا إلهي مندوحة عن أن يتأوّلوك، بل ساووك بخلقك، فمن ثَمّ لم يعرفوك. واتخذوا بعض آياتك ربّاً، فبذلك وصفوك، فتعاليت يا إلهي عمّا به المشبّهون نعتوك"[1].

فوجود الإمام عليه السلام في المسجد النبوي، وإظهاره الفزع من ذلك التشبيه، وارتياعه لذلك الكفر المعلن، ونهوضه، والتجاؤه إلى القبر الشريف، ورفعه صوته بالدعاء...

كل ذلك، الذي جلب انتباه الراوي - ولابدّ أنّه كان واضحاً للجميع - إعلان منه عليه السلام للاستنكار على ذلك القول، وأولئك القوم الذين تعمّدوا الحضور في المسجد والتجرّؤ على إعلان ذلك الإلحاد والكفر.

وهو تحدٍّ صارخ من الإمام عليه السلام للسياسة التي انتهجتها الدولة، وكانت وراءها بلا ريب، وإلاّ فمَن يجرؤ على إعلان هذه الفكرة المنافية للتوحيد لولا دعم الحكومة، ولو بالسكوت.

إن قيام الإمام السجاد عليه السلام بهذه المعارضة الصريحة وبهذا الوضوح يعطي للمواجهة بعداً آخر، أكثر من مجرد البحث العلمي، والنقاش العقيدي والفكري.

إنّه بُعد التحدّي للدولة التي كانت تروّج لفكرة التجسيم والتشبيه، وتفسح المجال للإعلان بها في مكان مقدّس مثل الحرم النبوي الشريف، في قاعدة الإسلام، وعاصمته العلمية، المدينة المنوّرة!! ومهزلة الإرجاء:

الإرجاء، بمعنى عدم الحكم باسم (الكفر) على مَنْ آمن بالله، في ما لو أذنب ما يوجب ذلك، وأنّ حكماً مثل هذا موكول إلى الله تعالى، ومُرْجَأ إلى يوم القيامة، وأنّ الذنوب مهما كانت والمبادئ السياسية مهما كانت، لا تُخرِج المسلم عن اسم الإيمان، ولا تمنع من دخوله الجنّة.

وكان الملتزمون بالإرجاء، يتغاضون عمّا يقوم به الحكّام والسلاطين مهما كانت أفعالهم مخالفة لأحكام الإسلام في آيات قرآنه ونصوص كتابه وسنّة رسوله.

بل كان منهم مَن يقول: إنّ الإيمان هو مجرّد القول باللسان، وإن عُلِمَ من القائل الاعتقاد بقلبه بالكفر، فلا يُسمّى كافراً.

ومنهم مَنْ يقول: إنّ الإيمان هو عقد القلب، وإن أعلن الكفر بلسانه فلا يُسمّى كافراً[2].

وهذه المبادىء مهما كان منشؤها كانت ولا زالت تخدم الحكّام الجائرين المبتعدين عن الإسلام في كل أعمالهم وتصرّفاتهم؛ لأنّ أصحاب هذه المبادئ كانوا ولا يزالون يرون أنّ مهادنة هؤلاء الحكّام صحيحة وغير منافية للشرع وللتديّن بالإسلام.

فكانت كما يقول أحمد أمين: هذه المبادئ تخدم بني أمية - ولو بطريق غير مباشر - وأصحابها كانوا يرون أنّ

---

(١) كشف الغمّة (٢: ٨٩)، وانظر بلاغة الإمام علي بن الحسين (عليه السلام) (ص ١٧)، وقد رواه الصدوق في أماليه (ص ٤٨٧) المجلس (٨٩) موقوفاً على الرضا (عليه السلام)؛ فلاحظ.

(٢) لاحظ الفصل لابن حزم (٤: ٢٠٤).

مهادنة بني أُمية صحيحة، وأنّ خلفاءهم مؤمنون، لا يصحّ الخروج عليهم.

فكان أنّ الأمويين لم يتعرّضوا لهم بسوء، كما تعرّضوا للمعتزلة والخوارج والشيعة[1] .

بل أصبح الإرجاء كما نقل الجاحظ عن المأمون: دين الملوك[2] .

وهذه المزعومة – الإرجاء – باطلة أساساً؛ لدلالة النصوص الواضحة على أنّ العمل فعلاً وتركاً له أثر مباشر في صدق أسماء الإيمان والكفر. ولذلك أعلن أئمة المسلمين بصراحة: أنّ الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان.

فمَن خالف ما ثبت أنّه من الدين ضرورة فهو محكوم باسم الكفر، وتجري عليه أحكام هذا الاسم، سواء أنكره بلسانه، أو بقلبه، أو بعمله، كقاتل النفس المحترمة وتارك الصلاة، مثلاً.

وفي قِبال مخالفات الحكّام الظالمين، المعلنة والمخفية، قاوم المسلمون بكل شدّة، وحاسبوهم بكل صرامة، حتّى قُتِلَ عثمان، وهو خليفة من أجل بعض مخالفاته الواضحة.

لكن، لمّا تربّع بنو أُمية على الحكم، بدأوا يحرّفون عقيدة الناس بترويج كفرهم، وقتل المؤمنين العارفين بالحقائق، وإجراء سياسة التطميع والتجويع، وغسل الأدمغة والتحميق، مُسْتَمِدّين بوعّاظ السلاطين من أمثال الزهري:

فقد ورد في الأثر أنّ هشام بن عبد الملك سأل الزُهْري قال: حَدّثْنا بحديث

النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) أنه قال: مَنْ مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنّة، وإن زنا وإن سَرَق[3] .

فهشام حافظ لهذا الحديث، لكنه يريد من الزهري تقريراً عليه وتصديقاً به، وكأنّه يقول له: إنّ مثل هذا الحديث يُعجبنا ويفيدنا فاروه لنا.

ولم يكذّب الزهري هذا الحديث المجعول من قبل المرجئة، وإنما قال لهشام: أينَ يُذْهَب بك، يا أمير المؤمنين كان هذا قبل الأمر والنهي.

لكن إذا كان قبل الأمر والنهي فلماذا يذكر الزنا والسرقة، أو هما كانتا محرّمتين؟

فعاد أمر الأمة إلى أن لم ير المضحّون والمخلصون، وفي طليعتهم أهل البيت (عليهم السلام) إلاّ أن ينهضوا في طلب الإصلاح.

وقام الإمام الحسين عليه السلام بالتضحية الكبرى في كربلاء، لإنقاذ الإسلام ممّا ابتلي به من تدابير خطرة، ومؤامرات لئيمة دبّرها بنو أمية.

(١) ضحى الإسلام (٣: ٣٢٤).

(٢) الاعتبار وسلوة العارفين (ص ١٤١).

(٣) المصدر نفسه.

وقد أدّت تلك التضحية العظيمة، إلى فضح حكّام بني أُمية، حيث إنّ عملهم الظالم ذلك، الذي لم يجدوا في الأمة منكراً له ولا نكيراً عليه، هوّن عليهم الإقدام على أعمال فظيعة أخرى بعلانية ووقاحة، بشكل لم يبق مبرّر لإطلاق اسم الإسلام والإيمان عليهم؛ ولذلك نجد أنّ الذين أعلنوا عن ثورة المدينة قبيل وقعة الحرّة، كانت دعواهم: (أنّ يزيد لَرَجُلٌ ليس له دين)[1] .

والأمويون تأكيداً على كفرهم وخروجهم على كل المقدّسات، استباحوا مدينة الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم) وحرمه، وقتلوا آلاف الناس، وفيهم جمع من أبناء صحابة الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، وهتكوا الأعراض و انتهبوا الأموال[2] .

وعقّبوا ذلك بالهجوم على الكعبة والمسجد الحرام وحرم الله الآمن، فأحرقوها وهتكوا حرمتها، وسفكوا الدماء فيها، ولم يرقبوا في شيء عملوه أيام حكمهم الدموي كرامة لأحد، ولا حرمة لشيء مقدّس.

والمرجئة مع ذلك يقولون في الأمويين إنّهم الحكّام الذين تجب طاعتهم، وإنّهم مؤمنون لا يجوز الحكم عليهم بالكفر، ولا لعنهم، ولا التعرّض لهم ولا الخروج عليهم.

إنّ هذا الانحراف الذي عرض لأُمّة الإسلام، كان ردّة خفيّة تمرَّر باسم الإسلام وعلى يد الخليفة والمجرمين الممالئين له.

فكانت جهود الإمام السجاد عليه السلام هي التي أعقبت إحياء الروح الإسلامية واستتبعت الصحوة للمسلمين، فرصّ الصفوف، فتمكّن ابنه المجاهد العظيم زيد بن علي عليه السلام من إطلاق الثورة ضدّهم.

وتلك التعاليم السجّادية هي التي جعلت أمر كفر الأمويين وبطلان حكمهم، أوضح من الشمس، وألجأت أبا حنيفة المتّهم بالإرجاء [3]أن يرى ولاة بني أمية مخُالفين لتعاليم الدين وأعلن وأظهر البغض والكراهية لدولتهم، وساهم في حركة زيد الشهيد، وناصر أهل البيت بالمال والعدّة، وكان يُفتي سرّاً بوجوب نصرة زيد وحمل المال إليه والخروج معه على اللصّ المتغلّب المتسمّي بالإمام والخليفة[4] .

وفي الإمامة والولاية:

كانت الإمامة في نظام الدولة الإسلامية، أعلى المناصب الحكومية؛ ولذا كان الحكّام يسمّون أنفسهم أئمة للناس، وأُمراء للمؤمنين، بلا منازع.

(١) أيام العرب في الإسلام (ص ٤٢٠).

(٢) انظر كتب التاريخ في حوادث سنة (٦٣ هـ)، وتاريخ المدينة المنورة، وترجمة مسلم بن عقبة، وعبد الله بن الغسيل.

(٣) لاحظ تاريخ بغداد (ج ١٣)، وانظر الكنى والألقاب (١: ٥٢).

(٤) لاحظ ضحى الإسلام، لأحمد أمين (٣:٢٧٤).

ولا يدّعي أحد غير الحاكم، لنفسه منصب الإمامة إلاّ إذا لم يعترف بالحاكم ولا حكومته، ومعنى هذا الادّعاء معارضته للنظام ولمقام الخليفة نفسه.

والإمام السجاد عليه السلام قد أعلن عن إمامة نفسه بكل وضوح وصراحة ومن دون أيّة تقيّة وخفاء.

ولعلّ لجوءه عليه السلام إلى هذا الأسلوب المكشوف كان من أجل أنّ بني أُمية بلغ أمر فسادهم وخروجهم عن الإسلام، وعدم صلاحيّتهم للحكم على المسلمين وإدارةالبلاد، فضلاً عن الإمامة، حدّاً من الوضوح لم يمكن ستره على أحد. فكان من اللازم الإعلان عن إمامة السجاد عليه السلام كي لا يبقى هذا المنصب شاغراً، وإن لم تكن الإمامة الحقّة حاكمةً ظاهراً. ومهما يكن، فإنّ خطورة إعلان الإمام السجاد عليه السلام عن إمامة نفسه وأهل بيته، لا تخفى على أحد ممّن عرف جور بني أُمية وطغيانهم وقسوتهم في مواجهة المعارضين.

وقد تعدّدت الأحاديث الناقلة لهذا الإعلان، حسب تعدّد المناسبات، والظروف:

١ – ففي الحديث الذي أورده ابن عساكر: قال أبو المنهال نصر بن أوس الطائي: رأيت علي بن الحسين، وله شَعر طويل، فقال: إلى مَن يذهب الناسُ؟ قال: قلتُ: يذهبون هاهنا وهاهنا قال: قل لهم: يجيئون إليّ[١] .

٢ – قال له أبو خالد الكابلي: يا مولاي أخبرني كم يكون الأئمّة بعدك؟

فقال: ثمانية؛ لأنّ الأئمة بعد رسول الله –صلّى الله عليه وآله وسلّم– اثنا عشر إماماً، عدد الأسباط، ثلاثة من الماضين، وأنا الرابع، وثمانية من ولدي، أئمّة أبرار، مَن أحبّنا وعمل بأمرنا كان في السنام الأعلى، ومَن أبغضنا أو ردّ واحداً منّا فهو كافر بالله وبآياته [٢].

٣ – وقال عليه السلام: **" نحن أئمّة المسلمين، وحُجَجُ الله على العالمين، وسادة المؤمنين، وقادة الغرّ المحجّلين، وموالي المؤمنين، ونحنُ أمانُ أهل الأرض، كما أنّ النجوم أمان لأهل السماء... ولو ما في الأرض منّا لساخَتْ بأهلها، ولم تَخْلُ الأرض منذ خلقَ اللهُ آدمَ من حُجّةٍ لله فيها، ظاهرٍ مشهورٍ أو غائب مستورٍ، ولا تخلو، إلى أنْ تقوم الساعة، من** حجّة لله فيها، ولولا ذلك لم يُعبد الله"[٣] .

٤ – وقال عليه السلام: **" نحنُ أفراط الأنبياء، وأبناء الأوصياء، ونحن خلفاء الأرض، ونحن أولى الناس بالله، ونحن أولى الناس بدين الله"**[٤] .

٥ – وكان يقول في دعائه يوم عرفة:

"اللهمّ إنّك أيّدت دينك في كلّ أوان بإمام أقمته علماً لعبادك ومناراً في بلادك بعد أن وصلتَ حبله بحبلك،

(١) تاريخ دمشق (الحديث ٢١) ومختصره لابن منظور (١٧: ٥٣١).

(٢) كفاية الأثر للخزّاز (ص ٢٣٦ – ٢٣٧).

(٣) أمالي الصدوق (ص ١١٢)، الاحتجاج (ص ٣١٧).

(٤) بلاغة علي بن الحسين (ص ٦٠).

وجعلته الذريعة إلى رضوانك، وافترضتَ طاعته، وحذّرتَ معصيته، وأمرت بامتثال أوامره، والانتهاء عند نهيه، وألاّ يتقدمه متقدّم، ولا يتأخّر عنه متأخّر، فهو عصمةُ اللائذين، وكَهْفُ المؤمنين، وعُرْوةُ المتمسّكين، وبهاء العالمين. اللهمّ فأوْزِعْ لوليّك شكر ما أنعمتَ به عليه، وأوْزِعنا مثله فيه، وآتِهِ من لدنك سلطاناً نصيراً، وافتح له فتحاً يسيراً، وأعِنْهُ بركنك الأعزّ... وأقم به كتابك وحدودك وشرائعك وسنُنَ رسولك صلواتك اللّهمّ عليه وآله. وأحْي به ما أماته الظالمون من معالم دينك، واجْلُ به صَدأ الجور عن طريقتك، وأبِن به الضرّاء من سبيلك، وأزِل به الناكبين عن صراطك، وامحق به بغاة قصدك عِوجاً، وألِن جانبه لأوليائك، وابسط يده على أعدائك"[1].

ففي يوم عرفة، وفي موقف عرفات، حيث تتّجه القلوب إلى الله بلهفة، وحيث الأنظار شاخصة إلى ابن رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم-، والآذان صاغية إلى بقيّة العترة، لتسمع دعاءه في ذلك اليوم الشريف، وذلك الموقف المنيف، يدعو بهذه الكلمات ليعرّف المسلمين بما يجب أن يكون عليه الإمام الحقّ من صفات، وما عليه وله من حقوق وواجبات.

ولا يرتاب المتأمّل أنّ في عرض مثل هذه الأوصاف والواجبات التي يبتعد عنها الحكّام المدّعون للإمامة أشواطاً ومسافات طويلة يعدّ تعريضاً بهم، وتحدّياً لوجودهم.

وأنّ الإمام السجاد عليه السلام لمّا كان يعرّف الإمامة بهذا الشكل، فهو بلا ريب يستبعد عنها كلّ أدعياء الإمامة من غير ما لياقةٍ، فضلاً عن الاستحقاق.

فأين أولئك المغمورون في الرذيلة والظلم والجهل بالدين، بل المعارضون له عقائدياً وعملياً، أين هم من هذه الإمامة المقدّسة؟

٦ - وكان يقول في دعائه ليوم الجمعة، والأضحى:

" اللّهمّ، إنّ هذا المقام لخلفائك، وأصفيائك، ومواضع أمنائك في الدرجة الرفيعة التي اختصصتهم بها، قد ابتزّوها، وأنت المقدّرُ لذلك لا يُغالب أمرك. حتّى عاد صفوتك وخلفاؤك مغلوبين، مقهورين، مبتزّين، يرون حكمك مبدّلاً، وكتابك منبوذاً، وفرائضك محرّفة عن جهة إشراعك، وسنن نبيّك متروكة. اللّهمّ العن أعداءهم من الأوّلين والآخرين، ومَن رَضِيَ بفعالهم وأشياعهم، وأتباعهم"[2].

ويوصي الإمام إلى ولده محمّد الباقر عليه السلام فيقول:

---

(١) الصحيفة السجّادية، الدعاء رقم (٤٧).

(٢) الصحيفة السجادية الدعاء رقم (٤٨).

" بُنيّ: إنّي جعلتُك خليفتي من بعدي، لا يدّعيها في ما بيني وبينك أحد إلاّ قلّده الله يوم القيامة طوقاً من النار[1] . بل، أعلن خلافة ولده الباقر وإمامته، للزُهْري، وهو من علماء البلاط الأمويّ، في ما روي عنه، قال: دخلتُ على علي بن الحسين -عليهما السلام- في مرضه الذي تُوفّي فيه: فقلتُ: يا بن رسول الله، إنْ كان أمرُ الله، ما لابدّ لنا منه، فإلى مَنْ نختلف بعدك؟

فقال عليه السلام: **يا أبا عبد الله، إلى ابني هذا - وأشار إلى محمّد الباقر عليه السلام - فإنّه وصيّي، ووارثي، وعيبة علمي وهو معدن العلم وباقره.**

قال الزُهْري: قلتُ: هلاّ أوصيتَ إلى أكبر ولدك؟

قال عليه السلام: يا **أبا عبد الله، ليست الإمامة بالكِبر والصِغَر، هكذا عهد إلينا رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، وهكذا وجدناه مكتوباً في اللوح والصحيفة.**

قال الزُهْريّ: قلتُ: يا بن رسول الله، كم عهد إليكم نبيّكم أنْ يكون الأوصياءُ بعده؟

قال عليه السلام: **وجدناه في الصحيفة واللوح (اثنا عشر اسماً) مكتوبة إمامتهم.**

ثم قال عليه السلام: **يخرج من صُلب محمّد ابني سبعة من الأوصياء فيهم (المهديّ)** [2].

إلى غير ذلك من الآثار الواردة في هذا الباب.

والمهمّ في الأمر أنّ الإمام السجّاد عليه السلام بصراحته هذه، وإعلانه عن أهمّ ما يرتبط باستمرار العقيدة ودوامها، تمكّن من تثبيت الإمامة بعد أن تعرّض التشيّع لأوحش الحملات في ذلك التأريخ، فأدّتْ بالعقيدة إلى تضعضع لم يسبق له مثيل كما أدّتْ إلى يأس في النفوس، وتمزّق بين صفوف الشيعة بما لا يتصوّر!.

فكانت مواقف الإمام السجّاد عليه السلام هذه، الواضحة، والجريئة، والمكرّرة، سبباً لِلَملَمة الكوادر من جديد، ورصّ الصفوف ثانية، وتكريس الجهود المكثّفة، واستعادة القوى المهدورة، والتركيز على ترسيخ القواعد الأصلية من أن تحرّف أو يشوبها التشويهُ لتكوين الأرضيّة الصالحة لبذر علوم آل محمّد على أيدي الأئمّة، لاسيّما الباقر والصادق عليهما السلام.

---

(١) كفاية الأثر للخزّاز (ص ٢٤٠ - ٢٤١).

(٢) المصدر نفسه (ص ٢٤٣).

نهضة الإمام الحسين عليه السلام الجهاديّة (أسبابها وآثارها)

الخطيب السيد محمد علي الأعرجي

لمّا رأى الإمام الحسين عليه السلام ابتعاد المسلمين عن القيم الإنسانية والإسلامية التي جاء بها الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم التي نادى بها مما يشكل خطراً كبيراً على مسيرة الرّسالة وتغير مفاهيمها الأصيلة إلى مصالح خاصة وكيانات متعددة مما جعل المسيرة الإسلامية تفقد عالميتها وسعة أفقها وذلك لأكثر من سبب ويمكن إيجاز ذلك بما يلي :

أ/ انحراف الحاكم عن الخط الرّسالي منذ استشهاد الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبصورة واضحة انحراف المسؤولين عن قيادة الأمّة عن الخط الرسالي الذي رسمه صاحب الرسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لممارسة الحكم كأسلوب عملي لتطبيق حكم الله-تعالى- في مجتمع الإسلام، وصفات الحاكم التي تؤهله لتحمل مسؤولية القيادة وأداء الرسالة، والانحراف بعدها في تطبيق القاعدة التي افترضها البعض من الصحابة في تسلّم مسؤولية قيادة الأمّة والخلافة من (الانتخاب) الشّورى إلى (التعيين) من دون مبرر سليم وعذر معقول، فإنّه من غير الممكن قبول معاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد ومن شاكلهم قادة وروّاد مسيرة الدّعوة الإسلامية وخلفاء على أمّة محمد صلى الله عليه وآله وسلم في تطبيق العدل الإلهي في المجتمع الإسلامي، والسبب لانعدام الشّرعيّة إلى مركز الحكم وانحرافهم الصّريح لخطّ الدّعوة في ممارسة الحكم.

أمّا معاوية فقد أعدّ نفسه لاغتصابها منذ مقتل عثمان، ثم عمل على سلبها من الإمام علي عليه السلام فلم يتمكّن، وأخيراً اغتصبها من الإمام الحسن عليه السلام بالإرهاب والعنف والمكر وفرض نفسه فرضاً بما يملكه من قوّة التّرغيب والتّرهيب وكذلك ولده يزيد، رغم أنّه لا يملك صفة واحدة تؤهّله لهذا المركز، وبذلك أراد معاوية تغير مفهوم الخلافة إلى حكم وراثي كسروي قيصري، ومن الطّبيعي أنّ وجود مثل هذا الحاكم المنحرف في سدّة الحكم يحتاج إلى سلوك طرق معقّدة غير سليمة للوصول إلى تحقيق الغاية الملتوية وبذلك يكون الانحراف عن خطّ الإسلام في اختيار الحاكم ممّا لابدّ منه وهذا ما حصل فعلاً .

ب / اعتماد الحاكم الذي يستلم الحكم على اصفيائه ومقرّبيه اعتقاداً منه بأنّهم الذين خبرهم وخبروه وعرفوا آماله وطموحاته، ومن خلال هذا التّعامل والتّفاعل يتهيّأ لكلّ من الطّرفين تحقيق الغاية التي يرجوها، فعند وصول أحد هؤلاء الحكّام إلى سدّة الحكم فهناك فئة معيّنة من آل أبي معيط وآل أبي سفيان تشبّثت بالحكم وأصبح النّظام يرزح تحت كابوس حكم القبيلة المنحرفة عن خطّ الإسلام، وقد تحدّث التاريخ وبكلّ صراحة عن هذه الحقيقة وكيف أنَّ النّظام الأموي أخذ يلغ في دماء المسلمين ويستحلّ المحارم ويهتك الأعراض ويستبيح الحرمات ويقتل الأبرياء لا لذنبٍ إلّا لأنّهم من صفوة الأمّة المؤمنة ودعاة الإسلام وحماة العقيدة، لهذا قال المؤرخون إنَّ ضحايا معاوية بن أبي سفيان قد يزيد على مائة ألف شهيد استهدفهم لأنّهم لم يؤمنوا بحكمه ويستجيبوا لبيعته، وكلّما تقادم به العهد يدفع بآله وقبيلته إلى التّسلّط على جهاز الحكم أكثر فأكثر، وصدق رسول الله صلى الله عليه وآله حين قال وهو يشير إلى هذه الحقبة السوداء التي تمر بالمسلمين: (ربَّ يوم لأمتي من معاوية) [1].

ج / كراهية الحروب التي عانى منها المسلمون في عهد الإمام علي عليه السلام خاصّة وقد تركت في نفوس السواد كرهاً للحرب ومقتاً لها، بحيث انعكس على سلوكيتهم في مجابهة الإمامين علي والحسن -عليهما السلام- في عدم رغبتهم بالحرب وإيثارهم العافية والاستسلام حتى وإن كان ذلك مخالفاً لله، مما اضطر الإمام علي عليه السلام أن يلملم آلامه في محاربة معاوية الخارج على إمام زمانه والحاكم والخليفة الشّرعي الحق بعد رسول الله صلى الله عليه وآله .

كما لجأ الإمام أبي محمد الحسن عليه السلام إلى عقد(اتفاقية هدنة) مع معاوية ورجع إلى المدينة وقد طوى في نفسه أمل مقارعة الباطل من طريق الكفاح المسلح .

لذلك لم يقف الحسين عليه السلام مكتوف الأيدي أمام هذه السياسة الجائرة عند موت معاوية بن أبي سفيان سنة(٦٠هـ) والتي تبنّاها يزيد بن معاوية عند استلامه الحكم بعد هلاك أبيه رغم معارضة كثير من المسلمين في قبوله لمثل هذا

(١) شرح النهج / ابن أبي الحديد / ١/ ٧٩٤ .

المركز الخطير، فقد أكّد أغلب المؤرخين على ذم يزيد بن معاوية وعدم التزامه بما حرّم الله وتهاونه بكل واجبات الدّين، فلم يتقيّد بأوامر الرّسالة ونواهيها [1] .

المبحث الأوّل: نهضة الحسين عليه السلام الجهادية ضد الفساد .

ومما تقدّم رأى الإمام الحسين عليه السلام من واجبه الشّرعي أن يقوم بأية حركة تهزّ ضمير جماهير الأمّة بصفته الإمام المسؤول لقيادة الأمة وأنّه إن تغاضى أو سكت عن هذا الموقف مهما كانت الأسباب والمبرّرات لعادت الجاهلية بكل ماضيها السّيّئ إلى السّاحة من جديد ولبرزت الرّدّة عن الإسلام بشكل واضح لا ريب فيه .

إنَّ الإمام الحسين عليه السلام بحكم موقعه الدّيني كإمام وقائد أمّة لمسيرة جدّه محمد صلى الله عليه وآله تولّى مسؤولية الأمّة بعد أخيه الإمام الحسن عليه السلام وله أن يختار الطريق الذي يراه مناسباً في صلاح أمّة جدّه لمقارعة الباطل ومحاربة الطغيان وفي هذا الموقف حدّد ما يريد قائلاً: **" إنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنَّما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدّي لآمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومن ردَّ عليَّ أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق وهو خير الحاكمين"** [2] .

لم يكن دافعه في نهضته حب السّلطان ولا الاستيلاء على الحكم من أجل السّلطة، إنَّما هو الجهاد ضد الظلم والطغيان والباطل، والإصلاح الذي ينشده كل مصلح عظيم من أجل المبادئ الحقّة والقيم العالية والشّعور العالي بتحمل مسؤولية قيادة الأمّة.

إنَّ الإمام الحسين عليه السلام حدّد أهداف نهضته وجهاده الإصلاحي في كلامه المتقدم الذي رسم الخط لنهضته، إنّه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وهذا واجب ديني فرضه الله-تعالى- على المسلمين كافة وعليه يترتب الثواب والعقاب، الثواب لمن قام بأدائه، والعقاب على من قصَّر عن أدائه، قال عز من قائل في محكم كتابه الكريم **(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)**[3] والآية صريحة في دعوة المسلمين لتحمّل مسؤولياتهم الدّينية في الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر لأنّه الأسلوب الحقيقي العملي في أداء الرسالة وفي ذلك أحاديث للرسول الكريم محمد صلى الله عليه وآله منها قوله : " من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان" ومنها قوله صلى الله عليه وآله :"إنَّ الله يبغض المؤمن الضّعيف الذي لا

(١) مروج الذهب / المسعودي / ٣ / ١١ ، الفخري / ابن طبا طبا الطقطقي / ٨٣ .
(٢) التوابون / د. إبراهيم بيضون / ٧٦ .
(٣) آل عمران / ١٠٤ .

دين له، فقيل: وما المؤمن الضّعيف الذي لا دين له؟ فقال: الذي لا ينهى عن المنكر" [1] ، والحديثان الشرّيفان فيهما الصّراحة التّامة بأنَّ أسلوب الدعوة يرتكز على الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، ومن هذا المنطلق نرى الإمام الحسين عليه السلام حدّد دوافع ثورته الجهادية العظيمة مصمماً على التّغيير الشّامل مهما كلّفه الأمر ليعيد مسار الدّعوة إلى وجهتها الصّحيحة السّليمة التي جاء بها النّبي الأعظم محمد صلى الله عليه وآله، وما دام الإنسان صانع التّغيير البنّاء، وصاحب القدرة في اختيار الواقع الذي يريده، وله الإرادة الكاملة في قبول أو رفض ما ينعكس على المجتمع من إيجابيات أو سلبيات لها تأثيرها على سلوك الفرد والجماعة ولها ارتباطها الزّمني وجذورها التاريخية بقضية التّغيير، فإنَّ الإمام الحسين عليه السلام هو بطلها ومفجّرها ورائدها لا يهمّه ما يترتّب على ذلك، فالقائد الفذ لا يفكّر بمصيره الذي ينتظره، وقد أوضح تلك النّهاية لأصحابه ولمن أشاروا عليه بعدم الخروج إلى العراق فيقول: **" وأيم الله لو كنت في جحر هامة من هذه الهوام لاستخرجوني حتى يقضوا بي حاجتهم"**[2] ، ومرّة أخرى يقول: **" والله لا يَدَعوني حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي "** [3] ٠

إنَّ الإمام الحسين عليه السلام صاحب رسالة وقائد أمّة لا يرهب الموت، فالتّضحية من مقوّمات القائد الرسالي وقد ضحّى بنفسه من أجل نهضته الإصلاحية التي هدّت صروح الظلم والطغيان على امتداد العصور ٠

المبحث الثاني: آثار نهضة الحسين عليه السلام

لقد تركت نهضة الإمام الحسين عليه السلام الجهادية آثاراً كثيرة وكبيرة على الساحة الإسلامية خصوصاً، وعلى ساحات الأمم الأخرى عموماً؛ منها :

١/ أثرها على مستوى الفرد المسلم كان كبيراً للغاية حيث أنَّها هزّت الإنسان المسلم هزاً عنيفاً، وأيقظته من تخدير النّظام الأموي الإرهابي، وهيّأته لتحمّل الصّعاب في سبيل قضيّته العادلة، والدّفاع عن سلامتها .

٢/ إنَّ نهضة الإمام أبي عبد الله الحسين عليه السلام دخلت ضمير الإنسان المسلم إلى حدّ التّقديس ولامست مشاعر المستضعفين من الأمة بما يَروي ضماها، ويغذّي إحساسها بانتظار الكرامة التي هدرها الحكّام الظّلمة والطغاة الجبابرة .

لم يكن مبعث هذا الشّعور والتّقديس لهذه الثّورة العاطفة المجرّدة والانفعال المؤقّت لكون مفجّرها ابن بنت رسول

---

(١) وسائل الشيعة / الحر ألعاملي / ٦ / ٣٩٧ ٠

(٢) تاريخ الطبري / الطبري / ٤/ ٢٨٩ ، ٢٩٦ ٠

(٣) الكامل في التاريخ / ابن الأثير / ٣ / ٢٧٥ ــ ٢٧٦ ، الأخبار الطوال / الدينوري/ ٢٢٣ ، والمصدر السابق نفسه .

الله ﷺ وحفيده رغم أنَّ ذلك أمر لا يستهان به، غير أنَّ العامل الأساسي هو أنَّ الإنسان لاقى من عنت الحكومات المنحرفة عن خطّ الرسالة المحمّدية، واضطهادها لكلّ القيم الإنسانية، وهذا ما جعل الإمام الحسين عليه السلام قائداً فذّاً في نظره لمجابهة الباطل ورائداً وقائداً رفيعاً يُقتدى به في مقارعة الظّلم والظّالمين .

٣/ لقد أثّرت نهضة الإمام الحسين عليه السلام بالأفراد الشّعور بالمسؤولية الجهادية انطلاقاً من القاعدة الإسلامية "كلكم راعٍ وكلّكم مسؤول عن رعيته" فالإمام لحسين عليه السلام لم ينهض بهذه المهمّة الشّاقة مع قلة الناصر، ووحشة الطّريق إلّا لأنَّ الباطل أخذ يتفاقم إلى درجة باتت دعوة النبي محمد ﷺ ترزح من الكابوس الأموي الخطير والانحراف عن الخط الرسالي .

٤/ إن الإمام الحسين عليه السلام حين اختار طريق القوّة في مواجهة الانحراف، يعلم يقيناً أنَّ معركته مع الباطل غير متكافئة عسكريّاً، لكنه على يقين ثابت أيضاً أنَّ نهضته سوف تهزّ الإنسان وتتركه يرفض الخنوع والذّلّ وقبول المواقف الاستسلاميّة، فإنَّ عملية التّغيير تفرض ثبات الرّوح الجهادية إلى أبعد آفاقها في نفس الإنسان المسلم، بحيث أفرزت نتائج ذات أثر كبير في زعزعة النّظام المنحرف عن الخط الإسلامي على امتداد التاريخ، ممّا أدّى إلى ظهور ثورات كثيرة في العالم الإسلامي، ومنها ثورة التّوّابين بزعامة سليمان بن صرد الخزاعي في عام (٦٥هـ)، وحركة المختار بن أبي عبيدة الثقفي عام (٦٦هـ)٠

وفي عام(١٢١هـ) كانت نهضة الثائر العلوي صليب كناسة الكوفة حليف القرآن زيد بن علي بن الحسين (عليهما السلام) وغيرها من الثّورات في الكوفة والبصرة .

٥/ لقد دخلت نهضة سيد الشهداء عليه السلام الجهادية ضمير الأجيال طيلة أربعة عشر قرناً تحرّك الجماهير وتبعث فيهم الحماس البطولي ضدّ الطغيان والاستبداد، وتغرق الدنيا شعوراً وثّاباً نحو الحرية والكرامة على كل المستويات الفكرية والنضالية، ويعيش المستضعفون مضمونها السّياسي والاجتماعي، ويخشى المتجبّرون الحاكمون جماهيريتها وقوّتها الضّاغطة على التّحرر من العبودية والإذلال .

فسلام على الحسين وعلى علي بن الحسين وعلى أولاد الحسين وعلى أصحاب الحسين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين وأفضل الصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين .

بسم الله الرحمن الرحيم

(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)

صدق الله العلي العظيم

سورة الحج/ الآيتان: ٣٩-٤٠

قال الإمام العسكريّ عليه السّلام :

" عَلاماتُ المُؤمِنِ خَمسٌ: صَلاةُ الخَمسينَ، و زيارَةُ الأَربَعينَ، والتَّختُّمُ فِي اليَمينِ، وتَعفيرُ الجَبينِ، والجَهرُ بِبِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ"

بحار الأنوار / ج ٩٨ / ص٣٢٩

شهر صفر

- التسليم للمعصوم عليه السلام
- توسعة حريم الزّيارة زماناً ومكاناً
- زيارة النّساء مواساة للزهراء عليها السلام
- محطات في حياة الإمام الرّضا عليه السلام

التسليم للمعصوم عليهم السلام

صباح الصافي

قال الإمام الحسن المجتبى -صلوات الله عليه-: " **ألا وإن ما تكرهون في الجماعة خير لكم مما تحبون في الفرقة، ألا وإنّي ناظر لكم خيراً من نظركم لأنفسكم، فلا تخالفوا أمري، ولا تردوا عليّ رأيي، غفر الله لي ولكم، وأرشدني وإياكم لما فيه المحبّة والرّضا** "[1].

حديث البحث يدور حول تداعيات وتموّجات الهدنة التي عقدها الإمام الحسن عليه السلام مع الجهاز الأموي آنذاك، هذه الهدنة التي كان لها آثارها في نفوس من كانوا حول الإمام الحسن عليه السلام إذ كانوا مجموعة طبقات، وقد كان بعضهم من شيعته، والبعض الآخر من مخالفيه، والذي يهمّنا ردود الفعل التي أبداها بعض شيعته، وسوف نناقش الجذور والأعماق لهذه الردود وإعادة نظر في ما يطرح من آليات جديدة لتفسير أفعال المعصومين عليهم السلام.

وسوف يكون الحديث على محورين:

(١) بحار الأنوار / ج ٤٤ / صفحة ٤٧.

المحور الأوّل:

المواقف التي سجَّلها لنا التاريخ كردود الأفعال بعد هدنة الإمام الحسن عليه السلام:

١- عن أبي جعفر عليه السلام قال: جاء رجل من أصحاب الحسن عليه السلام يقال له: سفيان بن ليلى وهو على راحلة له فدخل على الحسن عليه السلام وهو محتب في فناء داره فقال له: السلام عليك يا مذل المؤمنين، فقال له الحسن: أنزل ولا تعجل، فنزل فعقل راحلته في الدار، ثم أقبل يمشي حتى انتهى إليه قال: فقال له الحسن عليه السلام: ما قلت؟ قال قلت: السلام عليك يا مذل المؤمنين، قال وما علمك بذلك؟ قال: عمدت إلى أمر الأمّة فحللته من عنقك وقلدته هذه الطاغية يحكم بغير ما أنزل الله، قال: فقال الحسن عليه السلام: سأخبرك لم فعلت ذلك سمعت أبي يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لن تذهب الأيام والليالي حتى يلي على أمتي رجل واسع البلعوم رحب الصدر يأكل ولا يشبع وهو معاوية، فلذلك فعلت ما جاء بك، قال: حبك؟ قال: الله، قال: الله، قال: فقال الحسن عليه السلام: والله لا يحبّنا عبد أبداً ولو كان أسيراً بالديلم إلّا نفعه الله بحبّنا وإن حبّنا ليساقط الذّنوب من ابن آدم كما يساقط الريح الورق من الشجر»[1].

٢- عن عدي بن ثابت عن سفيان قال: " أتيت الحسن بن علي -عليهما السلام- حين بايع معاوية فوجدته بفناء داره وعنده رهط، فقلت: السلام عليك يا مذل المؤمنين، قال: وعليك السلام يا سفيان [انزل] فنزلت فعقلت راحلتي ثم أتيته فجلست إليه فقال: كيف قلت يا سفيان ؟ قال: قلت: السلام عليك يا مذل المؤمنين فقال: ما جر هذا منك إلينا ؟ فقلت: أنت والله بأبي أنت وأمّي أذللت رقابنا حين أعطيت هذا الطاغية البيعة، وسلمت الأمر إلى اللعين ابن آكلة الأكباد، ومعك مائة ألف كلهم يموت دونك، وقد جمع الله عليك أمر الناس. فقال: يا سفيان إنَّا أهل بيت إذا علمنا الحق تمسّكنا به، وإنِّي سمعت عليّاً عليه السلام يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: لا تذهب الأيام والليالي حتى يجتمع أمر هذه الأمّة على رجل واسع السرم، ضخم البلعوم، يأكل ولا يشبع، لا ينظر الله إليه، ولا يموت حتى لا يكون له في السماء عاذر، ولا في الأرض ناصر، وإنَّه لمعاوية وإنِّي عرفت أنَّ الله بالغ أمره. ثم أذّن المؤذّن فقمنا إلى حالب يحلب ناقته فتناول الإناء فشرب قائماً ثم سقاني وخرجنا نمشي إلى المسجد فقال لي: ما جاء بك يا سفيان ؟ قلت: حبكم والذي بعث محمداً بالهدى ودين الحق، قال: فأبشر يا سفيان فإنِّي سمعت علياً عليه السلام يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: يرد علي الحوض أهل بيتي ومن أحبهم من أمّتي كهاتين يعني السبابتين أو كهاتين يعني السبابة والوسطى - إحداهما تفضل على الأخرى، أبشر يا سفيان فإنَّ الدنيا تسع البر والفاجر، حتى يبعث الله إمام الحق من آل محمد صلى الله عليه وآله»[2].

---

(١) بحار الأنوار / ج ٤٤ / ص ٢٤.

(٢) المصدر السابق / ج ٤٤ / ص ٥٩.

٣- قال الإمام الصادق عليه السلام: « إنَّ الحسن بن علي -عليهما السلام- لما طعن واختلف الناس عليه سلَّم الأمر لمعاوية، فسلّمت عليه الشيعة « عليك السلام يا مذل المؤمنين» فقال عليه السلام: ما أنا بمذل المؤمنين، ولكني معز المؤمنين، إني لما رأيتكم ليس بكم عليهم قوة سلمت الأمر لأبقى أنا وأنتم بين أظهرهم، كما عاب العالم السفينة لتبقى لأصحابها، وكذلك نفسي وأنتم لنبقى بينهم»[١].

٤- وهذا حجر بن عدي الصحابي الجليل يخاطبه قائلاً: « أما واللهَّ لوددت أنَّك مت في ذلك اليوم ومتنا معك».

وعدي بن حاتم يقول: « أخرجتنا من العدل إلى الجور» . وبشير الهمداني وسليمان بن صرد الخزاعي يدخل كل منهما عليه هاتفاً: « السلام عليك يا مذل المؤمنين » . وخاطبه بعض أصحابه قائلاً: « يا بن رسول اللهَّ أذللت رقابنا بتسليمك الأمر إلى هذا الطاغية»[٢] .

هذه العبارة صدرت بأشكال مختلفة من أفراد متفاوتين ولكن المضمون واحد، وهناك كثير من النّماذج لردود الفعل هذه، ولعل شخصاً يقول أنَّ هذا المقطع من التاريخ ربما لن يتكرّر ونقول أنَّ ردود الفعل السلبية اتجاه فعل المعصوم او انتقاص المعصوم ليست فقط مفردة تاريخية.

إنَّ في عصرنا اليوم الكثير ممن ينتقص أو يشكك في فعل المعصوم عليه السلام بحجّة البحث العلمي ولا نجد فيه روح البحث العلمي، وقد سجّل علماؤنا الباحثون المحققون في كتاباتهم وفيما ألّفوهُ الأصول العلمية العقائدية والمباني القويمة التي تُبيّن الآليّة التي نقرأ من خلالها فعل المعصومين عليهم السلام، ليس في عصرنا فحسب بل حتى في زمان الإمام الحجة -عجل الله فرجه الشريف-.

إنَّ من يقرأ ردود الأفعال يلاحظ جرأة البعض على الإمام عليه السلام، ووصفه بأنَّه مذل المؤمنين، أليس الأحرى التسليم للمعصوم عليه السلام؟، ولهذا ينقدح التّساؤل التالي: هل نحن فعلاً مزودون بآليات لقراءة فعل المعصوم أو تفسير أفعال المعصومين عليهم السلام بحيث ليس لدينا مشكلة تجاه أي فعل يقوم به الإمام؟

هل نستطيع أن نستوعب لماذا فعل الإمام هذا الفعل، وعدم التَّشكيك فيه؟

إنَّ الإجابة عن هذا التّساؤل يخدمنا ويخدم الأجيال التي تلينا، لكي نربّي أجيالنا على رؤية واضحة بها نستطيع ويستطيعون أن يتخذوا الموقف المناسب مع مقامه، وإمامته-عجل الله فرجه-.

---

(١) ميزان الحكمة/ ج٥/ ص٢٣٣.

(٢) راجع احاديث في الدين والثقافة والاجتماع/ ج١/ ص٨٥.

المحور الثاني:

ما هي الأسباب التي تدعو البعض الى أن يتّخذ ذلك الموقف السلبي؟

إنَّ الأسباب عديدة، ونذكر منها ما يأتي:

السّبب الأوَّل: الاعتداد بقدرة العقل المطلقة، فهناك من يعتقد أو يؤمن أو مقتنع بأنَّ لعقله قدرة مطلقة على فهم الأمور وتفسيرها، وتحليلها، والوصول الى واقعها مهما كانت، وأينما كانت في أي موقع من المواقع، وحينما نأتي لأرض الواقع نجد العقول المتخصّصة لا تقر ولا تثق بهذه النَّظريّة، فالعقل البشري عقل محدود، وهو يوفّر بيئة لنمو الدّلالات والمفاهيم، كما أنَّه قادر على استخدام ما تنقله إليه الحواس في محاولته الوصول إلى بعض الأشياء المجهولة؛ لكن العقل غير قادر على الخوض في مسائل لا تتوفّر له عنها معلومات جيّدة؛ فهو لا يستطيع سن تشريعات تأخذ بعين الاعتبار مصالح جميع الناس وأوضاعهم دون أن يقع حيف على بعض منهم.

كما أنَّ العقل البشري أبدع حلولاً كثيرة لمشكلات الناس، وأسهم في توفير الرّاحة لهم، وفي تخليصهم من الكثير من أشكال العناء، وهذا موضع تقدير منا جميعاً، ولكن علينا أن نقول: إنَّ إبداعات العقل أوجدت مشكلات كثيرة مثل تلوّث البيئة ومخاطر الطاقة النّووية وسيطرة الآلة على حياة الإنسان .... وعقولنا غير قادرة على إبداع الحلول للمشكلات التي أوجدتها؛ إنَّها تكشف دائماً عن مساحات فاصلة بين وجود المشكلات والقدرة على حلّها؛ وما ذلك إلا لأنَّ منتجات العقول تدخل في تعقيدات وملابسات يعجز العقل عن فكّ رموزها والتّحكّم بها.

كما أنَّ هناك الكثير من الأدلّة التي تثبت بأنَّ العقل ليست لديه القدرة المطلقة والكاملة من جميع الجهات، وأنَّه كان يدرك أشياء، وتخفى عنه أشياء أخرى:

الدّليل الأوَّل: الواقع الذي نعيشه، فنحن نرى اليوم أنَّ العقول تتطوّر من خلال المكتشفات ومن خلال البحوث، وهناك أمور لم يكن يدركها العقل، وأصبح الآن يدركها، ومادام العقل يقبل الزيادة فهو يقبل النّقصان، وإلَّا كيف وصل الى هذا التطور لو كانت كل الإدراكات عنده كاملة؟

وما دام العقل قابلاً للزيادة فهو له صفة النّقصان ويقبل الزيادة وتبقى العقول تقبل الزيادة حتى يخرج الإمام صاحب الزمان-عجل الله فرجه الشريف- كما دلّت الرّوايات على أنّ في زمان الإمام الحجة عليه السلام سيكون وسيلة من وسائل إكمال العقول.

عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: « **إذا قام قائمنا وضع يده على رؤوس العباد فجمع بها عقولهم وكملت بها أحلامهم**»

(١). أي تكتمل العقول خلال التّطوّر الذي سيكون في عصر الإمام الحجة عليه السلام وهو عصر التّطور العلمي، وأمّا من يدّعي أنّ العقول اليوم لها قدرة مطلقة تستوعب فهم كل شيء وقادرة على الإحاطة بكل شيء فهذا مجرد شعار ونظرية ليس لها في أرض الواقع تطبيق حقيقي .

ولو لاحظنا أكثر الناس استخداماً لعقولهم واستثماراً لها هم الفلاسفة؛ إذ إنَّ صياغة المفاهيم بواسطة العقل هي شغلهم الشّاغل؛ ومع ذلك فإنَّ كل المشتغلين بالفلسفة يعترفون أنّه ليس من شأنها أن تمنحنا اليقين، أو تحدّد لنا موطن الدّاء في قضية من القضايا، أو تصف لنا الدّواء، أو تقدّم لنا مفاتيح حلول المشكلة من المشكلات، إنَّها نشاط فكري لا يتوقّف عن إثارة الأسئلة، وإعادة صوغ المشكلات؛ إنَّها أشبه بمسلسل ليس له نهاية، وهي دائماً في حركة مستمرّة من إشكال إلى إشكال أعمق وأكثر تعقيداً من سابقه.

لا يملك العقل البشري أي عتاد حقيقي يمنعه من التّورّط في صناعة الخرافة وقبولها . ولست أبالغ إذا قلت: إنَّ البنية العميقة لعقول معظم الناس هي بنية خرافية؛ حتى كأنَّ الخرافة هي الأصل لديهم؛ إذ بمجرد حدوث ضعف في التثقيف الجيّد أو وقوع الناس في حالات استثنائية من الشّدّة والكرب تطفو تلك البنية على السّطح .

لا مجال للشك في وجود هذا الاختلاف الفكري بين عقلاء البشر كما واضح لأدنى متتبّع ... ومردّ ذلك كلّه إلى قصور العقل عن إدراك الواقع . فإذا كان العقل في الإنسان ينفذ إلى الحقائق ويدرك الواقعيات كما هو الحال بالنسبة إلى الغريزة في الحيوانات، كان يستحيل وقوع البشرية في أمثال هذه الاختلافات والمطاحنات ... وهذا هو السر في إرسال الأنبياء من قبل الله -تعالى-، فإنَّهم جاؤوا لجبران قصور العقل، ليقولوا الكلمة الحقّة في موارد الاختلاف، ويثبتوا الحقيقة السّاطعة في المنازعات وبذلك ليخلّصوا البشرية من ورطة الجهل وحيرة الضلال:

(كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ)(٢).

كما تشير أيضاً نصوص شريفة أخرى إلى حقيقة عدم قدرة العقل المطلقة فلو جئنا إلى القرآن الكريم لوجدنا أنّه يتحدّث عن قضيّة عجز العقل وقصوره، وأنَّ الله -عزّ وجل- لم يعطِ البشر إلا القليل من العلم في قبال ما يجهلون، قال -تعالى-: **(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)**(٣)، ولا يوجد العلم الكامل المطلق إلّا عند الله -سبحانه وتعالى-، وأعطى حججه الحجة المطلقة وهم محمد وآل محمد عليهم السلام، هذا العلم

(١) كمال الدين للصدوق: ٦٧٤.

(٢) سورة البقرة: الآية: ٢١٣.

(٣) سورة الاسراء: الآية: ٨٥

المرتبط بسعة حجيتهم وبسعة إمامتهم التي تشمل جميع ما خلق الله -سبحانه وتعالى-، لكن هؤلاء اصطفاهم الله وأمّا الباقي فينطبق عليهم قوله -تعالى-: **(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)**، فما نعلم في قبال ما نجهل قليل جدّاً والرّوايات تؤكّد هذا المعنى، واليوم لو دخلت وقرأت في كلّ التّخصّصات لن تجد أي مجال من مجالات العلم التّخصّصيّة إنَّهم وصلوا الى طريق اكتملت فيه جميع فروع هذا العلم، ولا أحد يقول هذا ولذلك نرى شهادات الدكتوراه في الدّراسات إنَّما تكون في مجالات جديدة، وهذا يدل على انفتاح أبواب جديدة في العلم، فلا يوجد علم مطلق بكل الأمور، والإنسان دائماً يضيف في حياته ويضيف لنفسه علماً جديداً، وفي رواية عن أبان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: « **العلم سبعة وعشرون حرفاً فجميع ما جاءت به الرسل حرفان فلم يعرف الناس حتى اليوم غير الحرفين، فإذا قام قائمنا أخرج الخمسة والعشرين حرفاً فبثّها في الناس، وضمّ إليها الحرفين، حتى يبثّها سبعة وعشرين حرفاً**»[1]. ، أي ما ظهر من الرسل حرفان من تلك الحروف وبعض المحقّقين يقول المقصود بالحرف القاعدة او القانون الذي تندرج تحته آلاف من القوانين وملايين من القوانين، فلو تصوّرنا ماذا سيحصل في العالم في زمن الإمام الحجّة -عجل الله فرجه- والعلم الى أين سيأخذ الناس في التّطور بعد ظهور الإمام الحجة وبركات وجوده -صلوات الله عليه-.

كل هذا يثبت أنَّ العلم الذي بيّن أيدينا قليل، ولا يؤهّلنا أن نقول بأنَّ لدينا علم يستوعب جميع الأمور أو لدينا علم يفسّر جميع الظواهر في الكون.

لذا على الإنسان أن يتواضع للحقيقة، ويقول عقلي ليس لديه الإحاطة أو العلم التام.

إنَّ الفرق بيننا وبين أفعال المعصومين عليهم السلام، أنَّ أفعالهم عليهم السلام في الحقيقة ليست أفعالاً عاديّة؛ لأنّها ترتبط بالعصمة والعلم الإلهي، وبالتالي فالإمام المعصوم يتصرّف وفق علم مغيّب عنّا، كما يقول نبي الله يعقوب عليه السلام في قضيّة بكائه على يوسف عليه السلام: **(قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهَّ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهَّ مَا لَا تَعْلَمُونَ)**[2] وقوله-تعالى-: **(وَأَعْلَمُ مِنَ اللهَّ مَا لَا تَعْلَمُونَ)** معناه أنَّ الله يزوّد حججه عليهم السلام بعلم لا يعلم به النَاس، ولا شك أنَّ الفعل قائم على العلم، ولا توجد لدينا قاعدة علميّة نكتشف من خلالها سرّ هذا الفعل إلَّا بواسطة العلم الذي أعطاه الله للمعصوم عليه السلام، وحينما تتوقّف عقولنا عن فهم فعل من الأفعال، وتعجز عن إدراكه، أو كان الفعل خلاف ما يراه عقل الإنسان فليتوقّف الإنسان وليقل هناك علم خفي فعله المعصوم؛ نبي كان أو وصياً، وهذا الفعل لا أعرفه، وهذا أسلم الطرق التي يجب أن نقوم بها، لا أن نتعلّم إنكار العمل بل نستفسر ونستفهم، فهؤلاء ظنّوا بأنَّهم استطاعوا من

(١) بحار الأنوار / ج ٥٢ / ص٣٣٦.

(٢) سورة يوسف: الآية: ٨٥.

خلال الرّؤيا العامّة لفعل الإمام الحسن المجتبى عليه السلام أن يفسّروا فعل الإمام -صلوات الله عليه- وأن يعطوا قراراً اتجاه ذلك الفعل، ولم يستفسروا ولم يطلبوا الاستفهام من الإمام عليه السلام، واليوم يطرح البعض نفس الإشكالات على المعصوم، ويرى أنَّ العقل يقضي بخلاف تصرّف المعصوم عليه السلام، ويمكن القول أنَّ هؤلاء جميعاً يجمعهم خيط واحد وإن لم يصرّح بعضهم بذلك، وهذا الخيط هو إنكار العصمة، واتصال الإمام عن طريق العلم الّدنّي بالله؛ لأنَّ هذين الأمرين هما الجذران الأساسيّان لجعل فعل المعصوم فعل متميّز يجب أن يدخل الى فهمه من الأبواب وهو أن نسأل المعصوم عليه السلام او أن يصرّح الإمام نفسه بالعلّة.

السّبب الثّاني: النّظرة المتجزِّئة القشرية والسّطحيّة في فهم الأمور بشكل عام وفي فهم تصرّفات وأفعال المعصوم عليه السلام حيث نجد صبغة حاكمة على العقول بشكل عام إلّا ما ندر، وهي أنَّ العقول عندما تريد أن تُفسّر أمراً تكون حبيسة للنظرة الظاهرية، وتكون في حدود الصّورة الظاهريّة، وترتب أثراً على ذلك في الغالب، ولذلك تفسّر الظّواهر تفسيراً جزئيّاً او تفسيراً ناقصاً، وهناك الكثير من أفعال الناس وأفعال المؤمنين تحتاج إلى تفسير، فأحياناً نرى مؤمناً في وضع لا يليق، علينا أن لا نسرع بالحكم عليه فربما لفعله خلفية غائبة عنّا، ويجب أن نسأله وأن نبحث عن هذا الفعل، فربما وقع سهواً منه أو غفلة أو ربما وقع وهو مضطر إليه، فلا نجزئ القراءة من خلال الصورة الظاهرية ونرتّب أثراً نتيجة النظرة الظاهريّة، فإذا كان هذا فعل غير المعصوم فكيف بأفعال المعصومين عليهم السلام القائم على علم له صلة بالله -سبحانه وتعالى- وليس علماً عاديّاً، ولذلك عندما نريد أن نرى أو نُفسّر فعل المعصوم لابُدّ أن نضع أمامنا هذه النّقطة: وهي ما العلم الذي استند إليه المعصوم عليه السلام في الفعل؟

لأنَّ الصّورة الظّاهرية لا تكشف لنا عن حقيقة العلم الذي استند إليه المعصوم، وهنا نذكر شاهدين من القرآن الكريم:

الشّاهد الأوَّل: هو بناء نبي الله نوح عليه السلام للسفينة، حيث أنَّ نبي الله نوح عليه السلام صنع السّفينة في الصّحراء، قال -تعالى-: **(وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ)**[1].

لقد كان قوم نوح يسخرون من النبي عليه السلام؛ لأنَّ الصّورة الظّاهريّة لرجل يصنع سفينة في وسط الصحراء يفسّرها الإنسان ظاهرياً، وطريقة المنهج التّفكيري في العقل تقول لا يمكن لشخص أن يبني سفينة في الصّحراء؛ لأنَّه خلاف ما اعتدنا عليه.

ولكن لو تأمّلنا في الفعل سنجد أنَّ هذا الفعل صدر من معصوم، يأخذ العلم من الله -تعالى-، وما علينا إلّا

(١) سورة هود/ الآية: ٣٨.

التَّسليم؛ لوجود قاعدة إيمانيّة تقول: هذا معصوم متّصل بالله، والتّسليم ليس تجاهل للعقل بل العكس، وضمن الموقف العقلاني أنَّ الإنسان يسلم بعقله للكامل الذي يعرف ولا يفعل إلا ما هو واقع لأنَّه متّصل بالحكيم وبالله -سبحانه وتعالى-.

الشَّاهد الثّاني: إيفاد نبي الله إبراهيم عليه السلام زوجته وابنه في ذلك الوادي، كما في قوله تعالى **(رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ)**[1].

هنا نبي الله إبراهيم عليه السلام يأتي بزوجته وابنه في وادٍ مخيف موحش غير ذي زرع أي ليست له أهليّة لأن يزرع ويتركهم ويذهب، فلو وقفنا على هذه الصّورة الظاهرية ووفق المعطيات الظاهرية التي اعتادت عقولنا عليها ضمن المنهج المعتاد، سنقول لا يمكن، كيف لرجل أن يترك زوجته وابنه في هذا الموقف للسباع والوحوش ووادٍ موحش حتى أنَّ الرّواية تقول هاجر وقفت على جبل الصّفا تُنادي: هل بالوادي من أنيس ولا أحد يجيبها، هذه المرأة العظيمة التي يأتي بها زوجها تعتقد بنبوّته، ولم تعترض عليه، ولم تنكر عليه فعله، وتحمّلت الوحشة في ذلك الوادي وسلّمت لله أمرها، ماذا نقول في هذه المرأة لو أنَّ شخصاً عاديّاً يقوم بهكذا أمر يأتي بزوجته ويتركها في البر ويذهب، وماذا سنطلق على هذا الرجل، لكن عندما هكذا فعل يقوم به معصوم فإنَّ وراء هذا الفعل مغزى وحكمة تخفى، وستتحقّق في المستقبل، يقول -تعالى-: **(رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ)**[2]، وإذا بتلك البقعة تتحوّل قبلة للعالم، وتصبح هاجر وابنها اسماعيل -عليهما السلام- محور للحج الإبراهيمي ومناسك الحج الإبراهيمي، فمن كان يعلم بأنَّ إيفاد إبراهيم لزوجته ولابنه سيصنع هذا الوضع العظيم لمكّة، فنحن لا ندري لكن أفعال الحجج تكشف عن مشروع إلهي وهذا المشروع الإلهي كلّف به الله الأنبياء والحجج، وزوَّدهم بعلم وعصمة.

لذلك يجب أن تكون رؤيتنا للمعصومين بهذه الآلية، وهنا لو جئنا إلى قضيّة الإمام الحسن المجتبى عليه السلام لما دخل عليه بعض أصحابه وانتقده في مسألة الصّلح، أخبره الإمام عليه السلام بعلّة الفعل «**عن أبي سعيد عقيصا قال: لما صالح الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام معاوية بن أبي سفيان دخل عليه الناس فلامه بعضهم على بيعته فقال الحسن عليه السلام: ويحكم ما تدرون ما عملت، والله الذي عملت خير لشيعتي مما طلعت عليه الشمس أو غربت، ألا تعلمون أنّي إمامكم ومفترض الطاعة عليكم، وأحد سيدي شباب أهل الجنة، بنص من رسول الله صلى الله عليه وآله علي ؟ قالوا: بلى، قال: أما علمتم أنّ الخضر لما خرق السّفينة وأقام الجدار، وقتل الغلام، كان ذلك سخطا لموسى بن عمران عليه السلام**

(١) سورة إبراهيم/ الآية: ٣٧.

(٢) سورة ابراهيم/ الآية: ٣٧.

إذ خفي عليه وجه الحكمة في ذلك، وكان ذلك عند الله تعالى ذكره حكمة وصواباً...»[1].

وفي حديث آخر: «**ألا ترى الخضر عليه السلام لمّا خرق السّفينة وقتل الغلام وأقام الجدار سخط موسى عليه السلام فعله، لاشتباه وجه الحكمة عليه حتى أخبره فرضي، هكذا أنا سخطتم علي بجهلكم بوجه الحكمة فيه، ولولا ما أتيت لما ترك من شيعتنا على وجه الأرض أحد إلا قتل**»[2].

فلذلك الإمام عليه السلام يبيّن خلفيّة الحدث فإذا خرج الإمام الحجة عليه السلام ورأينا منه غرائب الأفعال وعجائب التّصرّفات، نقول لعقولنا هذا معصوم علينا سؤاله استفهاماً واستعلاماً لا إنكاراً عليه.

لنتعلم من إمامنا فإن كشف لنا كان بها، وإلَّا فهو عليه السلام قد فعل ما هو واقع ضمن العلم الذي كشف له من قبل الله -سبحانه وتعالى-، لذا يقول الإمام الباقر عليه السلام: « **والله الذي صنعه الحسن بن علي -عليهما السلام- كان خيرا لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس، والله لفيه نزلت هذه الآية: « ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتو الزكاة » إنَّما هي طاعة الإمام فطلبوا القتال « فلما كتب عليهم » مع الحسين « قالوا ربنا لِمَ كتبت علينا القتال لولا أخّرتنا إلى أجل قريب » وقوله: « ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل » أرادوا تأخير ذلك إلى القائم عليه السلام** »[3] .

إنَّ مشروع الإمام الحسين عليه السلام لم يقم إلَّا بحفظ تلك الدّماء والنّفوس التي كانت أثراً للهدنة والتضحيات التي قدَّمها الإمام الحسن عليه السلام مع الجهاز الأموي، ولو خاض الإمام الحسن عليه السلام حرباً ضمن المعادلات والمعطيات الظّاهرية في ذلك الوقت لكانت محسومة لغيره ولم تبقَ هذه النفوس التي نصرت الإمام الحسين عليه السلام، ولذا يمكن القول أنَّ الإمام الحسن عليه السلام هو من وضع حجر الأساس لمشروع الإمام الحسين عليه السلام مشروع الإصلاح والنّهوض بالدّين الذي يقول: « **إنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً وإنَّما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدّي صلى الله عليه وآله أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي وأبي علي ابن أبي طالب عليه السلام فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومن ردّ عليّ هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق وهو خير الحاكمين**»[4].

---

(١) بحار الأنوار / ج ٤٤ / ص ١٩.

(٢) المصدر تفسه / ج ٤٤ / ص٢.

(٣) المصدر نفسه / ج ٤٤ / ص٢١٧.

(٤) المصدر نفسه / ج ٤٤ / ص ٣٢٩.

بسم الله الرحمن الرحيم

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ، بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَ يَبْغِيَانِ ، فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ، يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ)

صدق الله العلي العظيم
سورة الرحمن: الآيات: ١٩-٢٢

توسعة حريم الزّيارة زماناً ومكاناً

سماحة الشيخ محمد السند

توطئة

قد تكرّر إبداء التّساؤل عن وجه توسعة زيارة الأربعين قبل يوم الأربعين من أيّام صفر، ولاسيما منذ بداية اليوم الأوّل منه، مع أنّ الزيارة في ظاهر الرّوايات والأدلّة واردة في خصوص يوم الأربعين، وكذلك الحال بالنسبة إلى الزيارة الشّعبانية؛ فإنّ هناك الجمّ الغفير من المؤمنين يأتون بها قبل النصف من شعبان ـ بسبب كثرة الزّحام أو الانشغالات ـ ولكن بعنوان زيارة النّصف من شعبان، فكيف يُوجّه ذلك؟

وكذلك يُطرح تساؤل آخر عن وجه توسعة هذه الزّيارات المليونيّة من جهة المكان؛ فإنّ الحجم الكبير والواسع من الزّوار يصل في زيارته إلى مشارف وضواحي كربلاء المقدّسة؛ فيؤدّي مراسم الزيارة عند تلك المشارف ويرجع إلى بلده؛ لشدّة الزّحام أو لخوف الازدحام، وقد يقترب بعضهم من الأحياء القريبة من الحرم الشّريف، فيزور حيث يشاهد القبّة الشّريفة ويرجع، ويكتفي البعض الآخر بالزيارة من الشّوارع المحيطة بالحرم الشّريف ويعود إلى أهله، فهل تتّسع الزيارة مكاناً إلى هذه المسافات الجغرافية، بحيث يصدق على هذا الزائر بأنّه قد زار سيّد الشّهداء عليه السلام في الأربعين، أو في النّصف من شعبان، أو أنّه لا بُدّ من دخوله الحرم الشّريف؟

ولمعرفة حقيقة الحال والحكم في مورد السّؤال لا بُدّ من تقديم مقدّمة:

قد ثبت لجملة من المناسبات الشّرعية موسم زماني غير مضيّق بخصوص يوم المناسبة الشّرعيّة والميقات الزّماني لها، ويُعبّر عن التّوسعة في توقيت المناسبة الشّرعيّة بالحريم الزّماني، سواء السّابق على توقيته الشّرعي بقليل ـ بحسب الحاجة ـ أو المتأخّر عنه، بل قد تقرّر ذلك نصّاً وفتوى في الميقات المكاني والبقاع المكانية الشّريفة؛ حيث رُسم لها ما هو أوسع من المحدود المكاني الخاص بها، ولنأخذ في تعداد أمثلة التّوسعة الزّمانيّة كحريم للمناسبة الزمانية، ثمّ تقرير الضّابطة الكلّية في التّوسعة الزّمانيّة الدّينيّة كحريم لميقات المناسبة الزّمانيّة.

وإليك جملة من الوجوه التي يمكن أن يُستدلّ بها في المقام:

الوجه الأوّل: الاستقراء المتصيَّد من الأبواب الفقهيّة للتوسعة الزَّمانيّة

يندرج تحت هذا الوجه جملة من الأقسام والأمثلة لتوسعة الشّريعة للميقات الزّماني في المراسيم الشّرعية وهي متوزعة على مختلف الأبواب الفقهية، نشير فيما يأتي لأهمّها:

القسم الأوّل:

موارد التّوسعة في الحريم الزّماني

تُلاحظ أمثلة هذا القسم في الأبواب الفقهية المختلفة، نقتصر على ذكر بعضها:

الباب الأوّل: باب الحجّ

وفي هذا الباب أمثلة كثيرة، نذكر أهمّها:

- المثال الأوّل: الوقوف بعرفة

فأنّه قد توسّع الشّارع الأقدس في الوقوف بعرفة إلى الوقوف ليلاً لمن لم يدرك نهار عرفة، بل أفتى جملة من الفقهاء بإجزاء الوقوف الظاهري مع العامّة ـ مع أنّه قد يكون في الواقع يوم الثامن من ذي الحجّة ـ من باب التوسعة الزّمانيّة، ومن ثَمّ اكتفى جملة من الفقهاء بالوقوف مع العامّة حتى مع القطع بالخلاف.

واستدلّوا على ذلك بوجوه، منها: رواية عن الإمام الصادق عليه السلام: «**الفطر يوم يُفطر الناس، والأضحى يوم يضحّي الناس**»[1]. وغيرها من الرّوايات، وقرّبوا الدلالة على ذلك بأنّ العبادة الشّعائرية والشّعيرية قِوامُها بالعمل الجماعي، كشعائر وشعار وتظاهر معلن؛ فلذا يتّسع حريمها بحسب سعة ذلك الإظهار والإبراز.

(١) وسائل الشيعة: ج١٠، ص١٣٣.

- المثال الثّاني: الوقوف بمزدلفة

حيث إنّ الشارع وسّع الوقوف ليلاً بمزدلفة لَمن اضطرّ إلى ذلك ولم يقدر على الوقوف بين الطّلوعين، متقدّماً على الميقات الزّماني، كما وسّع الوقوف متأخراً إلى زوال يوم العيد لمن فاته الوقوف بين الطّلوعين.

-المثال الثّالث: الإحرام لعمرة رجب

ورد أنّ مَن أراد أن يُدرِك عمرة رجب يمكنه أن يُنشئ الإحرام في أواخر رجب قبل وصوله إلى الميقات، وإن أتى بالأعمال في شعبان[1]، وبذلك يُدرِك فضل عمرة رجب، وفي ذلك توسعة من ناحية الميقات المكاني والميقات الزّماني[2].

-المثال الرّابع: أعمال مِنى يوم العيد

فقد وسّع الشّارع الإتيان بأعمال منى قبل يومها، للضعاف والعجزة من الحجيج وخوف الضّغط، كما وسّع لمن لم يُدركها إلى أيّام التّشريق الأربعة لاحقاً[3].

-المثال الخامس: أعمال مكّة

فإنّ الشّارع الأقدس قد سوّغ المجيء بأعمال مكّة قبل يوم التاسع ولو بأيّام، وذلك لذوي الأعذار، كما سوّغ لمن يقدر عليها يوم العيد أن يأتي بها أيام التّشريق، بل إلى آخر ذي الحجّة[4].

الباب الثّاني: باب الصّلاة

وفي هذا الباب أيضاً أمثلة كثيرة، نذكر أهمّها:

-المثال الأوّل: صلاة الليل

فإنّه قد سوّغ الشّارع الإتيان بصلاة الليل قبل منتصف الليل، وجعل ذلك مجزياً عن المجيء بها في وقتها لذوي

---

(١) كما في صحيحة معاوية بن عمار: «قال: سمعت أبا عبد الله ﷺ يقول: ليس ينبغي أن يحُرم دون الوقت الذي وقّته رسول الله ﷺ، إلاّ أن يخاف فوت الشهر في العمرة». الحرّ العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة: ج١١، ص٣٢٦، أبواب المواقيت، باب١٣، ح١.
وقال: «سألت أبا إبراهيم ﷺ عن الرجل يجيء معتمراً ينوي عمرة رجب، فيدخل عليه الهلال قبل أن يبلغ العقيق، فيُحرم قبل الوقت، ويجعلها لرجب، أم يؤخّر الإحرام إلى العقيق ويجعلها لشعبان؟ قال: يُحرم قبل الوقت لرجب، فإنّ لرجب فضلاً وهو الذي نوى». المصدر السابق.

(٢) أُنظر: الطوسي، محمد بن الحسن، تهذيب الأحكام: ج٥، ص٥٣. وأُنظر: الحرّ العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة: ج١١، ص٣٢٧.

(٣) روى سعد بن عبد الله، عن أحمد بن محمد، عن أحمد بن محمد بن أبي نصر، عن بعض أصحابه، قال: «قلت لأبي الحسن ﷺ: يتعجل الرجل قبل التروية بيوم أو يومين من أجل الزحام وضغاط الناس؟ فقال: لا بأس». الطوسي، محمد بن الحسن، تهذيب الأحكام: ج٥، ص١٧٦، ح٥٩٠.

(٤) بالإسناد عن يونس، عن إسماعيل بن عبد الخالق، قال: «سمعت أبا عبد الله ﷺ يقول: لا بأس أن يُعجّل الشيخ الكبير والمريض والمرأة والمعلول طواف الحج قبل أن يخرج إلى منى». الحرّ العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة: ج١١، ص٢٨١، ح٦.

الأعذار[1].

-المثال الثّاني: نوافل الظّهرين

حيث سوّغ الشارع الإتيان بنوافل الظهرين قُبيل الزّوال، لمَن يعجز عن الإتيان بها في وقتها[2].

-المثال الثّالث: نافلة الفجر

فمع أنّ الوقت المقرّر لنافلة الفجر هو بعد الفجر الكاذب، إلّا أنّه وسّع الشّارع المجيء بها بعد صلاة الليل[3].

-المثال الرّابع: خطبتا صلاة الجمعة

فإنّ خطبتي صلاة الجمعة شّرعتا كبدل عن ركعتين بعد الزوال، إلّا أنّ الشارع سوّغ المجيء بهما قبل الزّوال[4].

-المثال الخامس: إدراك الوقت بركعة

قد ورد في الرّوايات عن أهل البيت عليهم السلام أنّ مَن أدرك ركعة من الوقت ـ أو من آخر الوقت ـ فقد أدرك الوقت، كما ورد إجزاء مَن صلّى قبل الوقت فأدرك الوقت ودخل عليه قبل أن يُسلّم، لمن صلى قبل الوقت غفلة[5].

الباب الثّالث: موارد متفرِّقة

ولهذا الباب أمثلته الكثيرة، إليك بعضها:

- المثال الأوّل: إنّ يوم عاشوراء يوم عظيم؛ لذا جعل أهل البيت عليهم السلام له حريماً زمانياً متقدِّماً عليه بتسعة أيّام، فقد ورد عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، أنّ حزنه عليه السلام كان يبدأ من أوّل يوم من محرَّم، فلا يُرى باسماً قط، فإذا كان

---

(١) محمد بن الحسن، عن علي بن مهزيار، عن الحسن، عن حماد بن عيسى، عن شعيب، عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إذا خشيت ألاّ تقوم آخر الليل أو كانت بك علة أو أصابك برد فصلّ صلاتك، وأوتر من أول الليل». الحرّ العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة: ج٤، ص٢٥٣، ح١٢.

(٢) محمد بن الحسن، عن علي بن الحكم، عن سيف، عن عبد الأعلى، قال: «سألت أبا عبد الله عليه السلام عن نافلة النهار؟ قال: ست عشرة ركعة متى ما نشطت، إن علي بن الحسين عليه السلام كانت له ساعات من النهار يُصلي فيها، فإذا شغله ضيعة أو سلطان قضاها، إنما النافلة مثل الهدية متى ما أتي بها قبلت». المصدر السابق: ج٤، ص٢٣٣، ح٧.

(٣) محمد بن الحسن، بإسناده عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن أحمد بن محمد ابن أبي نصر، قال: «سألت الرضا عليه السلام عن ركعتي الفجر. فقال: احشوا بهما صلاة الليل». المصدر السابق: ص٢٦٣، ح١.

(٤) الحسين بن سعيد، عن النضر، عن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله يُصلي الجمعة حين تزول الشمس قدر شراك، ويخطب في الظل الأول، فيقول جبرئيل عليه السلام: يا محمد، قد زالت الشمس؛ فانزل فصل. وإنما جُعلت الجمعة ركعتين من أجل الخطبتين، فهي صلاة حتى ينزل الإمام». الطوسي، محمد بن الحسن، تهذيب الأحكام: ج٣، ص١٢.

(٥) سعد بن عبد الله، عن أحمد بن الحسن بن علي بن فضال، عن عمرو بن سعيد، عن مصدق بن صدقة، عن عمار بن موسى الساباطي، عن أبي عبد الله عليه السلام: «في الرجل إذا غلبته عينه أو عاقه أمر أن يصلي المكتوبة من الفجر ما بين أن يطلع الفجر إلى أن تطلع الشمس، وذلك في المكتوبة خاصة، فإن صلى ركعة من الغداة ثم طلعت الشمس فليُتمّ، وقد جازت صلاته». الطوسي، محمد بن الحسن، تهذيب الأحكام: ج٢، ص٣٨، ح١٢٠.

يوم العاشر كان يوم مصيبته عليه السلام، فقد روى الصدوق في أماليه بسنده، عن إبراهيم بن أبي محمود، عن الرضا عليه السلام أنّه قال: «**كان أبي إذا دخل شهر المحرّم لا يُرى ضاحكاً، وكانت الكآبة تغلب عليه حتى يمضي منه عشرة أيّام، فإذا كان يوم العاشر كان ذلك اليوم يوم مصيبته وحزنه وبكائه، ويقول: هو اليوم الذي قُتل فيه الحسين -صلوات الله عليه-**»[1].

ورُوي في البحار عن بعض مؤلّفات المتأخّرين، أنّه قال: «**حكى دعبل الخزاعي قال: دخلت على سيّدي ومولاي علي بن موسى الرضا عليه السلام في مثل هذه الأيّام، فرأيته جالساً جلسة الحزين الكئيب، وأصحابه من حوله، فلمّا رآني مُقبلاً قال لي: مرحباً بك يا دعبل، مرحباً بناصرنا بيده ولسانه. ثمّ إنّه وسّع لي في مجلسه، وأجلسني إلى جانبه، ثمّ قال لي: يا دعبل، أُحبُّ أن تنشدني شعراً؛ فإنّ هذه الأيّام أيّام حزنٍ كانت علينا أهل البيت، وأيّام سرورٍ كانت على أعدائنا، خصوصاً بني أُميّة**»[2].

وفي هذه الرواية ـ وإن كانت مرسلة ـ تصريح بأنَّ المناسبة وإن كانت يوماً واحداً، إلّا أنّ ما يحتفّ بها من أيّام ـ ما قبلها وما بعدها ـ تلك الأيّام تنتسب إلى تلك المناسبة وذلك اليوم بحسب الأعراف المختلفة، بل هذه الرّوايات نصّ بالخصوص على ما نحن فيه صغرويّاً، وأنّ هذه التّوسعة في الارتكاز العرفي قبل أن تكون تناسباً شرعيّاً، وهذا وجهٌ مستقلّ برأسه، وهو استقراء الاستعمال العرفي لعنوان الأيّام المضافة إلى مناسبةٍ ما، وكانوا يعدّون هذه الأيّام أيّام الحزن.

- المثال الثّاني: في ليلة القدر، فإنّ يومها بمنزلتها[3]، بل ورد أنّ ليلة التّاسع عشر والواحد والعشرين حريمٌ زماني متقدّم لليلة الثالث والعشرين[4]، بل ورد أنّ شهر رمضان ـ من أوّله ـ حريمٌ لليلة القدر[5]، بل ورد أيضاً أنّ حريم ليلة القدر يبدأ من ليلة النّصف من شعبان[6]، كما أنّ ليلة القدر حريمٌ لولاية آل محمد عليهم السلام، باعتبارها ظرفاً زمانيّاً شريفاً لتنزّل روح القدس عليهم عليهم السلام.

-المثال الثّالث: في غسل يوم الجمعة، فإنّ الشّارع المقدّس سوّغ المجيء به في يوم الخميس، لـمَن يعجز عن الماء يوم الجمعة أو يخاف العوز[7].

---

(١) الصدوق، محمد بن علي، الأمالي: ص١٩١.

(٢) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٥، ص٢٥٧.

(٣) أُنظر: الصدوق، محمد بن علي، الأمالي: ص٧٥١.

(٤) أُنظر: الحويزي، عبد علي بن جمعة، تفسير نور الثقلين: ج٥، ص٦٢٥

(٥) أُنظر: الحرّ العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة: ج١٠، ص٣٠٣. أُنظر: العلّامة الحلي، الحسن بن يوسف، تحرير الأحكام: ج١، ص٥١٦.

(٦) أُنظر: البحراني، يوسف، الحدائق الناضرة: ج١٣، ص٤٤٨. الآلوسي، محمود، تفسير روح المعاني: ج٢٥، ص١١٣.

(٧) أُنظر: الحرّ العاملي، محد بن الحسن، وسائل الشيعة: ج٣، ص٣١٩.

-المثال الرّابع: قد جعل الشّارع حريماً لليلة الجمعة ـ يمتدّ قبلها ـ من بعد زوال ظهر يوم الخميس، كما جعل لأعمال يوم الجمعة حريماً متأخّراً وهو ليلة السبت، بل يظهر من الشّارع أنّ كلّ يوم ذي فضيلة وحرمة تبدأ حرمته قبله؛ فتكون الليلة السّابقة حريماً له، كليلة عرفة، وليالي العيدين، وليلة الجمعة، وليلة النّصف من شعبان ـ كما تقدّم ـ وليلة المبعث الشّريف مع أنّ المبعث الشّريف في فجر يومها، وغيرها من الليالي التي شُرِّفت كحريم سابق لأيّامها الشّريفة[١].

-المثال الخامس: ورد في فضائل يوم الغدير أنّه مستمرّ إلى ثلاثة أيّام[٢]، وكذلك ما ورد في اليوم التاسع من ربيع الأوّل[٣].

القسم الثّاني:

موارد التّوسعة في الحريم المكاني

لقد مرّت بعض الموارد المرتبطة بتوسعة الحريم المكاني كما أشرنا، ونؤشر فيما يأتي جانباً آخر من مواردها:

أوّلاً: إنّ الكعبة ـ كأوّل بيتٍ وُضع للناس ـ لها عظمة وحرمة وشرافة؛ لذا جُعل المسجد الحرام حريماً لها، وجُعلت مكّة المكرمة حريماً للمسجد الحرام، وجُعل الحرم المكّي حريماً لمكّة المكرّمة، وجُعلت المواقيت حريماً للحرم المكّي، وقد وردت النّصوص بكلّ ذلك[٤].

ثانياً: في مرقد الرّسول صلى الله عليه وآله، فقد ذكر السمهودي ـ في مقدّمة كتابه خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى ـ إجماع أهل الجمهور على أنّ قبره صلى الله عليه وآله أعظم حرمةً من مكّة المكرّمة[٥]، بل نقل عنهم أنّه أعظم من العرش[٦]؛ لذا جُعلت الروضة المباركة بين القبر والمنبر حريماً للقبر الشريف، وجُعل المسجد النبوي حريماً للروضة المباركة، وجُعلت المدينة المنوّرة حريمًا للمسجد النبوي، وجُعل الحرم المدني بين الجبلين حريمًا للمدينة المنوّرة[٧]. وتُبين بعض الروايات أنّ ما بين الحرم المكّي والحرم المدني ملحقٌ في بعض الآثار بهما، كما في الرواية: «**مَن مات بين الحرمين، بعثه الله في الآمنين يوم القيامة**»[٨]. **وكذلك في الرواية: «مَن مات بين الحرمين لم يُنشر له ديوان»**[٩].

(١) أُنظر: المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٨٦، ص٣٦١.

(٢) أُنظر: ابن طاووس، علي بن موسى، إقبال الأعمال: ج٢، ص٢٦١.

(٣) أُنظر: المختصر: ص٦٥.

(٤) قال في الوسائل: «وفي (العلل) عن أبيه، عن سعد، عن محمد بن عيسى بن عبيد، عن العباس بن معروف، عن بعض أصحابنا، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: حرم المسجد لعلة الكعبة، وحرم الحرم لعلّة المسجد، ووجب الإحرام لعلة الحرم». الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة: ج١٢، ص٣١٤.

(٥) السمهودي، علي بن عبد الله، خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى: ج١، ص٦٣: «نقل عياض وقبله أبو الوليد الناجي وغيرهما الإجماع على تفضيل ما ضم الأعضاء الشريفة حتى على الكعبة، كما قاله ابن عساكر في تحفته وغيره، بل نقل التاج السبكي عن ابن عقيل الحنبلي أنها أفضل من العرش».

(٦) أُنظر: المصدر السابق.

(٧) أُنظر: المصدر السابق: ص٦٤-٦٥.

(٨) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٧، ص٣٤١.

(٩) الصدوق، محمد بن علي، مَن لا يحضره الفقيه: ج٢، ص٢٢٩.

ثالثاً: في كلّ مراقد أهل البيت ﷺ، فإنّ قبورهم بيوتٌ أذن الله أن تُرفع ويُذكر فيها اسمه، فلها الحرمة والعظمة بنصّ القرآن الكريم والسنّة الشريفة، وقد ذكر كاشف الغطاء -قدس سره- في كتابه ـ عند قراءة الفاتحة بعد الطعام ورجحان الشَّعائر الحسينيّة ـ: «**أنّ مراقدهم عليهم السلام مشاعر شعّرها الله (عزّ وجلّ)، ويتبعها في الحرمة ما حولها من البقاع الشَّريفة؛ لذا قد ورد أنّ الكوفة حَرُمت لأجل أمير المؤمنين** عليه السلام»[1]. ومن ثَمَّ ذهب الشّيخ الطوسي في النّهاية، إلى أنّ حكم التّخيير في الصلاة بين القصر والتّمام للمسافر في مسجد الكوفة بتبع التّخيير في مرقد أمير المؤمنين عليه السلام[2]، ويُؤيّد ذلك ما رواه محمد بن الحسن، عن أبيه، عن أحمد بن داود، عن أحمد بن جعفر المؤدب، عن يعقوب بن يزيد، عن الحسين بن بشار الواسطي، قال: «**سألت أبا الحسن الرضا** عليه السلام: **ما لمَن زار قبر أبيك؟ قال:** زره. قلت: فأيُّ شيءٍ فيه من الفضل؟ قال: فيه من الفضل كفضل مَن زار قبر والده ـ يعني رسول الله صلى الله عليه وآله ـ. فقلت: فإنّي خفت فلم يمكنني أن أدخل داخلًا. قال: سلّم من وراء الحاير»[3]. وفيه دلالة على التّوسعة المكانيّة.

رابعاً: ورد في حرم سيّد الشّهداء عليه السلام أنّ الحيْر حريمٌ للقبر الشريف، وحرّمت مدينة كربلاء كحريم للقبر الشريف[4]، بل ورد أنّ لمرقد الحسين عليه السلام حريمًا بمقدار فرسخ من كلّ جانب من القبر الشريف[5]، وهذا يُطابق ما ورد مستفيضاً من استجابة الدعاء تحت قبّته[6]؛ فإنّ المراد من ذلك ليس القبّة الذّهبيّة فوق المرقد الشرّيف، بل قبّة السماء، فالواقف عند القبر الشّريف يكون امتداد القبّة بمقدار امتداد نظره في الأُفق، حيث يتماسّ خطّ السّماء بالأرض، وهذا المقدار يساوي الفرسخ تقريباً، وهو حوالي خمسة كيلومترات ونصف؛ ومن ثَمَّ ذهب جملةٌ من الفقهاء المتقدمين إلى التّخيير بين القصر والتّمام في تمام مدينة كربلاء[7].

ومن الرّوايات الواردة في هذا الشّأن ما يلي:

١ـ مرفوعة منصور بن عباس، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «**حرم الحسين** عليه السلام **خمسُ فراسخ من أربع جوانبه**»[8]. أي: تكون حوالي شعاع سبعة وعشرين كليو متراً من كلّ جانب من جوانب القبر، ومثلها مرسلة الصدوق في الفقيه[9].

٢ـ ما رواه الشّيخ الطوسي بسنده، عن محمد بن إسماعيل البصري، عمَّن رواه، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «**حرم**

(١) كاشف الغطاء، كشف الغطاء: ص٥٤.

(٢) أُنظر: الطوسي، محمد بن الحسن، النهاية في مجرد الفقه والفتاوى: ص٢٨٥.

(٣) الحرّ العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة: ج١٤، ص٥٤٦.

(٤) أُنظر: ابن قولويه، جعفر بن محمد، كامل الزيارات: ص٢٦٨. الحرّ العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة: ج١٤، ص٥١٠.

(٥) أُنظر: ابن قولويه، جعفر بن محمد، كامل الزيارات: ص٤٥٦. الطوسي، محمد بن الحسن، تهذيب الأحكام: ج٦، ص٧١. الطوسي، محمد بن الحسن، مصباح المتهجّد: ص٦٧٤ ـ ٦٧٥. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٩٨، ص١١٤.

(٦) أُنظر: الطوسي، محمد بن الحسن، الأمالي: ص٣١٧، المجلس١١، ح٩١. الحرّ العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة: ج١٤، ص٥٣٧، ح١.

(٧) قال المحقق البحراني: «في الحائر المقدس (على مشرفه أفضل التحية والسلام) وقد اختُلف أيضاً فيه كلام أصحابنا (رضوان الله عليهم)، وقد تقدم النقل عن المحقق في كتابه المشار إليه آنفا أنه جعل البلد محلًا للتمام، والمشهور بين أصحابنا الاختصاص بالحائر». المحقق البحراني، يوسف، الحدائق الناضرة: ج١١، ص٤٦٢.

(٨) الحرّ العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة: ج١٤، ص٥١٠.

(٩) أُنظر: الصدوق، محمد بن علي، مَن لا يحضره الفقيه: ج٢، ص٥٧٩.

الحسين عليه السلام فرسخ في فرسخ من أربع جوانب القبر»[1].

٣ـ ما رواه الشّيخ الطوسي بسنده، عن محمد بن أحمد بن داود بن الحسن بن محمد، عن حميد بن زياد، عن بنان بن محمد، عن أبي الطاهر ـ يعني الورّاق ـ عن الحجّال، عن غير واحد من أصحابنا، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «**التّربة من قبر الحسين بن علي عليه السلام عشرة أميال**»[2].

٤ـ ما رواه في كامل الزيارات بسنده، عن محمد بن جعفر، عن محمد بن الحسين، عن رجلٍ، عن أبي الصباح الكناني، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «**طيُن قبر الحسين عليه السلام فيه شفاء، وإن أُخذ على رأس ميل**»[3].

٥ـ ما رواه في التهذيب بسنده، عن سليمان بن عمر السراج، عن بعض أصحابه، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «**يُؤخذ طيُن قبر الحسين عليه السلام من عند القبر على سبعين ذراعاً**»[4]. ورواه ابن قولويه في المزار، إلاّ أنّه قال: «على سبعين باعاً في سبعين باعاً»[5].

٦ـ ما رواه بسنده، عن أبي القاسم جعفر بن محمد، عن محمد بن جعفر الرزاز، عن محمد بن الحسين بن أبي الخطاب، عن الحسن بن محبوب، عن إسحاق بن عمار، قال: «**سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إنّ لموضع قبر الحسين عليه السلام حرمة معروفة، مَن عرفها واستجار بها أُجير. قلت: فصف لي موضعها. قال: امسح من موضع قبره اليوم خمسة وعشرين ذراعاً من ناحية رجليه، وخمسة وعشرين ذراعاً من ناحية رأسه، وموضع قبره من يوم دفنه روضةٌ من رياض الجنّة، ومنه معراج يُعرج فيه بأعمال زواره إلى السماء، وما من ملكٍ في السماء ولا في الأرض إلّا وهم يسألون الله أن يأذن لهم في زيارة قبر الحسين عليه السلام، ففوجٌ ينزل وفوج يعرج**»[6].

ورواه ابن قولويه والكليني أيضاً[7].

٧ـ ما في معتبرة عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «**سمعته يقول: قبر الحسين عليه السلام عشرون ذراعاً مكسّراً روضةٌ من رياض الجنّة**»[8].

وهذا التفاوت في تحديد المكان مضافاً إلى إمكان حمله على تفاوت الفضل، فإنّه يُشير أيضاً إلى التّوسيع في حريم وحرمة المكان والميقات المكاني.

(١) الحرّ العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة: ج١٤، ص٥١٠.

(٢) الطوسي، محمد بن الحسن، تهذيب الأحكام: ج٦، ص٧٢.

(٣) ابن قولويه، جعفر بن محمد، كامل الزيارات: ص٤٦٢.

(٤) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج٤، ص٥٨٨، ح٥. الطوسي، محمد بن الحسن، تهذيب الأحكام: ج٦، ص٧٤، ح١٤٤.

(٥) الباع: مسافة ما بين الكفين إن أبسطهما، وهو قدر مدّ اليدين وما بينهما من البدن. أُنظر: ابن منظور، جمال الدين، لسان العرب: ج٨، ص٢١.

(٦) الحرّ العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة: ج١٤، ص٥١١، ح٤.

(٧) أُنظر: ابن قولويه، جعفر بن محمد، كامل الزيارات: ص٤٥٧. وأيضاً: الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج٤، ص٥٨٨، ح٦.

(٨) الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة: ج١٤، ص٥١٢، ح٦. ابن قولويه، جعفر بن محمد، كامل الزيارات: ص٢٢٥.

خامساً: ورد أنّ الله تعالى يدفع البلاء عن مدينة بغداد، بقبر الإمام موسى بن جعفر عليه السلام[1]، وورد أيضاً حرمة مدينة سامراء بقبر العسكريين -عليهما السلام-[2]، وأنّ مدينة طوس حرمٌ لمرقد الرضا عليه السلام[3]، بل ورد أنّ ما بين الجبلين المحيطين بطوس، جُعل حريماً لمرقد الرضا عليه السلام[4].

وذهب السيد المرتضى، وابن الجنيد، وبعض المتقدِّمين إلى التّخيير في الصلاة بين القصر والتّمام للمسافر في كلّ المراقد المطهرة لأهل البيت عليهم السلام[5].

سادساً: ما ورد من تنزيل زيارة المعصومين عليهم السلام من على سطح المنزل بمنزلة الزيارة عن قرب، لـمَن عجز عن السّفر لمانع[6].

سابعاً: ما ورد في غسل الإحرام في مسجد الشّجرة، فقد سوّغ الشّارع الغسل في المدينة المنورة لمَن يعجز عنه في مسجد الشّجرة[7].

ثامناً: ورد أنّه إذا ضاقت عرفة بالحجيج، يسوغ لهم أن يصعدوا إلى الجبل[8]، وكذلك في منى إلى وادي محسر[9].

تاسعاً: ما ورد في باب عدم وجوب استلام الحجر وتقبيله، وعدم تأكّد استحباب المزاحمة عليه، وإجزاء الإشارة والإيماء، وتُشير إلى ذلك روايات:

منها: ما رواه الكليني، عن عدّة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد، عن الحسين بن سعيد، عن صفوان بن يحيى، عن سيف التمّار، قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أتيت الحجر الأسود فوجدت عليه زحاماً، فلم ألقَ إلّا رجلاً من أصحابنا، فسألته، فقال: لا بُدَّ من استلامه. فقال: إن وجدته خالياً وإلّا فسلِّم (فاستلم) من بعيد»[10].

ومنها: ما في الكافي أيضاً، عنهم، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن أحمد بن محمد ابن أبي نصر، عن محمد بن عبيد (عبد) الله، قال: «سُئل الرضا عليه السلام عن الحجر الأسود، وهل يُقاتل عليه الناس إذا كثروا؟ قال: إذا كان كذلك فأومِ إليه إيماءً بيدك»[11].

---

(١) أُنظر: المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٥٧، ص٢٢٠.

(٢) أُنظر: المصدر السابق: ج٩٩، ص٥٩.

(٣) أُنظر: الطوسي، محمد بن الحسن: تهذيب الأحكام: ج٦، ص١٠٨.

(٤) أُنظر: المصدر السابق: ج٦، ص١٠٩.

(٥) أُنظر: السيد المرتضى، رسائل الشريف المرتضى: ج٣، ص٤٧. وقال المحقق البحراني: «وأما المرتضى وابن الجنيد، فظاهر كلاميهما المنع من التقصير في هذه المواضع الأربعة، وألحقا بها في ذلك أيضاً المشاهد المشرفة والضرائح المنورة». البحراني، يوسف، الحدائق الناضرة: ج١١، ص٤٣٨.

(٦) أُنظر: ابن قولويه، جعفر بن محمد، كامل الزيارات: ص٤٨٣ ـ ٤٨٥.

(٧) ما رواه الحلبي: «سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الذي يغتسل في المدينة للإحرام، أيُجزيه عن الغسل في الميقات؟ قال عليه السلام: نعم». الأحسائي، ابن أبي جمهور، عوالي اللئالي: ج٣، ص١٥٨، ح٢٨.

(٨) أُنظر: الحرّ العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة: ج١٣، ص٥٣٥، باب١١، ح٣.

(٩) أُنظر: المصدر السابق: ح٤.

(١٠) المصدر السابق: ج١٣، ص٣٢٦، باب١٦، ح٤.

(١١) المصدر السابق: ح٥.

ومنها: ما رواه محمد بن يعقوب، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن أبي أيوب الخزاز، عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «**ليس على النساء جهر بالتلبية، ولا استلام الحجر، ولا دخول البيت، ولا سعي بين الصفا والمروة، يعني الهرولة**»[1]. أي: يكفيهن الإيماء من بُعد للحجر الأسود.

الوجه الثاني: السيرة العقلائية الممضاة

من الأُمور الثّابتة والمتقرّرة في السيرة العقلائية هو أنّ هناك حريماً في البقاع المملوكة، فللدار حريم، وللبئر حريم، وللطريق حريم من جانبيه، وللمدينة حريم من ضواحيها. وضابطة مقدار الحريم: أن يكون بحسب الحاجة التابعة له، فليس يتحدّد بقدر ـ يقف عليه ـ ثابت لا يزيد ولا ينقص، بل هو يتّسع وينقص بمقدار ما تستدعيه الحاجة.

وهذه السيرة العقلائية ليست خاصّة بتوسعة الحريم المكاني، بل هي جاريةٌ أيضاً بتوسعة الحريم الزّماني، فنراهم يقولون: (عام الفيل) و(عام الحزن) و(عام الفتح). مع أنّ الحدث لمناسبةٍ حدثت في أيام قلائل، ولم تمتدّ لكلّ العامّ، كما في وفاة أبي طالب وخديجة -عليهما السلام- في عام الحزن.

وكذلك يُقال: إنّ النبي صلى الله عليه وآله وُلد في شهر ربيع الأوّل، أو إنّ أمير المؤمنين وُلِد في شهر رجب، مع أنّ الولادة حدثت في ساعة واحدة، كما روى الصّفّار بسنده، عن حفص الأبيض التمّار، قال: «دخلت على أبي عبد الله عليه السلام أيام صلب المعلّى بن الخنيس»[2]، والحال أنّ المعلّى صُلب في يومٍ واحد. وروى الحميري، عن جعفر، عن أبيه -عليهما السلام-، «**أنّ علياً عليه السلام كان يأمر مناديه بالكوفة أيام عيد الأضحى**»[3]، والحال أنّ الأضحى يومٌ واحد.

وفي روايةٍ أُخرى عن علي بن رافع: «... وأنا أحب أن تُعيرنيه أتجمّل به في أيام عيد الأضحى»[4]. مع أنّ عيد الأضحى يوم واحد، ولكن عُبّر عنه بأيام، وهذا يدلّ على أنّ الشّارع جعل لتلك الأزمنة حريماً زمانيّاً، عبّر عنها بالأيام، كما هو كذلك عند العقلاء.

وهذا ممّا يبرز لنا وجه التّوسعة عند العقلاء؛ فهو لأجل طبيعة التّوسعة في الظرفية والإسناد الزماني، وكذلك الحال في التّوسع في الظرف المكاني، فيُقال: إنّ النبي صلى الله عليه وآله وُلد في مكّة، وكلّ ذلك نوعٌ من التقريب في التّحقيق، والتّحقيق في التقريب، من جهة تحقّق الإسناد وتوسّع الظرف، وكأنّ هذا هو المنشأ للارتكاز العقلائي.

وهذه السيرة العقلائية هي سيرة متشرعيّة أيضاً، كما اتّضح من الأمثلة أعلاه.

---

(١) المصدر السابق: ج١٣، ص٣٢٩، أبواب الطواف، الباب ١٨، ح١.

(٢) الصفار، محمد بن الحسن، بصائر الدرجات: ص٤٢٣.

(٣) الحميري، عبد الله بن جعفر، قرب الإسناد: ص١٠٥، ح٣٥٨.

(٤) الطوسي، محمد بن الحسن، تهذيب الأحكام: ج١٠، ص١٥١.

الوجه الثّالث: قوله تعالى: (وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)[1].

حيث يمكن أن يُستنبط منها عرفاً ـ سواء بحسب الارتكاز العقلائي أو المتشرّعي ـ أنّ التذكير الوارد في الآية المباركة، ليس لخصوص اليوم الذي فيه المشهد الإلهي العظيم، بل يشمل الأيام المحتفّة به أيضاً؛ فيكون مفاد الآية الكريمة، الاحتفاء والاحتفال بالميقات الزّماني الشعيري، بما يشمل حريم ذلك الميقات الزّماني، من قبل الميقات ومن بعده.

الوجه الرّابع: قاعدة تعدّد مراتب المستحبّات

تُبيّن هذه القاعدة أنّ طبيعة المستحبّات من حيث الأجزاء والشّرائط والقيود ـ والتي منها الزمان والمكان ـ طبيعة ذات مراتب وتعدّد في المطلوب، في أساس جعلها وتشريعها؛ ومن ثَمَّ لا يرتكب الفقهاء عمليّة التقييد بين المطلق والمقيّد، ولا عملية التّخصيص بين العام والخاصّ، بل يحملون المقيّد والخاص على تعدّد مراتب الفضل، وإنّ الشّرائط والقيود هي شرائط وقيود كمال، وليست شرائط وقيود صحّة؛ فمن ثَمَّ يكون مقتضى الظهور الأوّلي في باب المندوبات، هو على تعدّد المطلوب، إلّا أن تقوم قرينة على خلاف ذلك، وهذا يوسّع الزيارة المندوبة زماناً ومكاناً، وإن كان الأقرب فالأقرب زماناً ومكاناً هو الأفضل فالأفضل في مراتب الفضل والكمال.

الوجه الخامس: قاعدة الميسور لا يسقط بالمعسور

هذه القاعدة ـ أو قاعدة ما لا يُدرك كلّه لا يترك جلّه ـ تنطبق على المراتب الزّمانية والمكانية للعمل المقيّد بالزمان والمكان؛ فيكون الأقرب فالأقرب هو الميسور المقدّم.

الحصيلة النهائية لهذه الوجوه:

ويتحصّل من مجموع هذه الوجوه: أنّ كلّ موضع زماني أو مكاني ـ جُعل في الشّريعة ميقاتاً لشعيرة دينيّة ـ له حريم يُحيط به، يسبقه ويتأخّر عنه. وأنّ ما عليه المتشرّعة في زماننا من التّوسّع زماناً ومكاناً بحسب الحاجة ـ في زيارة الأربعين لسيّد الشهداء عليه السلام، أو زيارة عاشوراء، أو زيارة أمير المؤمنين عليه السلام، أو زيارة الجوادين -عليهما السلام-، أو زيارة العسكريين -عليهما السلام-، أو غيرها من مواسم الزيارات العظيمة، التي يكون فيها الزحام شديداً ـ مطابق لقاعدة فقهية شرعية مُتصيّدة من الأبواب الفقهية، ومعتضدة بوجوه أُخرى مفادها: (أنّ لكلّ ميقات زماني أو مكاني لشعير
الميقات).

---

(١) سورة إبراهيم: آية ٥.

سيد الشهداء

زيارة النّساء مواساة للزهراء عليها السلام

فاطمة كامل المسعودي

قال –تعالى–: (**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَولِياءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولئِكَ سَيَرْحَمُهُمْ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**)[1].

«لمّا بيّن –سبحانه– صفات المنافقين وما يفعل بهم كما فعل بأسلافهم بيَّن صفات المؤمنين والعاقبة الحسنة التي تنتظرهم، فإنَّ كل واحد منهم ينصر صاحبه ويؤيده ويعينه؛ لأنَّهم من عنصر واحد وأصل واحد وتجمعهم عقيدة واحدة، وقوله –تعالى–: (سيرحمهم) المراد رحمتهم في الجنة، ولذا دخلت السّين لإفادة كون الرّحمة إنّما تأتي بعد مدّة من استمرارهم في العمل ونجاحهم في الامتحان فلا يتوقّع المؤمن أن تشمل الرّحمة فوراً بمجرّد وقوعه في مشكلة، وإنَّما تؤخّر عنه للامتحان والاختبار»[2].

وقال السّيّد الطّباطبائي: «يدل بذلك على أنّهم مع كثرتهم وتفرّقهم من حيث العدد ومن الذّكورة والأنوثة ذوو كينونة واحدة متفقة لا تشعب فيها ولذلك يتولى بعضهم أمر بعض»[3].

---

(١) سورة التوبة: ٧١.

(٢) تقريب القرآن الى الأذهان/ ج١٠/ ص١١٨.

(٣) الميزان في تفسير القرآن/ ج٩/ ص٣٥٣.

شملت الشّريعة الإسلامية المقدّسة بالخطاب الشّرعي التّكليفي الرجل والمرأة على حدٍّ سواء، ولم تفرّق بينهما إلّا بأمور خاصة تلاءمت وطبيعة الجنسين وتركيبهما الخُلقي، ومن الطبيعي أن تختلف واجبات المرأة عن واجبات الرجل بسبب الاختلاف الموجود في طبيعتهما، كما تختلف واجبات الغضروف عن العظم في بدن الإنسان، حيث استقامة البدن بالعظم، وحركته بالغضروف، ولو أردت أن تساوي بينهما فمعناه أنّك شللت البدن.

ولو أردنا أن تساوي بين المرأة والرجل في كلِّ الأمور، تكون كمن يحمّل أطناناً من الحديد في سيارة صغيرة، ويحمّل الشاحنات الكبيرة بضعة كيلوات من أجهزة دقيقة، فلا السيارة الصغيرة ستكون قادرة على حمل تلك الأطنان، ولا الشّاحنات تستفيد منها بالوجه الصّحيح.

طبيعة الحياة وتكاملها:

ومثل المرأة والرجل في الحياة كمثل العاطفة والعقل، ولا يعني ذلك أنَّ المرأة عاطفة بلا عقل، وأنَّ الرجل عقل بلا عاطفة، بل بمعنى أنَّ المرأة كيان عاطفي تترجّح فيه كفّة تأثير العاطفة، خلافاً للرجل، في الغالب، فهو كيان يتغلّب فيه العقل على العاطفة.

إنَّ الحياة مزيج من العقل والعاطفة، فإنَّ الحياة لا تبنى بالعقل وحده ولا بالعاطفة وحدها، فلو أنَّ الحياة سلب منها العقل عادت فوضى لا نظام فيها.

وعليه فإنَّ المرأة مكمّلة للرجل في الحياة وكذا الرجل، ومن هنا كان الخطاب الشّرعي لكليهما، ومن المعلوم أنَّ الشّريعة المقدّسة تهدف إلى السير بالمكلف نحو الكمال الإنساني فأوجدت لذلك طرقاً كثيرة، ومن تلك الطرق زيارة سيّد الشّهداء عليه السلام فهي الطريق المضمون نحو الكمال المنشود، وقد ورد في الأثر الشّريف عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: «من زار قبر أبي عبد الله عليه السلام بشطّ الفرات كمن زار الله فوق عرشه»[1]، وعن ابن أبي جرير القمي قال سمعت أبا الحسن الرضا عليه السلام يقول لأبي: « **من زار الحسين بن علي عليه السلام عارفاً بحقه كان من محدثي الله فوق عرشه ثم قرأ: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ* فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)** »[2] [3].

ومما لاشك فيه ـ وكما تقدّم الحديث ـ إنَّ زيارة الإمام الحسين عليه السلام مقتضية للكمال الإنساني لذا جاء التأكيد عليها من قبل أئمة الهدى –سلام الله عليهم– والأحاديث في المقام كثيرة بل بعضها أوجب الزيارة على الرجال والنّساء.

---

(١) جامع أحاديث الشيعة/ ج١٥/ ص١٨٠.

(٢) سورة القمر: الآيتين ٥٤و٥٥.

(٣) بحار الأنوار / ج ٩٨ / ص٧٣.

بل إنّ بعض الرّوايات الشّريفة أكّدت على المرأة خاصة كما في رواية زرارة قال عليه السلام: «**يا زرارة ما في الأرض مؤمنة إلاّ وقد وجب عليها أن تسعد فاطمة عليها السلام في زيارة الحسين عليه السلام**» (١).

لذلك سنتناول في هذا البحث أدلة دامغة على أنَّ الاستحباب أو الوجوب في زيارة الإمام الحسين عليه السلام يشمل الرجال والنّساء:

١- قد اتفق علماء الإمامية، على عدم اشتراط وجود المَحْرَم في حجّ المرأة ندباً كان الحج، فضلاً عن ما كان واجباً خلافاً للعامة، حيث اشترطوا ذلك، وقد جاءت الروايات الصحيحة بنفي اشتراط المَحْرَم وقد أورد صاحب الوسائل هذه الروايات مثل:

- صحيحة صفوان الجمّال: وهو فقيهٌ حملدار قال: قلت: لأبي عبدالله عليه السلام قد عرّفتني بعملي، تأتني المرأة أعرفها بإسلامها وحبها إياكم، وولايتها لكم، ليس لها مَحرم، قال: إذا جاءت المرأة المسلمة فإحملها، فإنّ المؤمن من محرم المؤمنة ثم تلى هذه الآية: (**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**)(٢) (٣).

وفي صحيحة معاوية بن عمار قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن المرأة تحج بغير ولي؟ قال: لا بأس، وإن كان لها زوج أو أخ أو ابن أخ فأبوا أن يحجّوا بها وليس لهم سعة فلا ينبغي لها أن تقعد، ولا ينبغي لهم أن يمنعوها...»(٤).

وغيرها من الروايات الكثيرة في هذا الباب، وقد عنون فقهاء علماء الإمامية هذه المسالة في شرائط وجوب الحج، هذا مع أنَّ الاكتظاظ بين الرجال والنساء في الطواف، وفي رمي الجمرات مشهود إلى يومنا هذا، فضلاً عن النوم في عراءِ الصحراء في مزدلفة ليلاً .

٢- قوله -تعالى- في شأن مريم-عليها السلام-: (**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا . فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا. قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا . قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا . قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا . قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا . فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا . فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا . فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ**

---

(١) مستدرك الوسائل/ ج ١٠/ ص ٢٥٩.

(٢) سورة التوبة/ الآية: ٧١.

(٣) من لا يحضره الفقيه/ ج٢/ ص ٢٦٨ .

(٤) وسائل الشيعة/ ج٧/ ص١٥٤.

تَحْتَكِ سَرِيًّا. وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا)[1] ومريم مثلٌ ضربها الله لعفافِ المرأة وعفّتها، ومع ذلك انتبذت وخرجت عن قومها إلى مكان شرقي ثم عاودت الخروج إلى مكان قاصي عن بيت المقدِس، وهو كربلاء لتضع حملها فيه، ثم تحوّلت إلى الكوفة ذات ربوة وقرار معين، ثم عادت إلى محفل قومها وقامت بخطابهم بالإشارة، وكل هذه الخطوات والسّعي خارج خدرها قامت به مريم في عفّةٍ وعفافٍ وحشمةٍ واحتجاب، ممّا يؤصّل إنّ سعي المرأة خارج المنزل بنشاطٍ بهدفٍ راجحٍ مع حفظ ورعاية الحشمة والعفاف ليس منظوراً من آية القرار في البيوت، وكذا قوله -تعالى- في شأنها وهي الصّدّيقة التي أحصنت فرجها **(فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)**[2]، فوجودها في بيت المقدس وركوعها مع الرّاكعين، وخطاب زكريا عليه السلام لها كل ذلك في جوّ العفّة والحشمة، ضربه الله مثلاً للذين آمنوا.

وكذلك السّيّدة خديجة-عليها السلام- الكبرى كانت تدير أكبر تجارة ثراء في قريش، ولاسيما في الجو الجاهلي لقريش، ولكن ذلك لم يتنافَ مع كمال الحشمة والعفاف، فإنّ قريشاً تألّبت على عداوتها لمّا تزوّجت النبي -صلى الله عليه وآله-، ومع ذلك لم يجدوا خرماً في وقارها وجلالها يستطيعوا الطعن عليها .

وكذلك خروج الصّدّيقة الكبرى-عليها السلام- سيدة كل النساء وكل الأمة، متكرراً للخطبةِ في المسجد النبوي، ومواجهة أصحاب السّقيفة، وخروج أمير المؤمنين عليه السلام معها عشرات الليالي على بيوت المهاجرين والأنصار، لإقامة الحجّة عليهم لنصرة الحق، وكذلك خروجها كل أسبوع لزيارة قبر سيّد الشّهداء عمّها الحمزة عليه السلام، وقبور الشهداء، بل فعلها هذا، سُنّةٌ وحُجةٌ تقتدي بها المؤمنات .

وكذلك خروجها بعد انتهاء غزوة أُحد مع عمّتها صفيّة؛ لمداواة جراح النبي صلى الله عليه وآله، وكذلك كانت النّساء يخرجْنَ مع النبي صلى الله عليه وآله في غزواتهِ لمداواة الجرحى .

وكذلك خروج الإمام الحسين عليه السلام مع العقيلة زينب-عليها السلام- وعيالاته، فلم يكن ذلك استثنائياً طارئاً كما قد يتوهّم، بل هو نهجٌ ومنهاجٌ مغايرٌ لخروج التبرّج، بل هو سعيٌ عباديٌ للطاعة يراعى فيه الحشمة والعفة والحجاب.

٣- إنّه قد وردت النّصوص المستفيضةُ الحاثةُ للنساء على زيارة الحسين عليه السلام ففي:

(١) سورة مريم/ الآيات١٦-٢٥.

(٢) سورة آل عمران/ الآية: ٣٧.

صحيحة أبي داود المسترق عن أم سعيد الأحمسية، عن أبي عبد الله عليه السلام قالت: قال لي: « **يا ام سعيدة تزورين قبر الحسين ؟ قالت: قلت نعم، قالت فقال لي: يا أم سعيدة زوريه فإنَّ زيارة الحسين واجبة على الرجال والنساء**» [1] .

وروى ابن قولويه هذا الحديث من طرق عدّة بأسانيد كثيرة .

٤ – وروى الصّدوق في الفقيه: « كانت فاطمة الزّهراء –عليها السلام– تأتي قبور الشهداء كلّ غداة سبت، فتأتي قبر حمزة فتترحّم عليه وتستغفر له »[2] .

وعن عاصم بن عمرو، عن محمود بن لبيد قال: لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله كانت فاطمة –عليها السلام– تأتي قبور الشّهداء وتأتي قبر حمزة وتبكي هناك، فلمّا كان في بعض الأيّام أتيت قبر حمزة فوجدتها –عليها السلام– تبكي هناك فأمهلتها حتّى سكنت، فأتيتها وسلّمت عليها وقلت: يا سيّدة النّسوان قد والله قطّعت نياط قلبي من بكائك، فقالت: يا أبا عمرو لحق لي البكاء، فلقد أصبت بخير الآباء رسول الله صلى الله عليه وآله وا شوقاه إلى رسول الله، ثم أنشأت عليها السلام تقول:

إذا مات يوماً ميت قل ذكره وذكر أبي مذ مات والله أكثر

قلت يا سيّدتي إنّي سائلك عن مسألة تتلجلج في صدري، قالت: سل، قلت: هل نصّ رسول الله قبل وفاته على علي بالإمامة ؟ قالت واعجبا أنسيتم يوم غدير خم؟ قلت قد كان ذلك ولكن أخبريني بما أشير إليك، قالت: اشهد الله تعالى لقد سمعته يقول: علي خير من اخلفه فيكم، وهو الإمام والخليفة بعدي، وسبطاي وتسعة من صلب الحسين أئمة أبرار، لئن اتبعتموهم وجدتموهم هادين مهديين، ولئن خالفتموهم ليكون الاختلاف فيكم إلى يوم القيامة » [3].

فثبت من ذلك أنَّ الاستحباب أو الوجوب كما يشمل الرّجال يشمل النّساء، وأمّا ما تلاقيه المرأة من مشاق وصعوبات ففي مقابل ذلك الثّواب العظيم، وأمّا مزاحمة الرجال فالأمر جار أيضاً في الحج فهل يمكن أيضاً منع المرأة من الحج الواجب أو المستحب؟! بل ينبغي العمل على توجيه الزائرين نحو النّظام وعدم مزاحمة النساء، وقد أشار بعض الروايات إلى ذلك ونصّت أنَّ الرجال تسير في وسط الطريق فيما النساء على جانبيه، ويمكن كذلك إيجاد مراكز توجيه وإرشاد للزائرين من قبل رجال الدين والمتخصّصين في هذا المجال، الأمر الذي يساعد على اغتنام

(١) بحار الأنوار / ج ٩٨ / ص ٣.

(٢) من لا يحضره الفقيه ج١/ ص١٨٠ ؛ وراه الطوسي في التهذيب/ ج ١/ ص ١٢١.

(٣) بحار الانوار / ج ٣٦ / ص٣٥٣.

الزيارة على أفضل وجه فمن المعلوم أنَّ كثيراً من فوائد الحج وفلسفته موجودة في الزيارة ولاسيما المخصوصة كزيارة الأربعين.

وكذا أنَّ من الشّبهات المطروحة أنَّ ذهاب المرأة للزيارة يتعارض وواجباتها المنزلية وحق الزوج، والجواب بديهي: فإنَّ تنظيم العلاقة الزوجية تكفّلت به الشّريعة المقدّسة وأعطت للزوج حقوقاً وأعطته كذلك حقّ التّنازل عن هذا الحق فله حقّ المنع كما له حقّ الإجازة، أمّا ما يُقال من أنَّ كثيراً من الرجال لا يستطيعون منع زوجاتهم لأنّ ذلك يُفسّر بأنه معاداة لسيّد الشّهداء عليه السلام؟

فهذا جهل ولا تبنى الأحكام الشرعية على الجهل، فمن كان متفقّه في دينه يعلم أنَّ ذلك ليس معاداة لسيد الشهداء عليه السلام.

محطات في حياة الإمام الرّضا عليه السلام

محمد يوسف السعدي

عندما يتحيّر الحكماء ويعجز الكتّاب عن إدراك النّزر اليسير من مناقب أهل البيت عليهم السلام ومقاماتهم فكيف سيكون الحال عند من فقد صفات أولئك الرجال، ولكن متابعة لأمر أهل البيت عليهم السلام حيث أوصوا بإحياء أمرهم كما قال الإمام الصادق عليه السلام: « **حدّثوا عنّا ولا حرج، رحم الله من أحيا أمرنا**»(١).

فليس أمامنا إلا الامتثال والانصياع، وإلّا فليس لأيٍّ كان أن يطرق هذا الباب أو يقترب من شاطئ هذا البحر، لا لأنَّ هذا البحر ليس بحر الخير والنور، ولا لأنَّ هذا الباب ليس باب العلم والهدى، بل لأجل التفاوت ما بيننا وبينهم، ولخشية الوقوع في المحاذير إذ أنَّ دخول الباب والبحر يتطلّب شروطاً صعبة يخشى على صاحبها الهلاك.

وكما يستفاد من الأحاديث الواردة عنهم عليهم السلام فإنّ إحياء أمرهم يتحقّق بطرق عدّة:

الطَّريق الأوَّل: انتظار أمرهم عليهم السلام

ومن تلك الطّرق انتظار أمرهم عليهم السلام، فقد روى الكليني بسنده عن عبدالحميد الواسطي، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: « **قلت له أصلحك الله لقد تركنا أسواقنا انتظاراً لها الأمر، حتى ليوشك الرجل منّا أن يسأل في يده؟ فقال عليه السلام: يا عبد الحميد، أترى من حبس نفسه على الله لا يجعل الله له مخرجا؟! بلى والله ليجعلنَّ الله له مخرجا، رحم الله من أحيا أمرنا**»(٢).

(١) بحار الأنوار / ج ٢ / ص ١٥١ .

(٢) الكافي/ ج٨/ ص٨٠ .

الطّريق الثّاني: نشر علومهم ومناقبهم ومصائبهم وتداولها

فقد روى الفضيل بن يسار، عن أبي عبد الله عليه السلام أنَّه قال له: «**تجلسون وتحدّثون؟ قال: نعم جعلت فداك، قال: إنَّ تلك المجالس أحبّها، فأحيوا أمرنا يا فضيل، فرحم الله من أحيا أمرنا، يا فضيل من ذَكرنا أو ذُكِرنا عنده فخرج من عينه مثل جناح الذّباب غفر الله ذنوبه، ولو كانت أكثر من زبد البحر**»(١).

وعطف الإمام عليه السلام البكاء عليهم عند ذكرهم بعد الدّعوة إلى إحياء أمرهم قرينة واضحة على أنَّ ذكر مصائبهم من مصاديق إحياء أمرهم عليهم السلام.

وروى محمد بن سليمان الكوفي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنَّه قال: «**رحم الله من أحيا أمرنا؟ فقيل له: وكيف يحيى أمركم؟ قال** عليه السلام: **بالتذاكر له**»(٢).

وروي عن الإمام الصّادق عليه السلام قال:

«**تلاقوا وتحادثوا العلم، فإنَّ بالحديث تجلى القلوب الرائنة، وبالحديث إحياء أمرنا**»(٣).

وروي عن الإمام الباقر عليه السلام قال:

«**رحم الله امرءاً أحيا أمرنا، فقيل: وما إحياء أمركم يا بن رسول الله ؟ فقال: تذكرونه عند أهل العلم والدين واللّب**»(٤).

وفي الحديث تنبيه لطيف على أنَّ الإحياء لا يتم مع الجهل والفسق والسّفاهة.

وقد روى الشَّيخ الصَّدوق بسند صحيح عند بعض علمائنا كالمامقاني (في شيخ الصدوق الذي ترضى عليه وعلي بن محمد بن قتيبة الذي وصف بالفاضل) عن عبد السلام بن صالح الهروي عن الإمام الرضا عليه السلام أنَّه قال: « **رحم الله عبداً أحيا أمرنا، قلت: وكيف يحيي أمركم؟ قال: يتعلّم علومنا ويعلّمها الناس، فإنَّ الناس لو علموا محاسن كلامنا لاتبعونا**»(٥).

إذن ليس لأحد أن يظن أنَّه قادر أن يحيي أمرهم عليهم السلام من دون الرجوع إليهم والأخذ من علومهم، لأنَّ ذلك يعني إحياء أمر المتحدّث وفكره ونظره وليس إحياء أمر أهل البيت عليهم السلام وفكرهم وقولهم.

وحديثنا في هذا البحث يدور حول محطّات الإمام الرّضا -صلوات الله عليه-، وسأجعلها في نقاط عدّة:

---

(١) قرب الإسناد ص٣٦ ح١١٧.

(٢) مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ج٢ ص٢٩٦ .

(٣) عوالي اللئالئ /ج٤/ ص٦٧ .

(٤) دعائم الإسلام/ ج١/ ص٦٣.

(٥) عيون أخبار الرضا/ ج١/ ص٣٠٧ .

لقب الرضا عليه السلام أشهر ألقاب الإمام

عن أحمد بن محمد بن أبي نصر البزنطي قال:

«قلت لأبي جعفر محمد بن علي بن موسى عليه السلام: " إنَّ قوماً من مخالفيكم يزعمون أنَّ أباك عليه السلام إنَّما سمّاه المأمون الرضا لما رضيه لولاية عهده؟!

فقال عليه السلام: **كذبوا والله وفجروا، بل الله تبارك وتعالى سمّاه الرضا لأنَّه كان رضيّاً لله تعالى في سمائه، ورضيّاً لرسوله والأئمة من بعده صلوات الله عليهم في أرضه.**

قال: فقلت: ألم يكن كل واحد من آبائك الماضين عليهم السلام رضيا لله تعالى ولرسوله والأئمة فقال: بلى.

فقلت: فلم سمّي أبوك عليه السلام من بينهم الرضا؟

قال: لأنَّه رضي به المخالفون من أعدائه، كما رضي به الموافقون من أوليائه، ولم يكن ذلك لأحد من آبائه فلذلك سمّي من بينهم الرضا عليه السلام»[1].

إنَّ رضا الموافقين من الأولياء بالإمام الرّضا عليه السلام أمر طبيعي لا يحتاج إلى تفسير، فهو مقتضى الاعتقاد بإمامته ونتيجة حتمية لمحبَّته، ولكن أن يرضى به المخالفون من أعدائه فهذا أمر محيّر للعقول!!

والتّعبير في الرّواية جاء على نحو أنَّهم رضوا به ولم يرضوا عنه، ومن هنا اجتمعت العداوة والرّضا في آنٍ واحد، فإنَّ الرّضا عن الإمام الرضا عليه السلام يقتضي الرضا والحب لذاته، بينما الرّضا به لا يلازم ذلك، بل يقتضي الرّضا عن أمر مرتبط بالإمام عليه السلام وهو تصدّيه لولاية العهد بنحو لا يمكنهم رفضه، ممّا يفيد أنَّ هيمنة الإمام عليه السلام وهيبته وولايته على النّفوس بلغت حدّاً أفقدت الأعداء القدرة على الرّفض وعدم الرِّضا.

من المعلوم بحسب الأدلّة الرّوائية والتّاريخية أنَّ المأمون العباسي أراد تحقيق أهداف عدّة من تقليد الإمام الرضا عليه السلام منصب ولاية العهد، ولأنَّ الإمام عليه السلام كان مدركاً لأهدافه فإنَّه رفض ذلك، ثم بعد التّهديد والوعيد قبل بها بشرط أن لا يكون له أيّ دور عملي مباشر في الإدارة، من تعيين أو عزل أو ما شابه ذلك.

وبعد مضي مدّة من ولاية العهد حاول المأمون أن يستفيد من موقع الإمام الرضا عليه السلام في إضفاء الشرعية على خلافته وأعماله، فطلب منه القبول بمهمّة غير رسمية ولكنها شبيهة بها، وهي التّصدّي لإمامة الجماعة والخطبة في صلاة العيد:

«فلمّا حضر العيد بعث المأمون إلى الرّضا عليه السلام يسأله أن يركب ويحضر العيد ويخطب؛ لتطمئن قلوب الناس،

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام/ ج١/ ص١٣.

ويعرفوا فضله، وتقرّ قلوبهم على هذه الدّولة المباركة.

فبعث إليه الرضا عليه السلام وقال: قد علمت ما كان بيني وبينك من الشّروط في دخولي في هذا الأمر.

فقال المأمون:

إنَّما أريد بهذا أن يرسخ في قلوب العامّة ... هذا الأمر، فتطمئن قلوبهم، ويقرّوا بما فضلك الله تعالى به. فلم يزل يرده الكلام في ذلك.

فلمّا ألحّ عليه، قال: يا أمير المؤمنين: إن أعفيتني من ذلك هو أحبّ إليّ، وإن لم تعفني خرجت كما كان يخرج رسول الله صلى الله عليه وآله، وكما كان يخرج أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال المأمون: اخرج كما تحب.

وأمر المأمون القوّاد والنّاس أن يبكروا إلى باب أبي الحسن عليه السلام، فقعد الناس لأبي الحسن عليه السلام في الطرقات والسطوح، من الرجال والنساء والصبيان، واجتمع القواد على باب الرضا عليه السلام، فلما طلعت الشمس، قام الرضا عليه السلام فاغتسل وتعمّم بعمامة بيضاء من قطن، وألقى طرفاً منها على صدره، وطرفاً بين كتفيه وتشمّر.

ثم قال لجميع مواليه: افعلوا مثل ما فعلت، ثم أخذ بيده عكازة وخرج ونحن بين يديه، وهو حاف قد شمّر سراويله إلى نصف السّاق، وعليه ثياب مشمّرة.

فلمّا قام ومشينا بين يديه، رفع رأسه إلى السّماء، وكبّر أربع تكبيرات، فخيّل إلينا أنَّ الهواء والحيطان تجاوبه!! والقواد والناس على الباب قد تزيّنوا ولبسوا السلاح، وتهيّأوا بأحسن هيئة.

فلمّا طلعنا عليهم بهذه الصورة حفاة قد تشمّرنا، وطلع الرضا وقف وقفة على الباب، وقال:

«الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر على ما هدانا، الله أكبر على ما رزقنا من بهيمة الأنعام، والحمد لله على ما أبلانا»، ورفع بذلك صوته ورفعنا أصواتنا.

فتزعزعت مرو من البكاء والصياح، فقالها ثلاث مرّات، فسقط القواد عن دوابّهم، ورموا بخفافهم لما نظروا إلى أبي الحسن! (ويلاحظ هنا أنَّهم فقدوا إرادتهم وصدر عنهم هذا الفعل لا عن إرادتهم).

وصارت مرو ضجّة واحدة، ولم يتمالك الناس من البكاء والضّجيج، فكان أبو الحسن عليه السلام يمشي ويقف في كلّ عشر خطوات وقفة، فكبّر الله أربع مرّات، فتخيّل إلينا أنَّ السّماء والأرض والحيطان تجاوبه!

وبلغ المأمون ذلك، فقال له الفضل بن سهل ذو الرئاستين: يا أمير المؤمنين عليه السلام، إن بلغ الرضا عليه السلام المصلى على هذا السبيل افتتن به الناس، فالرأي أن تسأله أن يرجع.

فبعث إليه المأمون، فسأله الرجوع، فدعا أبو الحسن بخفه فلبسه ورجع»[1].

(١) عيون أخبار الرضا ج٢ ص١٤٩ .

من مميزات لقب الرّضا عليه السلام

إنَّ الرضا في لقب الإمام عليه السلام جاء بصيغة المصدر، وهذا من مختصّات لقبه عليه السلام، فالغالب في ألقاب أكثر المعصومين أنّها بصيغة اسم الفاعل كالصادق والباقر والكاظم والجواد أو اسم المفعول كالمرضية والمجتبى والمرتضى أو صيغ المبالغة مثل السجاد، وقلّما تجد في الأئمة عليهم السلام من كان له لقب بصيغة المصدر، ولم أجد في حدود بحثي من لقّب من الأئمة عليهم السلام بالمصدر سوى ما ذكره ابن شهر آشوب من أن الإمام زين العابدين عليه السلام لقب بالعدل[1].

وأقل ما يقال أنّه لا يوجد في الأئمة من يكون أشهر ألقابه بصيغة المصدر سوى الإمام الرضا عليه السلام.

والمصدر كما هو معروف يستخدم بمعنى اسم الفاعل، ويفيد الغاية في الوصف حتى أنَّه أقوى من صيغ المبالغة في إفادة ذلك كما نص على ذلك علماء البلاغة، ففرق بين أن تقول فلان العالم والعلامة وفلان العلم، حيث أنَّ اسم الفاعل هو من تلبّس بالمصدر، ومن ثم قد يتعدّد أسماء الفاعلين، فيكون زيد كريماً كما يكون زيد كريماً، أما المصدر فلا يكون إلَّا معنى واحداً وشيئاً واحداً غير قابل للتعدّد، ويحاول الكل الأخذ منه بقدر وعائه واستعداده.

إذن مقام الإمام هو مقام الرّضا غير المقيّد، فهو مصدر الرضا الإلهي، ومن أراد رضا الله -عز وجل- بدون قيود فعليه بالوفادة إلى الإمام الرضا عليه السلام، فإنَّ الرّضا فيه مطلق لا قيد فيه، فإن حرمنا من شيء فلأننا أصررنا على أن نُقيّد أنفسنا ونمنع الرضا عن أنفسنا، فلنتوجّه إلى المقام المنيع للإمام الرضا عليه السلام بطلب الرضا منه، فلا يعقل فيمن كان مرضيًّا عند الله -عز وجل- ورسوله صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام أن لا يكون رضاه مطلوباً لهم.

من سجايا الإمام الرضا عليه السلام

أبو نواس -الشّاعر المعروف-، مدح ومدح، فمدح الوُلاة، ومدح القادة العسكريين، والقادة السّياسيين، والخلفاء، إلَّا الإمام الرّضا عليه السلام لم يمدحه، فقالوا له: لماذا لا تمدح الإمام الرضا؟ فقال:

قيل لي أنت أوحدُ النَّاس ... طُرّاً في فنون من الكلام البديه
لك من جوهر الكلام نظامٌ ... يُثمِر الدر في يدي مُجتنيه
فعلى ما تركتَ مدح ابن موسى ... والخصال التي تجمَّعن فيه
قلتُ لا أهتدي لمدح إمام ... كان جبريلُ خادماً لأبيه[2]

(١) ينظر بحار الأنوار/ ج٤٦/ ص٤.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام -الشيخ الصدوق- ج١ ص١٥٤.

أعلم العلماء:

نبدأ الحديث بما أُثر من علم الإمام الرضا عليه السلام، فهي السِّمة الأولى، والواضحة، والجليَّة -لكلِّ إمامٍ مَعْلَمٌ وسِمَةٌ خاصّة، يمتاز بها، ويُعرف بها-، والتي امتاز بها الإمام الرضا عليه السلام هي سمة العلم. لذلك وصفه الإمام الصادق عليه السلام بعالم آل محمد -صلوات الله عليهم-[1].

وكانت هي السِّمَة التي امتاز بها في عصره؛ وذلك لخصوصيَّةٍ تحدّثنا عنها في جلساتٍ سابقة، وهي الفترة الاستثنائية التي عاشها الإمام في السّنوات العشر الأولى من إمامته، فقد كانت فترةً استثنائية ترتَّب عليها أن يَظهر الكثيرُ من علمه عليه السلام.

يروي المؤرِّخون أنَّ الإمام عليه السلام كان يجلس في مسجد الرسول صلى الله عليه وآله في المدينة المنوّرة قبل استشهاد والده، وبعد أن سُجن والده، وبعد أن تسنَّم واضطلع بدور الإمامة، لمدَّة عشر سنوات بعد استشهاد أبيه الإمام الكاظم عليه السلام كانت له جلسات عند قبر الرسول -صلى الله عليه وآله-، ومن المعلوم أنَّه في تلك الفترة كان المسجد النبويّ يغصُّ بحلقات الدرس والتدريس في مختلف العلوم الدّينية، بالعقيدة، والتّفسير، والحديث، والفقه، والكلام.

يقول هؤلاء العلماء: إذا استعصت مسألة -هم يعترفون-، إذا استعصت مسألةٌ على شيخٍ من شيوخ تلك الحلقات سواء في الفقه، أو العقيدة، أو التّفسير، أو الحديث، لجأوا إلى عليّ بن موسى عليه السلام وكان يجلس عند قبر الرسول-، فما توقَّف في مسألةٍ قطّ. وإذا سُئِل، كأنَّه كان قد أعدَّ الجواب!![2] وبعد أن أُقصي الإمام الرضا عليه السلام إلى خراسان في السنين الأخيرة من إمامته -يعني في السنوات الخمس الأخيرة- [3]، وطبعا كانت هناك مقاصد سياسية وراء إبعاد الإمام عليه السلام إلى خراسان، وهناك أيضاً مقاصد عقائدية، وكان من أهداف ومقاصد المأمون هو أن يُسقط الإمام في أعين قواعده الشّعبيّة، وذلك من خلال مجموعة من الوسائل، منها إفحامه فيما يرتبط بالشأن العلميّ، لمّا أُذيع عنه، وعُرف عنه في مختلف أقطار العالم الإسلامي، من تميُّزٍ علميّ، ففي بعض أيام وجوده المبارك في خراسان، جمع المأمون علماء الأديان من مختلف مناطق إيران -وإيران متميّزة بأديان متعدّدة-، وكانت هناك شخصيَّات متميّزة في كلِّ علمٍ، فدعا الخليفة المأمون رئيسَ الأساقفة، ووفداً معه من الأساقفة -الأساقفة هم علماء النّصارى- ودعا رأس الجالوت -هذا مصطلح يطلق على كبير اليهود-، ودعا رئيس أو رؤساء الصابئة -كما ورد في الرواية-، ودعا أيضاً الهربت -كبير عبدة النار-، ودعا الزرادشتيين، ودعا المتكلِّمين من الفرق الإسلامية، وقال لهم: نريد منكم

---

(١) بحار الأنوار: ج٤٩/ ص١٠٠.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) كانت مُدَّة إمامة الرضا (عليه السلام) عشرين سنة، عشرة قضاها أيام الخليفة العباسّي هارون الرشيد، وخمسة قضاها أيام الخليفة محمد الأمين، والخمسة الباقية قضاها في أيام عبد الله المأمون، وكان أكثرها في خراسان.

أن تحضروا؛ لمناظرة رجل من الحجاز، وحثَّهم على أن يُعرَضوا عليه معضلات مسائلهم، فهم قد استعدّوا وقبل حينٍ من هذه المناظرة.

وفي ليلة الدعوة بعث إلى الإمام الرضا عليه السلام، وأخبره أنَّ غداً ستكون له مناظرة مع علماء اليهود والنّصارى والزرادشتيين والصابئين والمتكلمين!! حينها كان عراقيٌّ جالساً مع الإمام الرّضا عليه السلام، فاضطرب. فالتفت له الإمام عليه السلام ووجد في وجهه آثار الخشية، فقال له: وتخاف عليَّ أنْ أُقطع؟، قال: نعم أخشى عليك أن تُقطع، كنتُ أعلمُ أنَّك أعلمُ أهل الأرض، ولكن هؤلاء مُغالِطون، فقد يعرضون ما يُوهِم الناس أنَّهم قد قطعوك. قال عليه السلام: أتعرف متى سيندم المأمون؟ أتعرف أيّها العراقي متى سيندم المأمون؟ قلتُ: بلى،. قال: إذا سمع احتجاجي على أهل التّوراة بتوراتهم، وعلى أهل الإنجيل بإنجيلهم، وعلى أهل الزبور بزبورهم، وعلى الصابئيين بعبرانيَّتهم، وعلى أهل الهرابذة بفارسيَّتهم، وعلى أهل الروم برروميتهم، وعلى أصحاب المقالات -علماء الكلام- بلغاتهم، فإذا قطعتُ كلَّ صنف، ودحضت كلّ حُجَّة، علِم المأمون أنَّ الموضع الذي هو بسبيله ليس بمُستَحق، فعند ذلك تكون النّدامة، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله[1] . أصبح الصَّباح، شرب الإمام عليه السلام كأساً من ماء، وتناول سويقاً، وأعطى من كان معه، ثم وضع رداءه على ظهره وخرج، كان مجلس المأمون يغصُّ بالقادة، ووجوه الطالبيِّين، والهاشميين، وعلماء خراسان، ومعهم رأس الجالوت، ورأس الأساقفة، ورأس الصّابئة، ورأس الزرادشتية، وكلُّ هؤلاء قد اجتمعوا. وما إنْ وصل الإمام عليه السلام حتى قاموا جميعاً، جلس الإمام عليه السلام في صدر المجلس، وكلّهم قيام وهو جالس، ثم أمر المأمون الجميع بالجلوس فجلسوا -لا مجال لعرض ما كان قد وقع بينهم، ولكن سأشير إلى الأجواء التي اكتنفت تلك المناظرة ثم ننتقل عن هذا المحور- جلسوا، فقال المأمون: يابن العمّ، هؤلاء جاؤوا يسألونك. قال الإمام الرضا عليه السلام: فليعرضوا أسئلتهم. بدأ اليهوديّ -رأس الجالوت-، وطرح على الإمام سؤالاً، قال عليه السلام: إن أجبتك من التّوراة، تقبل؟ قال: لا أقبل بغيرها. قال عليه السلام أقرأت في السِّفر رقم كذا هذه الفقرة؟، أراد أن يُنكر، وظن أنَّه مادام أنَّ الإمام عربيّ حجازيّ فمن أين له أن يعرف ما هو مكتوب، فقرأ الإمام الفقرة بالعبرية، ثم قال للمترجمين ترجموا حتَّى يسمع؛ حتى لا يخالف.

فأخذ يُحدِّثهم وتبيَّن أنَّه مطّلع على تفاصيل التّفاصيل لمّا ورد في التّوراة، فبُهتوا حتى قال أحدهم: إنَّه يقرأ التّوراة خيراً من قراءتنا لها.

ثم بدأ بالإنجيل وأخذ يحتجُّ على أصحاب الإنجيل بالتوراة والانجيل، وعلى أصحاب التّوراة بالتوراة والإنجيل،

---

(١) بحار الأنوار/ ج١٠/ ص٢٩٩.

ويقرأ بلغاتهم، بالرّوميّة، وإذا وصل الى الزرادشتية تكلَّم بالفارسيّ، وإذا وصل الى الصّقالبة تكلَّم بالصقلبيَّة، فكان يتكلّم بمختلف اللُّغات، فحين رأوا الإمام يُقلِّب اللغات، انقطعوا جميعاً، وامتدّت الجلسة لساعات. وليست هذه هي المناظرة الوحيدة، ولا الثانية، ولا الثالثة، كانت هناك مناظرات عديدة أرَّخ بعضَها بعضُ المؤرِّخين، وأهملوا البعض الآخر، كما أنَّهم نقلوا بعض تفاصيلها دون جميع التّفاصيل. هذا حديثٌ حول علم الإمام عليه السلام.

أعبد النَّاس:

أجمع كل من عاشره أو سافر معه أو تشرّف بخدمته، وكذلك زوجاته، أجمع كل هؤلاء أنَّه كان قليل النوم، كثير السَّهر، يقضي جُلَّ ليله في العبادة وتلاوة القرآن، **(كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ)**[1] .

هؤلاء أهل الله، أولياء الله. كان كثير الصيام، كثير الصلاة، يختم القرآن كلَّ ثلاث ليالٍ، وكان يقول: لو شئت أن أختمه فيما دون ذلك لفعلت، ولكني لا أمرُّ بآية إلَّا تأملتها [2].

بعض الأخوة قد يستوحش من أنَّه كيف يتاح للإمام ذلك مع ما عليه من وظائف كثيرة؟ كيف يُتاح له أن يختم القرآن في ثلاثة أيام؟! فكّرتُ قليلاً في الموضوع، القرآن ثلاثون جزءاً، وقد كُتب في٦٠٠ صفحة، أو ٦٠٤ صفحات، حسبتُ كلَّ جزء -مع ترتيل معتدل- فقدَّرت أنَّه لا تتجاوز قراءة الجزء الواحد ثلث الساعة فهذه المدّة تكفي لقراءة الجزء الواحد (٢٠ صفحة)، وكل جزء من أجزاء القرآن يعادل (٢٠ صفحة)، إذا حسبنا ثلاثين جزءاً في عشرين دقيقة فالنّاتج هو عشر ساعات -عشر ساعات يُختم فيها القرآن-، وإذا وزَّعنا الساعات العشر على ثلاثة أيام، ففي كلِّ يوم نحتاج الى ثلاث ساعات وبضع دقائق كي نختم القرآن في ثلاثة أيام. وقليلٌ على القرآن أن يُخصّص له ثلاث ساعات في اليوم، فهذه السويعات لا تزاحم بقيّة الأعمال -خصوصاً عند من يُنظِّم وقته-، ففي وسع الإنسان إذا نظَّم وقته أن يُحصِّل الكثير، ويقضي الكثير من الحاجات، ويُحقِّق العديد من الإنجازات في هذه الـ (٢٤ ساعة). نعم، اليوم ليس فيه متّسع ولا بركة إذا كان سيقضي (١٢ ساعة) في النوم، وخمس ساعات في المعاش! هكذا لن يبقى للوقت من بركة. فإذا كان الإمام يجلس قُبيل الفجر بعد النَّافلة ويقرأ شيئاً من القرآن، ثم يقرأ قليلاً منه بعد ذلك ما بين الطُّلوعين، هذا مقدار ساعة. وساعةٌ أخرى أيضاً يقرأ فيها القرآن قُبيل الظّهر، أو بُعيد الظهرين. وتبقى ساعةٌ تكون لليل. ثم إنَّ الإمام عليه السلام كان إذا خلّى بنفسه قرأ القرآن، وإذا أضطجع -كما يُخبر خَدَمه، ومن كان يسافر معه -يقرأ القرآن حتّى يغفو، فلا غرابة في أن يختم القرآن في كلِّ ثلاثة أيام. وكان -صلوات الله عليه- كثير الصّيام، ويفطر في كلّ يومٍ على ما يتعارف الناس على أكله، أو بتعبير أدقّ: ما يتعارف الفقراء

(١) سورة الذاريات/ الآية: ١٧.

(٢) بحار الأنوار/ج/ ٨٩ ص٢٠٤.

والمتوسِّطين من النَّاس على أكله. في بعض الأحيان الإمام يشتهي شيئاً متميّزاً، في يوم من الأيام كان الإمام صائماً، واشتهى أن يأكل كبدة مشويَّة -كأنَّ هذا شيءٌ عزيز وغير متاح، والأموال تُجبى إليه من شرق الأرض وغربها!، وهذه حالة غريبة نادرة عند الإمام، وإلَّا فالنَّاس في كلِّ يوم يأكلون الكبدة إن شاؤوا- وكان الخدم يُشفقون عليه؛ لقلّة طعامه، لكنَّهم ارتاحوا اليوم، لأنّ الإمام سيأكل طعاماً جيّداً. فشُويت له الكبدة، وصلّى الإمام العشاءين، وأيّ صلاةٍ هي صلاته؟ هي أوراد، وهي نوافل، وهي تسبيحات، حتى وصل وقت الفطور، حينئذٍ جلس الإمام عليه السلام فوضعت أمامه الكبدة المشويَّة، ثم قال: (**لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ**)[1]، وأنا أُحبُّها، ولذلك سأُنفقها، ارفعوها واذهبوا بها إلى أحد الفقراء يأكلها، ولا آكلها. وفي يوم -وهو في خراسان، بلد الفواكه- اشتهى عنباً -والعنب في بيته وفي كلِّ طريق-، وعلى نفس المنوال أراد أن يُفطر على عنبٍ فجاءه فقير، فأعطاه ذلك العنب.

كان -سلام الله عليه- إذا جيء له بالمائدة يُؤتى بصفيحة خالية، فينتقي من الطعام الذي يُعرض عليه أجوده ويضعه في الصَّحيفة، ثم يرفعه ويقول: (**فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ، فَكُّ رَقَبَةٍ، أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ، يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ، أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ**)[2].

يوميات الإمام عليه السلام وسماته العامة:

روي عن بعض أصحاب الإمام، يقول: (ما رأيت أبا الحسن الرضا عليه السلام جفا أحداً بكلمة قَطّ- يعني لا يتكلم بخشونة مع الناس، ولا يُعنِّف أحداً، ولا يُهين أحداً، ولا يكسر قلب أحد - ولا رأيته قطع على أحدٍ كلامه حتى يفرغ منه، وما ردَّ أحداً عن حاجةٍ يقدرُ عليها، ولا مدَّ رجليه بين يدي جليسٍ له قَطّ، ولا اتكأ بين يدي جليس قَطّ، ولا رأيته شتم أحداً من مواليه ومماليكه قَطّ، ولا رأيته تفل، ولا رأيته يتقهقه في ضحكه قَطّ، بل كان ضحكه التبسُّم)[3].

هذا شيءٌ من سجاياه ومحاسن أخلاقه، هذه يوميَّات الإمام، ونحن إنَّما نَستنُّ بسنَّتهم، ونَدين بدينهم، ونقتفي أثرهم. فإن لم نتمكَّن أن نكون كما كانوا، فلنكن على طريقتهم مُتمثِّلين.

---

(١) آل عمران/ الآية: ٩٢.

(٢) سورة البلد/ الآيات: ١١-١٦.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام/ ج١ / ص١٩٨.

يا علي بن موسى الرضا

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ
إِلاَ مُبَشِّراً وَنَذِيراً)

صدق الله العلي العظيم
سورة الإسراء/ الآية: ١٠٥

شهر ربيع الأول

- عالمية الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله
- الهجرة وليلة المبيت .. أولى التّضحيات
- الأبعاد الجمالية والمعرفية للتصوير عند الإمام الصادق عليه السلام دراسة في نصوص مختارة
- الإمام العسكري عليه السلام بين تأصيل مرجعية الفقهاء العدول وبناء الكوادر العلمية

عالمية الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله

السيد حيدر الياسري

لقد قام الرسول الأعظم ﷺ بأهم أربعة أعمال، كانت بأعلى مستويات الإنجاز، ولعلها كانت هي السبب وراء شهرته بين الأمم واحترامهم له، فإنه ﷺ وبغض النظر عن كونه خاتم الأنبياء عليهم السلام وهادي السبيل، والنبي المعصوم، وأفضل أهل الأرض، فإنه يعد أقدس شخصية يكنّ لها العالم المسلم وغير المسلم ـ من المنصفين ـ كامل الاحترام والتبجيل، وذلك بسبب ما قدمه للعالم من عطاء باعث على الإجلال والتعظيم. أما تلك الأعمال الأربعة فهي:

- الإسلام والقرآن الكريم والعترة
- الأحكام العادلة
- الأمّة الواحدة
- دولة الرّسول ﷺ

أوّلاً: الإسلام والقرآن الكريم والعترة:

قال -تبارك وتعالى-: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)[1].

إنَّ الإسلام والقرآن الكريم والعترة الطّاهرة-صلوات الله عليهم- أفضل هديّة قدّمها رسول الله ﷺ للبشرية جمعاء.

إنَّ الرسول الأكرم ﷺ هو النبي الوحيد الذي استطاع أن يوصل رسالته السّمحاء لكلّ العالم..

وفضل هذه الرّسالة وأهمّيّتها قد لا يدركه الكثير من المسلمين إذ حالهم في ذلك كمثل سمكة صغيرة جاءت إلى سمكة كبيرة تسألها، أين الماء؟ في حين أنَّها تعيش في الماء، لكنها لم تعرف قدر الماء إلا بعدما وقعت في شبك الصّيّاد وألقاها خارج الماء.

ونحن المسلمون كذلك؛ لأنَّنا منذ الولادة عشنا في أحضان الإسلام الحبيب، وأحضان القرآن الكريم الذي أنزل على النبي الأعظم ﷺ وفي مدرسة أهل البيت عليهم السلام وسنبقى على الإسلام والإيمان إن شاء الله، حتى الرّمق الأخير.

لذا فإنَّ العديد منَّا لا يعرف قيمة هذا الدّين العظيم، ولا قيمة هذا القرآن المجيد، ولا قدر هذا المذهب الحق الذي هدانا الله إليه، حق قدره وحقّ معرفته؛ ولذا تجد بعض المسلمين يُشرّق ويُغرّب في أفكاره ومبادئه، وربما يترك تعاليم هذا الدّين القويم، ويترك معارف القرآن العظيم، مع أنَّه الأساس في بناء الحضارة الإسلامية والعالمية، والتي أنقذت العالم والإنسانية من الويلات، ودفعته إلى التّقدّم الهائل في جميع أبعاد الحياة المختلفة، وهذا باعتراف الكثير من غير المسلمين أيضاً.

روايات حول القرآن الكريم

وقد ورد في فضل القرآن الكريم عن الرسول الأعظم ﷺ قوله: «إنَّ هذا القرآن مأدبة الله، فتعلَّموا مأدبته ما استطعتم، إنَّ هذا القرآن حبل الله وهو النّور البيّن، والشّفاء النّافع، عصمة لمن تمسّك به، ونجاة لمن تبعه»[2].

وقال أمير المومنين عليه السلام: «**وتعلّموا القرآن، فإنَّه أحسن الحديث، وتفقّهوا فيه فإنَّه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فإنَّه شفاء الصّدور، وأحسنوا تلاوته فإنَّه أنفع القصص، وإنَّ العالم العامل بغير علمه كالجاهل الحائر الذي لا يستفيق من جهله، بل الحجّة عليه أعظم، والحسرة له ألزم، وهو عند الله ألوم**» [3].

وقال الإمام الرضا عليه السلام: «**هو حبل الله المتين، وعروته الوثقى وطريقته المثلى، المؤدّي إلى الجنة، والمنجي من النار، لا**

---

(١) سورة سبأ: ٢٨.

(٢) وسائل الشيعة: ج٦ ص١٦٨.

(٣) نهج البلاغة، الخطب: ١١٠.

يخلق على الأزمنة، ولا يغث على الألسنة، لأنَّه لم يجعل لزمان دون زمان، بل جعل دليل البرهان، والحجّة على كلّ إنسان، (لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) [1]»[2].

روايات حول العترة عليهم السلام

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**أهل بيتي فيكم كسفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلّف عنها غرق**»[3].

وقال صلى الله عليه وآله: «**إنّي تارك فيكم خليفتين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فإنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض**»[4].

سر النَّجاح

نعم، إنَّ القرآن والإسلام والعترة، هي التي أوجدت في المسلمين الرّوح المعنوية العالية، والإيمان بالله واليوم الآخر، والخوف من النار والرّغبة بالجنة، والتّرغيب والحث على التّحلّي بالأخلاق الحميدة.

وهي أول مبعث لانطلاق المسلمين، تلك الانطلاقة المذهلة التي اعترف الغرب والشّرق بأنّها كانت وراء النّهضة العلمية في الغرب، وبأنَّ المسلمين هم أساس العلم الحديث.

ولكن ـ ومع الأسف ـ نحن المسلمين تركنا الإسلام، وتركنا القرآن وتركنا العترة الطّاهرة، وسيأتي يوم نندم على ذلك، وعند ذلك يكون الوقت قد فات وأنَّ كل شيء قد انتهى.

وهذه الحقيقة قد يلمسها الإنسان عندما يصل به العمر إلى آخر مرحلة من مراحل حياته في هذه الدنيا، وحينها لا يفيد النّدم، على ما ضيع أيّام قوّته وشبابه، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله أنَّه قال لابن مسعود: «**يا ابن مسعود: أكثر من الصالحات والبر، فإنَّ المحسن والمسيء يندمان، يقول المحسن: يا ليتني ازددت من الحسنات، ويقول المسيء قصّرت، وتصديق ذلك قوله تعالى: (وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ)[5]**» [6]. وعلى الإنسان أن يسأل الله –سبحانه وتعالى– أن يجعله ممن لا تبطره نعمة، ولا تقصّر به عن طاعة ربّه غاية، ولا تحل به بعد الموت ندامة وكآبة.

حقيقة الإسلام

يقول الله –تبارك وتعالى–: **(وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)** [7].

---

(١) سورة فصلت: ٤٢.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢ ص١٣٠.

(٣) وسائل الشيعة: ج٢٧ ص٣٤.

(٤) بحار الأنوار: ج٢٣ ص١٣٥-١٣٦.

(٥) سورة القيامة: ٢.

(٦) مكارم الأخلاق: ص٤٥٤.

(٧) سورة آل عمران: ٨٥.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**لأنسبن الإسلام نسبة لم ينسبه أحد قبلي ولا ينسبه أحد بعدي إلاّ بمثل ذلك: إنَّ الإسلام هو التّسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو العمل، والعمل هو الأداء**» (١).

وقال عليه السلام: «**إنَّ الله تعالى خصّكم بالإسلام واستخلصكم لـه؛ وذلك لأنَّه اسم سلامة وجماع كرامة، اصطفى الله تعالى منهجه وبيّن حججه، من ظاهر علم وباطن حكم، لا تفنى غرائبه ولاتنقضي عجائبه، فيه مرابيع النّعم ومصابيح الظلم، لا تفتح الخيرات إلاّ بمفاتيحه، ولاتكشف الظّلمات إلا بمصابيحه، قد أحمى حماه وأرعى مرعاه، فيه شفاء المستشفي وكفاية المكتفي**»(٢).

لقد دلّت الآيات الكريمة والرّوايات الشّريفة على تأكيد حقيقة الإسلام وبيان كماله، فمن كلام لأمير المؤمنين عليه السلام قال:

«**لا شرف أعلى من الإسلام..**»(٣).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في وصف النبي صلى الله عليه وآله: «**ابتعثه بالنور المضيء والبرهان الجلي والمنهاج البادي والكتاب الهادي، أسرته خير أسرة، وشجرته خير شجرة، أغصانها معتدلةٌ، وثمارها متهدلةٌ، مولده بمكة، وهجرته بطيبة، علا بها ذكره، وامتد منها صوته، أرسله بحجّة كافية، وموعظة شافية، ودعوة متلافية(٤)، أظهر به الشرّائع المجهولة، وقمع به البدع المدخولة، وبيّن به الأحكام المفصولة(٥)، فمن يبتغ غير الإسلام ديناً تتحقّق شقوته، وتنفصم عروته، وتعظّم كبوته(٦)، ويكن مآبه(٧) إلى الحزن الطويل والعذاب الوبيل..**»(٨).

ومن الواضح، أنَّ الإسلام بهذه القيم والمعارف والعظمة، والتّعاليم المنطقية والتي تتطابق مع فطرة البشر، يبعث على احترامه واحترام رسوله صلى الله عليه وآله وتبجيله، حتى عند غير المسلمين الذين يؤمنون بالمقاييس الإنسانية المجرّدة عن الاعتبارات السّماوية. وهل يعرف العالم أسمى من الإسلام في الإنسانية!!

---

(١) الكافي: ج٢ ص٤٥.

(٢) نهج البلاغة، الخطب: ١٥٢.

(٣) نهج البلاغة، قصار الحكم: ٣٧١.

(٤) متلافية: من تلافاه: تداركه بالإصلاح قبل أن يهلكه الفساد، فدعوة النبي صلى الله عليه وآله تلافت أمور الناس قبل هلاكهم.

(٥) المفصولة: التي فصلها الله، أي قضى بها على عباده.

(٦) الكبوة: السقطة.

(٧) المآب: المرجع.

(٨) نهج البلاغة، الخطب: ١٦١.

ثانياً: الأحكام العادلة:

الثاني مما أنجزه رسول الله ﷺ: بيان الأحكام والشّريعة العادلة، والملبّية لجميع حاجات البشر، والتي لا تخالف فطرة الإنسان، مضافاً إلى كونها مستوعبة لمختلف مجالات الحياة.

قال تبارك وتعالى: (**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**)[1].

وقال أبو عبد الله عليه السلام: «**إنّي لأعلم ما في السماوات، وما في الأرض، وأعلم ما في الجنة، وأعلم ما في النار، وأعلم ما كان وما يكون**»، **قال: ثم مكث هنيئة، فرأى أنَّ ذلك كبر على من سمعه منه، فقال: «علمت ذلك من كتاب الله عزوجل، إنَّ الله عزوجل يقول: فيه تبيان كل شيء**»[2].

إنَّ النبي الأعظم ﷺ جاء بدين يحتوي على كل الأحكام التي تتطلّبها الحياة، من الطهارة البدنية والرّوحية، وإلى آخر ما يحتاجه الإنسان في مسائله الشّخصية والعائلية والاجتماعية من حدود وتعزيرات، وديات، واقتصاد، وسياسة، واجتماع.. فأحكام الإسلام هي الوحيدة التي تعد كاملة ومستوعبة لكل جوانب الإنسان، وكل الأحكام الأخرى التي جاءت بها الدّيانة المسيحيّة والديانة اليهودية التي سبقته بزمن، كانت ناقصة لم تستوعب كل الحياة، فضلاً عن تحريفها وخلطها بالأباطيل، ومعلوم أنَّ الأحكام الكاملة تشير إلى كمال صاحبها أيضاً، مما يدعو إلى تقديسه واحترامه. وهذا هو السبب الثاني للمكانة العالية لرسول الله ﷺ بين جميع البشر.

ثالثاً: الأمّة الواحدة:

العمل الثّالث الذي تفرّد به رسول الله ﷺ هو أنَّه استطاع خلال (٢٣سنة) فقط أن يخلق من المسلمين أمّة واحدة موحّدة، في الوقت الذي كانت الفرقة والتّقاليد البالية والعصبيات الجاهلية هي الغالبة السّائدة، مضافاً إلى أنَّ المسلمين كانوا من مختلف القبائل والقوميات فوحّدهم رسول الله ﷺ تحت راية الإسلام.

الوصي عليه السلام يصف البعثة

وقد وصف أمير المؤمنين عليه السلام الحال قبل البعثة النّبويّة الشَّريفة، فقال عليه السلام: «..**إلى أن بعث الله سبحانه محمداً رسول الله ﷺ لإنجاز عدته، وإتمام نبوته، مأخوذاً على النّبيّين ميثاقه، مشهورةً سماته، كريماً ميلاده، وأهل الأرض يومئذ ملل متفرّقة، وأهواء منتشرة، وطرائق متشتتة، بين مشبه لله بخلقه، أو ملحد في اسمه، أو مشير إلى غيره، فهداهم به**

(١) سورة النحل: ٨٩.

(٢) الكافي: ج١ ص٢٦١.

ﷺ من الضّلالة، وأنقذهم بمكانه من الجهالة، ثم اختار سبحانه لمحمد ﷺ لقاءه، ورضي له ما عنده، وأكرمه عن دار الدّنيا، ورغب به عن مقام البلوى، فقبضه إليه كريماً ﷺ وخلف فيكم ما خلفت الأنبياء في أممها؛ إذ لم يتركوهم هملاً بغير طريق واضح، ولا علم قائم...» (١).

وقال عليه السلام في خطبة أخرى: «**إنَّ الله بعث محمداً ﷺ نذيراً للعالمين وأميناً على التّنزيل، وأنتم معشر العرب على شرّ دين، وفي شر دار، منيخون بين حجارة خشن، وحيات صم، تشربون الكدر، وتأكلون الجشب، وتسفكون دماءكم، وتقطعون أرحامكم، الأصنام فيكم منصوبة، والآثام بكم معصوبة**»(٢).

لقد كانت البشرية محرومة من العدالة والمساواة في الإنسانية والمساواة أمام القانون، وفي ذلك العالم المليئ بالظّلم والطّبقيّة، وفي ذلك المحيط الجاهلي أسّس الرسول ﷺ مبدأ العدالة والمساواة، فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، وبهذه الوسيلة استطاع أن يجمع حوله مختلف أفراد المجتمع، ويوحّدهم تحت لواء واحد، وعقيدة واحدة. ومن المعلوم أنَّ توحيد الكلمة بين أناس متفرّقين متشتّتين من أعظم الأعمال التي يستحق صاحبها التّعظيم.

التّعامل الإنساني مع الكل

ومن بركات البعثة النّبويّة الشّريفة: الحث على التّعامل الإنساني مع الكل حتى مع غير المسلمين.

ولقد كانت معاملة النبي ﷺ مع سائر الفئات غير المسلمة، من أفضل المعاملات الإنسانية، فقد كان يحترم الجميع ويعايشهم بحسن الجوار والتّزاور وعيادة المرضى والمناظرة والمحاورة والعطف والمحبّة والوفاء بالعهود وقضاء حوائجهم والدعاء لهم والذّبّ عنهم...

ولم يكن ذلك مع المسلمين فقط، بل حتى مع غير المسلمين، حتى ورد عنه ﷺ: «**من أخذ شيئاً من أموال أهل الذّمّة ظلماً فقد خان الله ورسوله وجميع المؤمنين**»(٣).

وقال رسول الله ﷺ: «**لا تدخلوا على نساء أهل الذّمّة إلا بإذن**»(٤).

فمن الواضح، أنَّ هذه الأعمال جعلت تلك الفئات تتشوّق إلى الدخول في الدّين الحنيف الذي جاء به رسول الله ﷺ وبذلك استطاع رسول الله ﷺ من توسيع القاعدة الإسلامية وجمع عدد كبير من الناس حوله، ونشر الإسلام بين البشرية على أوسع نطاق وفي أقصر مدّة.

---

(١) نهج البلاغة، الخطب: ١.

(٢) المصدر السابق: ٢٦.

(٣) الجعفريات: ص٨١.

(٤) المصدر نفسه: ص٨٢.

وهذه بعض الشَّواهد، التي تعكس عظمة الرّسول الأعظمﷺ وفضله العظيم على الإنسانية:

يهودي يحبس رسول الله ﷺ!

روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**أنَّ يهودياً يقال له: حويحر، كان له على رسول الله ﷺ دنانير، فتقاضى النبي ﷺ، فقال ﷺ له: يا يهودي، ما عندي ما أعطيك!**

فقال: إنِّي لا أفارقك يا محمد حتى تعطيني.

فقال ﷺ: إذاً أجلسُ معك، فجلس معه، فصلى رسول اللهﷺ في ذلك الموضع الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة والغداة، وكان أصحاب رسول الله ﷺ يتهدّدونه ويتوعّدونه، ففطن رسول الله ﷺ فقال: ما الذي تصنعون به؟

فقالوا: يا رسول الله يهودي يحبسك؟!

فقال ﷺ: نهى تبارك وتعالى أن أظلم معاهداً ولا غيره. فلمّا ترحل النّهار قال اليهودي: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنَّ محمّداً عبده ورسوله، وشطر مالي في سبيل الله. أما والله ما فعلت بك الذي فعلت، إلا لأنظر إلى نعتك في التّوراة، فإنِّي قرأت في التّوراة: محمد بن عبد الله مولده بمكة ومهاجره بطيبة وملكه بالشام، وليس بفظ ولا غليظ ولا سخاف في الأسواق ولا مرس بالفحش، ولا قول الخطأ، أشهد أن لا إله إلا الله، وأنّك رسول الله، وهذا مالي فاحكم فيه بما أراك الله تعالى، وكان اليهودي كثير المال»[1].

فبهذا السّلوك العظيم والأخلاق الرَّفيعة استطاع الرسول الأعظم ﷺ أن يخلق أمّة واحدة عظيمة، بهرت التاريخ وحيّرت العقول، حتى أنَّ الله -سبحانه وتعالى- وصفهم قبل الإسلام بالجاهلية، ثم عاد فوصفهم بعد الإسلام بـ (خير الأمم) حيث يقول القرآن الكريم: (**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ**)[2].

وعن أنس بن مالك قال: إنَّ النبي ﷺ أدركه أعرابي فأخذ بردائه، فجبذه جبذة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عنق رسول الله ﷺ وقد أثرت به حاشية الرّداء من شدَّة جبذته، ثم قال له:

يا محمد، مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ فضحك، وأمر له بعطاء[3].

وعن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله ﷺ حييا لا يُسأل شيئا إلا أعطاه.

وعنه أيضاً قال: كان رسول الله ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها، وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه[4].

---

(١) مستدرك الوسائل: ج١٣ ص٤٠٧.

(٢) سورة آل عمران: ١١٠.

(٣) بحار الأنوار: ج١٦ ص٢٣٠.

(٤) المصدر نفسه: ج١٦ ص٢٣٠.

وعن أبي ذر قال: كان رسول الله ﷺ يجلس بين ظهراني أصحابه فيجيء الغريب فلا يدري أيّهم هو حتى يسأل، فطلبنا إلى النبي ﷺ أن يجعل مجلساً يعرفه الغريب إذا أتاه، فبنينا له دكّاناً من طين وكان يجلس عليه ونجلس بجانبيه[1].

وعن أنس بن مالك قال: صحبت رسول الله ﷺ عشر سنين، وشممت العطر كله فلم أشم نكهة أطيب من نكهته[2].

وعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «**أنا أديب الله وعلي عليه السلام أديبي، أمرني ربي بالسخاء والبر، ونهاني عن البخل والجفاء، وما شيء أبغض إلى الله عزوجل من البخل وسوء الخلق، وإنّه ليفسد العمل كما يفسد الطين العسل**»[3].

وكان أمير المؤمنين عليه السلام إذا وصف رسول الله ﷺ قال: «**كان أجود الناس كفّاً، وأجرأ الناس صدراً، وأصدق الناس لهجةً، وأوفاهم ذمّةً، وألينهم عريكةً، وأكرمهم عشرةً، ومن رآه بديهة هابه ومن خالطه فعرفه أحبه، لم أر مثله قبله ولا بعده**»[4].

وروي عن الصادق عليه السلام: «**إنَّ رسول الله ﷺ أقبل إلى الجعرانة فقسم فيها الأموال وجعل الناس يسألونه ويعطيهم، حتى ألجئوه إلى الشجرة، فأُخذت برده وخُدشت ظهره حتى رحلوه عنها، وهم يسألونه، فقال: أيُّها الناس، رُدّوا عليّ بردي، والله لو كان عندي عدد شجر تهامة نعما لقسمته بينكم، ثم ما ألفيتموني جباناً ولا بخيلاً، ثم خرج من الجعرانة في ذي القعدة، قال: فما رأيت تلك الشجرة إلا خضراء كأنَّما يرش عليها الماء**».[5]

وعن بحر السقاء قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: «يا بحر، حسن الخلق يُسر» ثم قال: «ألا أخبرك بحديث ما هو في يدي أحد من أهل المدينة؟».

قلت: بلى.

قال: «**بينا رسول الله ﷺ ذات يوم جالس في المسجد إذ جاءت جارية لبعض الأنصار وهو قائم، فأخذت بطرف ثوبه، فقام لها النبي ﷺ فلم تقل شيئاً ولم يقل لها النبي ﷺ شيئاً، حتى فعلت ذلك ثلاث مرات، فقام لها النبي ﷺ في الرابعة، وهي خلفه فأخذت هدبةً من ثوبه، ثم رجعت فقال لها الناس: فعل الله بك وفعل، حبست رسول الله ﷺ ثلاث مرات لا تقولين له شيئاً، ولا هو يقول لك شيئاً، ما كانت حاجتك إليه؟**

قالت: إنَّ لنا مريضاً فأرسلني أهلي لآخذ هدبةً من ثوبه ليستشفي بها، فلمّا أردت أخذها رآني، فقام فاستحييت منه

---

(١) مكارم الأخلاق: ص١٦.

(٢) مستدرك الوسائل: ج ٨ ص٤٣٨.

(٣) بحار الأنوار: ج ١٦ ص٢٣١.

(٤) المصدر نفسه: ج ١٦ ص٢٣١.

(٥) الخرائج والجرائح: ج١ ص٩٨.

أن آخذها وهو يراني، وأكره أن أستأمره في أخذها فأخذتها»[1].

وهكذا كان رسول الله ﷺ قمّة في الأخلاق الطّيّبة حتى قبل بعثته الشّريفة.

وهكذا يلزم على المسلمين، أن يتأسَّوا برسول الله ﷺ في حُسن تعامله مع جميع الناس حتى مع الكُفّار، فتكون معاملتهم ومعاشرتهم في هذا العصر أيضاً معاشرة مبتنية على أسس الحكمة والموعظة الحسنة، وإن كان الكفر قد فتح أفواهه من كلّ جانب لابتلاع الإسلام والمسلمين، وسحقهم وإبادتهم.

كما ينبغي أن تكون سياسة المسلمين اليوم، سياسة الاحتواء والجمع والاغضاء والتّشجيع، حتى يعود المسلمون قوّة قاهرة، تهدي الأمم للتي هي أقوم كما صنع رسول الله ﷺ.

أمّا إذا كانت السّياسة سياسة إلغاء الآخرين، والتّفرقة وعدم الإغضاء.. فهي توجب ضعف المسلمين.

سمة العفو

نعم، إنَّه الدّين الحنيف، وإنَّه الارتباط الوثيق بالخالق، وإنَّه العفو الذي بلغ منتهاه، وبالتالي إنَّه الإسلام، وإنَّها أخلاق نبي الإسلام (صلوات الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين)، فهو الجامع لكل الفضائل والمكرمات. وهو الذي نزل فيه قوله تعالى: **(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)**[2].

فأي عاقل يرى هذه المعاني السَّامية، متجسّدة في شخصيّة كبيرة وعظيمة، كرسول الله ﷺ ولا يقدّسه ويجلّه ويطيعه؟!

رابعاً: دولة الرّسول -ﷺ-

الإنجاز الرّابع الذي جعل الرسول ﷺ خالداً في التاريخ، ومعظّماً عند جميع البشر، دولته ﷺ المباركة.

إنَّ الرّسول الأعظم ﷺ استطاع أن يؤسّس دولة عالمية كبرى، خضعت لها أكثر بقاع الأرض، وقامت على أركان العدالة والفضيلة والتّقوى، وهذا الأمر الذي لم يصنعه حتى أولي العزم من الأنبياء عليهم السلام الذين سبقوه كموسى وعيسى (على نبينا وآله وعليهما السلام).

ثم إنَّ الإسلام لا يفرّق في الانتماء إليه بين أسود وأبيض، بل قال -تبارك وتعالى-: **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)**[3].

إنَّ رسالة الإسلام تشمل جميع الناس من كل أشكالهم وألوانهم وألسنتهم وأعراقهم.

---

(١) الكافي: ج٢ ص١٠٣.

(٢) سورة القلم: ٤.

(٣) سورة الحجرات: ١٣.

مفتاح القوّة والضّعف

وهنا ربما يخطر هذا السّؤال في الأذهان: لماذا آل وضع المسلمين إلى ما هم عليه الآن، من التّأخّر والتّباعد والفرقة والبغضاء فيما بينهم؟!

الجواب: إنَّ السَّبب يكمن في ضعف المسلمين وابتعادهم عن تعاليم الإسلام ودين النبي ﷺ؛ وإنَّنا نستطيع بواسطة أفعالنا وأساليبنا ورجوعنا إلى الكتاب والعترة أن نبدّل ضعفنا إلى قوة تمكّننا من النّهوض في هذا العصر، لأنَّ مفتاح القوّة والضَّعف بأيدينا.

يقول أحد المسيحيين: لقد أصبحت المسيحية كالفاكهة البائرة في محلات البيع، ولكي يروجها البائع فقد وضعها في مكان بارز، وسلّط عليها الكثير من الأنوار، حتى صارت برّاقة تجذب نظر المشتري، بعكس الإسلام الذي هو أشبه بالفاكهة الطّازجة الطّريّة إلا أنَّ صاحبه وضعه في محل مظلم، والنَّاس لا يجتمعون دائماً إلّا حول الفاكهة البرّاقة المغرية، حتى وإن كان داخلها هو خلاف ظاهرها.

فالحقيقة أنَّ نور الإسلام لم يضعف إلّا أنَّ الذين يوصلون هذا النّور هم الذين ضعفوا.

سبب رقي الإسلام أيَّام الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم

بعد فتح مكّة، وخضوع أبي سفيان للأمر الواقع، وحصوله على الأمان وإعلان رسول الله ﷺ أنَّه من دخل بيت الله فهو آمن، ومن دخل بيت أبي سفيان فهو آمن، فإنَّ أبا سفيان والذي كان في حرب طويلة الأمد مع رسول الله ﷺ دامت حوالي عشرين عاماً، جاء وأعلن إسلامه في الظّاهر وأدّى الشّهادتين.

يقول الإمام الحسن العسكري عليه السلام: «**قال علي بن الحسين عليه السلام: لما بعث الله محمداً ﷺ بمكة وأظهر بها دعوته، ونشر بها كلمته، وعاب أديانهم في عبادتهم الأصنام، وأخذوه وأساءوا معاشرته، وسعوا في خراب المساجد المبنيّة، كانت لقوم من خيار أصحاب محمد ﷺ وشيعته وشيعة علي بن أبي طالب عليه السلام، كان بفناء الكعبة مساجد يحيون فيها ما أماته المبطلون، فسعى هؤلاء المشركون في خرابها، وأذى محمد ﷺ وسائر أصحابه، وألجئوه إلى الخروج من مكة إلى المدينة، التفت ﷺ خلفه إليها فقال: الله يعلم أنّي أحبك، ولولا أن أهلك أخرجوني عنك لما آثرت عليك بلدا، ولا ابتغيت عنك بدلا، وإنّي لمغتم على مفارقتك. فأوحى الله تعالى إليه: يا محمد، إنَّ العلي الأعلى يقرأ عليك السلام، ويقول: سأردك إلى هذا البلد ظافراً غانماً سالماً، قادراً قاهراً، وذلك قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ**

إِلى مَعاد) [1] **يعني إلى مكة ظافراً غانمًا. وأخبر بذلك رسول الله ﷺ أصحابه، فاتصل بأهل مكة فسخروا منه. فقال الله تعالى لرسوله ﷺ: سوف أظهرك بمكة، وأجري عليهم حكمي، وسوف أمنع عن دخولها المشركين حتى لا يدخلها منهم أحد إلا خائفاً، أو دخلها مستخفياً من أنَّه إن عثر عليه قتل. فلمّا حتم قضاء الله بفتح مكة استوسقت له أمَّر عليهم عتاب بن أسيد..»** [2].

فهؤلاء جاءهم النبي ﷺ فاتحاً منتصراً عليهم، تُرى ما الذي كان سيفعله إنسان آخر غير النبي ﷺ في موقف كهذا؟ إنَّه بلا شك سينتقم منهم لما ارتكبوه في حقّه وحق أصحابه من جرائم وانتهاكات، فالكفار الذين أصبحوا في قبضته الشّريفة كانوا هم الظالمون الذين حاربوا المسلمين، وعلى رأسهم أبو سفيان وهند، وأضرابهما من الرجال والنساء القتلة.

ولكن عندما حمل الرّاية سعد بن عبادة زعيم الأنصار، وجعل يسير في طرقات مكة ويهزّها منادياً: اليوم يوم الملحمة، اليوم تسبى الحرمة. أرجعه رسول الله ﷺ صاحب الأخلاق الرّحمانية، وسجل نقطة مشرفة في تاريخ الإسلام والإنسانية، فأمر علياً عليه السلام أن يحمل الراية بدلاً عن سعد بن عبادة، وأن يغير نداء الوعيد والتّهديد والتّشديد إلى نداء العفو والوعد بالرحمة والأمن والسّلام، حيث أمره أن ينادي في أهل مكّة بلين بعكس ذلك النّداء، فنادى علي عليه السلام في طرقات مكة: «اليوم يوم المرحمة، اليوم تحمى الحرمة»، وفي نص آخر «اليوم تصان الحرمة».

ثم جمع النبي ﷺ أهل مكّة فنادى فيهم: «ما تقولون إنّي فاعل بكم؟».

قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم.

فقال ﷺ: "أقول لكم كما قال أخي يوسف: **(لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ)** [3] ".

ثم قال ﷺ: "اذهبوا فأنتم الطّلقاء"[4].

ثم قال: «**من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وشهد أنَّ محمداً رسول الله، وكف يده، فهو آمن، ومن جلس عند الكعبة ووضع سلاحه فهو آمن،.. من دخل دار أبي سفيان فهو آمن..**» [5].

إنَّ رسول الله ﷺ أراد أن يبين هذه الحقيقة، وهي أنَّ الهدف حينما يكون هو إعلاء كلمة لا إله إلا الله، فهو بحاجة إلى جمع الطاقات، وتوحيد الكلمة، وتوظيف قدرات كل الأفراد، على اختلاف خصوصياتهم، في سبيل ذلك

---

(١) سورة القصص: ٨٥.

(٢) تفسير الإمام الحسن العسكري عليه السلام: ص٥٥٤.

(٣) سورة يوسف: ٩٢.

(٤) شجرة طوبى: ج٢ ص٣٠٣.

(٥) انظر بحار الأنوار: ج٢١ ص١٢٩.

الهدف، حتى ولو كان كأبي سفيان الذي حارب رسول الله ﷺ عشرين عاماً. وإنَّ الرسول الأعظم ﷺ عندما يفعل ذلك فإنَّه يؤدّي وظيفة إلهية، بغض النظر عن الجوانب الأخرى، من العقل والحكمة وحسن التدبير في إدارة البلاد والعباد ومعاملة الناس وحسن الأخلاق.

الهجرة وليلة المبيت .. أولى التّضحيات

كريم الموسوي

أدرك النبي الأكرم ﷺ بعد مضي ثلاث عشر سنة يصدح بالدّعوة الى الله-تعالى- وإنقاذ البشرية، أنَّ مشركي مكة لا يدعونه ماضياً في هذه الدَّعوة أكثر من ذلك، وقد لاقى منهم الضّغوط النَّفسيّة والحرب الاقتصادية والتّصفيات الجسدية، لذا هم عازمون على تصفيته جسديّاً بعد أن فشلت كلُّ المحاولات للوقوف أمام نور الإسلام السّاطع والذي تجاوز مكّة لينتشر الى المناطق الأخرى ويكسب المزيد من الأنصار والأتباع، ويفسد عليهم شركهم بالله -تعالى- ونظامهم الجاهلي الفاسد.

قرّر الرّسول الأعظم ﷺ مغادرة بيته ومدينته، لكن كيف السّبيل وعيون المشركين تلاحقه؟ وقد بلغه من الوحي أنَّه ثمّة مؤامرة حاكها زعماء الكفر للفتك به، فعليه الرّحيل فوراً، لكن قبل ذلك توجّه الى ابن عمّه وعضيده علي بن أبي طالب-عليهما السلام- وفاتحه بالموضوع فبكى الإمام عليه السلام خوفاً على حياة النبي ﷺ ولمّا أمره بالمبيت على فراشه أجابه بالقبول فوراً، وقال: أو تسلم يا رسول الله إن فديتك بنفسي، قال ﷺ: نعم؛ بذلك وعدني ربّي، فعلت الفرحة وجه أمير المؤمنين وتبدل حزنه سروراً وتقدّم الى فراش النبي ﷺ مطمئن النَّفس واتّشح ببرده الحضرمي الذي كان يتّشح به.

جاء في (سيرة المصطفى) للسيد هاشم معروف الحسني عن تاريخ اليعقوبي (ج٢ ص٢٢)، إنَّ الله -تعالى- في تلك الليلة أوحى الى ملكين من ملائكته المقربين وهما جبرائيل وميكائيل أنِّي قضيت على أحدكما بالموت فأيّكما يفدي صاحبه، فاختار كل منهما الحياة، فأوحى إليهما: هلا كنتما كعلي بن أبي طالب لقد آخيت بينه وبين محمد وجعلت عُمْرَ أحدهما أطول من الآخر فاختار علي الموت وآثر محمداً بالحياة ونام في مضجعه، اهبطا عليه فاحفظاه من عدوّه، فهبطا يحرسانه في تلك الليلة الخالدة وهو لا يعلم، وجبرائيل يقول: بخٍ بخٍ لك يا ابن أبي طالب! من مثلك يباهي به الله تعالى ملائكة سبع سماوات. وفي هذه المناسبة العظيمة نزلت الآية الكريمة في حقّ الإمام علي عليه السلام: **(وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللهِ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ)**[1].

وهنا التفاتة جميلة في هذه الآية حيث تميّز موقف الإمام وتجعله محطّة مضيئة في تاريخ الإسلام يستنير بها السائرون على طريق الحق والرّشاد. ففي آيات عديدة يأتي الخطاب السّماوي الجليل في مجال حثّ الإنسان على التّضحية والعطاء من خلال التّشجيع بالأجر والثّواب العظيم: **(إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)**[2]، وقوله-تعالى-: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)**[3].

ففي هذه العبارات نفهم أنَّ الله -تعالى- هو المشتري، وهو الذي يرغّب البائعين لبيع متاعهم وبضاعتهم، ولكننا نقرأ في آية ليلة المبيت **(وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ)** بمعنى نحن أمام مبادرة وتطوّع ذاتي من نوع خاص يصوّرها القرآن الكريم بتعبير أدبي رائع، فإنَّ الإيمان والإخلاص بلغ درجة عند أمير المؤمنين أن يقدّم على عرض حياته للبيع قبل أن توجّه له دعوة الشّراء! مضافاً إلى ذلك فإنّ الآية محل البحث تبدأ بكلمة (مِنْ) التّبعيضية في قوله «وَمِنَ النّاسِ» أي أنَّ هذا العمل العظيم لا يتمكّن من أدائه إلاّ بعض الناس في حين أنَّ الآيتين السّابقتين تطرح مسألة المعاملة مع الله والمعاوضة بالجنّة والنّجاة من النار في إطار عام وشامل «اِشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ».

وإذا أنعمنا النّظر وتدبّرنا في الآيات الثّلاث على آية المبيت أدركنا عظمة ما قام به الإمام علي عليه السلام، كما أدركنا مكانته الرّفيعة عند رسول الله صلى الله عليه وآله، فقد قال -تعالى-: **(وَمِنَ النّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا)**[4]. أي أنَّ بعض المنافقين الذين يتمتّعون بظاهر جميل وخادع عندما يرونك يظهرون المحبّة والتّملّق ويتحدّثون بشكل تشعر

(١) سورة البقرة/ الآية:٢٠٧.
(٢) سورة التوبة/ الآية: ١١١.
(٣) سورة الصف/ الآية: ١٠
(٤) سورة البقرة/ الآية:٢٠٤.

فيه بالإعجاب في حين أنَّ باطنهم شيء آخر. **(وَيُشْهِدُ اللهَّ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ)**[1]. فإنَّ الله -تعالى- عالم بما يخفي هؤلاء المنافقون المخادعون، هؤلاء الأشخاص ذوو الظّاهر الأنيق والكلام الجميل هم ألدّ أعداء الإسلام وهم المنافقون، وتشير هذه الآيات إلى (الاخنس بن شريق) المنافق المعروف الذي يظهر من كلامه غير ما يبطن بحيث إنّ ظاهره وكلامه يجذب كلَّ مخاطب إليه لحسن بيانه وجمال مظهره حيث كان يتظاهر بالقداسة والإيمان والتّقوى ولكنه في الواقع شخصية منحطّة وسافلة ولا يعتقد بالله ولا برسوله إطلاقاً - كما جاء في التّفسير الأمثل- وفي الآية التي تليها يشير الله -تعالى- إلى واقع هذا الشّخص - الأخنس- ونفاقه في حركة الحياة والواقع الاجتماعي: **(وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُّ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ)**[2]. فمن علامات نفاق الأخنس وسائر المنافقين هو أنَّهم عندما يخرجون من مجلسك يتحرّكون في حياتهم الفردية والاجتماعية من موقع الإفساد في الأرض وإهلاك الحرث والنَّسل رغم علمهم بأنَّ الله -تعالى- لا يحبُّ هذه الأعمال القبيحة، وطبعاً هناك احتمال أنَّ كلمة (تولّى) تعني الولاية والحكومة، أي أنَّ هؤلاء الأشخاص إذا استلموا زمام الأُمور وتولّوا أمر الحكومة والسّلطة أفسدوا في الأرض وزرعوا بذور النّزاعات والفساد والانحطاط وعملوا على تخريب المزارع وإهلاك الأنعام.

وقد ورد أنّ (الأخنس) جاء إلى منطقة في بلاد الإسلام وشرع في الإفساد وتخريب مزارع المسلمين في تلك المنطقة وقتل أغنامهم وحيواناتهم، ولكنه عندما جاء إلى النبي الأكرم ﷺ شرع بالتملّق والتحدّث بكلمات معسولة خادعة. (وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَّ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ)[3]. وعندما يسعى المؤمن في نصيحة هؤلاء الأشخاص وتحذيرهم من مغبّة هذه الأعمال ويحثّهم على تقوى الله -تعالى- واجتناب الأعمال الإجرامية، نجد أنّهم ليس فقط لا يستمعون إلى النّصيحة بل يزدادون عناداً وغروراً وتعصّباً ويصرّون على أعمالهم الدّنيئة من موقع العناد والتكبّر.

ويصور القرآن الكريم لنا في هذه الآيات الثلاث عناد أعداء الإسلام وسلوكياتهم المنحرفة، وعندما نضع هذه الآيات إلى جانب آية ليلة المبيت فلابدّ أن يتحوّل الكلام إلى استعراض أحبّ الأشخاص إلى الله وأكثرهم إيماناً وانشداداً للإسلام والمسلمين، وعليه فإنّ الإمام علي عليه السلام الذي نزلت في حقّه آية ليلة المبيت وقدّم نفسه كفدائي من أجدل الدين، فهو أحبّ الأشخاص إلى النبي الأكرم ﷺ وبلا شكّ إنّ علاقة النبي ﷺ بالأشخاص لا تكون إلاّ على أساس إيمانهم وحبّهم لله -تعالى- لا على أساس العواطف الساذجة والميول الدّنيوية. **(وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي**

(١) سورة البقرة/ الآية:٢٠٤.

(٢) سورة البقرة/ الآية: ٢٠٥.

(٣) سورة البقرة/ الآية: ٢٠٦.

نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللهّ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ)[1].

الهجرة النّبويّة إلى المدينة

علمت قريش بأمر البيعة رغم كلِّ التّكتُّم الذي اتبعه الرّسول ﷺ فعزمت على إلقاء القبض على المُبايعين، وشدّدت من إيذائها للمسلمين وتعذيبهم، وعلى إثر ذلك قال لهم النبيّ ﷺ: «**إنّ الله عزَّ وجلَّ قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها**»[2] وكان هذا إيذاناً بالهجرة إلى المدينة.

فأخذ المسلمون يتوجّهون إلى يثرب رغم كلّ المشاكل والعراقيل التي وضعتها قريش أمامهم. ورأت قريش في هذه الهجرة خطراً عليها لِما يُشكِّله المهاجرون مع أهل المدينة من قوّة تستطيع أن تقف في وجه قريش ومصالحها، خاصّة أنَّ تجارتها إلى الشام تمرّ عبر المدينة، فأخذت تمنع المسلمين من الهجرة وتلاحقهم.

وعلى الرّغم من كلّ المضايقات تمكّن معظم المسلمين من الهجرة، ولم يبقَ في مكّة بعد بيعة العقبة بفترة وجيزة سوى النبيّ ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام وعدد قليل من المسلمين.

بقي النبيّ ﷺ في مكّة ينتظر الإذن الإلهيّ بالهجرة. وشعرت قريش بحجم الخطر فيما لو التحق النبيّ ﷺ بأصحابه، خاصّة بعدما قُدِّرت أنّ المدنيّين سيحمونه وينصرونه بعدما بايعوه، فاتخذت قراراً حاسماً بالتخلُّص من النبيّ ﷺ قبل فوات الأوان، واستطاعت أن تنتزع قراراً بمشاركة كلِّ قبائل قريش في عمليّة الاغتيال، من أجل أن يتفرّق دمه في القبائل كلّها؛ فلا يعود بإمكان بني هاشم أن يثأروا لدمه، ولكنّ الله -تعالى- أخبر رسوله بهذه المؤامرة[3]، وأمره بالخروج ليلاً من مكّة وأن يجعل أمير المؤمنين عليه السلام مكانه ليبيت على فراشه من أجل التّمويه والإيهام، وليردّ كيدهم عليهم، فخرج رسول الله ﷺ إلى غار ثور وبات عليّ عليه السلام على فراشه تلك الليلة[4]. وعندما اقتحم المشركون دار النبيّ ﷺ وجدوا أنفسهم أمام المرتضى عليّ عليه السلام، وكان النبيّ ﷺ قد خرج قبل ذلك من بينهم وتوجّه نحو غار ثور وبقي فيه ثلاثة أيّام، إلى أن تمكّن من الوصول إلى قرية (قباء) في طريق المدينة المنوّرة، برغم ملاحقة قريش له.

ونظراً للتضحية الكبرى التي قدّمها الإمام عليّ عليه السلام، أنزل الله -تعالى- بحقّه قوله: **(وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللهِ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ)**[5].

---

(١) سورة البقرة / ٢٠٧.

(٢) ابن هاشم، السيرة النبويّة، ج٢، ص١٢٣.

(٣) ذكر الله تعالى لنبيّه الكريم هذه المؤامرة بقوله تعالى: (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) (سورة الأنفال: ٣٠).

(٤) رغم أنّ قريشاً جنّدت كلّ قواها للعثور على النبيّ ﷺ؛ ولكنّها بقدرة الله لم تعثر عليه لكونه منصوراً ومؤيّداً من الله تعالى حيث قال تعالى: (إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (سورة التوبة: ٤٠).

(٥) سورة البقرة: ٢٠٧.

الرسول ﷺ في المدينة

غادر النبيّ ﷺ الغار قاصداً يثرب في شهر ربيع الأوّل بعدما كان قد أمضى ثلاث عشرة سنة في مكّة، بعدما ترك أخاه وابن عمّه عليّاً عليه السلام؛ ليؤدّي الودائع التي كانت عنده للناس، ولتهيئة مستلزمات هجرة ابنته سيّدة النّساء فاطمة الزّهراء عليها السلام وعدد آخر من النساء.

فَوَصَل ﷺ أوّلاً إلى قُباء وهي منطقة على مقربة من يثرب، وتوقّف فيها بضعة أيّام في انتظار قدوم الإمام عليّ عليه السلام، وبنى في هذه المدّة مسجداً هناك(١).

ثمّ توجّه بصحبة ابن عمّه عليّ عليه السلام وجماعة من بني النجار (أخوال مولانا عبد المطّلب عليه السلام تجاه يثرب. ولدى وصوله إليها استقبله الناس بفرح وسرور بالغ، وكان ﷺ لا يمرّ بمكان إلّا وقام وجوه القبائل وأشرافها بأخذ زمام ناقته، طالبين منه النّزول عليهم وهو يقول: «**خلّوا سبيلها فإنّها مأمورة**»(٢) حتّى وصل إلى أرضٍ ليتيمين قرب دار أبي أيّوب الأنصاريّ، وبنى في تلك الأرض المسجد النبويّ. ولأنّ الهجرة تُعتبر نقطة تحوُّل ومُنعطَفاً مُهمّاً في تاريخ الإسلام أصبحت مبدأً لتاريخ الإسلام والمسلمين بتدبير النبيّ ﷺ؛ الذي أمر المسلمين أن يُؤرّخوا ابتداءً من شهر ربيع الأوّل، وهناك العديد من رسائل النبيّ ووثائقه وكتبه تُؤيّد ذلك.

دوافع الهجرة

لم تكن الهجرة إلى المدينة ردّ فعل لاضطهاد قريش، بل كانت فعلاً خطّط له النبيّ ﷺ لتكون المدينة قاعدة ارتكاز للدعوة، وأهمّ الدّوافع التي أدّت للهجرة هي:

أوّلاً: إنّ مكة لم تَعُد مكاناً صالحاً للدعوة، ولم يبقَ أيّ أمل في دخول فئات جديدة في الدّين الجديد في المستقبل القريب على الأقل، فكان لا بُدَّ من الانتقال إلى مكانٍ آخر ينطلق الإسلام فيه بحرّيّة بعيداً عن ضغوط قريش.

وكان اختياره للمدينة بسبب بعدها الجغرافيّ عن مكّة، ممّا يجعلها بمأمن من هجمات قريش المفاجئة والمباغتة من جهة، ومن جهة أخرى هي قريبة من طريق تجارة مكّة الشام؛ بحيث يتمكّن النبيّ ﷺ من فرض سيطرته وممارسة نوع من الضّغط السّياسيّ والاقتصاديّ، وحتّى العسكريّ، على قريش في الوقت المناسب.

ومن النّاحية الاجتماعيّة كانت يثرب مركزاً للتنازع القبليّ، بين الأوس والخزرج واليهود، وهي تتطلّع إلى رجل تلتفّ حوله لينزع عنها إلى الأبد هذه العصبيّات المستعصية. وأمّا اقتصاديّاً فهي غنيّة بإمكانيّاتها الزراعيّة بما يُمكّنها من المقاومة في حال التعرُّض للضغوط الاقتصاديّة من قِبَل المشركين وغيرهم.

(١) الطبري، تاريخ الطبري، ج ٢، ص٢٤٩.

(٢) الشيخ الكليني، الكافي، ج٨، ص٣٤٠.

بناء الدولة والمجتمع في المدينة

باشر النبيّ ﷺ فور وصوله إلى المدينة بأعمال تأسيسيّة، ترتبط ببناء المجتمع السياسيّ الإسلاميّ، وبمستقبل الدّعوة الإسلاميّة، وأبرزها:

أوّلاً: بناء المسجد

وهو أوّل مركز عُنيَ النبيّ ﷺ بإنشائه، وقد كان مركزاً للعبادة، والتّعليم، والحُكم والإدارة، ومقرّاً لحكومة النبيّ ﷺ، ولم يُمارس النبيّ ﷺ مُهمّات حكوميّة وإداريّة في المدينة في مكانٍ آخر غير المسجد.

وبعد إتمام بناء المسجد بُنيت إلى جانبه حُجرتان؛ لتكونا مساكن لرسول الله ﷺ.

ثانياً: المؤاخاة

العمل المهمّ الآخر الذي أقدم عليه الرسول ﷺ في السنة الأولى للهجرة، هو المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، من أجل توكيد وحدة المسلمين والتّغلُّب على التّناقضات الدّاخليّة القائمة بين الأوس والخزرج، والتّناقضات المتوقَّعة بين المهاجرين والأنصار، وفي سبيل تحطيم الاعتبار الطّبقيّ، والاقتصاديّ، وعلاج مشكلة التّفاوت في المستوى المعيشيّ، والتّعبير العمليّ عن مبدأ المواساة والمساواة الإسلاميّ، فتآخى الحبيب المصطفى محمد ﷺ مع الإمام عليّ بن أبي طالب -عليهما السلام-، وآخى بين المسلمين وكان يؤاخي بين كلٍّ ونظيره[1].

وهذه هي المؤاخاة الثانية، وكانت المؤاخاة الأولى في مكّة بين أصحابه من قريش ومواليهم (العبيد المُعتَقين).

وهذه المؤاخاة في المدينة أدّت إلى مزيدٍ من التلاحم بين المهاجرين والأنصار، وإلى تحقيق الانتصارات الكبرى في بدر والخندق وغيرهما برغم قلّة العدد وبساطة العتاد.

ثالثاً: وثيقة الصّحيفة

بعد أن استقرّ الرسول ﷺ في المدينة، رأى من اللازم تنظيم الوضع الاجتماعيّ لأهلها؛ وذلك لأنّ تحقيق أهدافه على المدى البعيد يتطلّب استقرار الأوضاع فيها. ولا بُدَّ من الإشارة إلى أنّ التّركيبة السّكّانيّة فيها كانت غير متكافئة ولا متجانسة. فقد كان يقطن هذه المدينة يومذاك جماعات تنتمي كلّ جماعة منها إلى إحدى قبيلتين كبيرتين هما الأوس والخزرج.

وكان يعيش في داخل المدينة وحولها أقوام من اليهود، وفي الوضع الجديد أُضيف إليهم أيضاً المهاجرون القادمون من مكّة. وكان هذا الوضع يُنذر بالمخاطر.

---

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٩، ص ١٣٠.

وفي ضوء هذا الواقع ابتكر الرّسول فكرة، فكتب ميثاقاً وُصف بأنّه «أوّل دستور» أو «أعظم عقد وسند تاريخي في الإسلام». وقد بيّن هذا العقد حقوق مختلف المكوِّنات السابقة في يثرب، وضَمِن لهم حياةً سليمة مع إقرار النظام والعدالة فيها، وهو بمثابة دستور عمل لتنظيم علاقات المسلمين فيما بينهم، وعلاقاتهم مع المتهوِّدين، وقد تضمّنت الوثيقة قواعد في الحقوق والعلاقات أهمّها:

١ ـ إنّ المسلمين أمّة واحدة من دون الناس، رغم اختلاف قبائلهم وانتماءاتهم.

٢ ـ إنّ رسول الله ﷺ هو قائد الأمّة، وهو المرجع في حلّ المشكلات التي قد تحدُث بين المسلمين وبين غيرهم.

٣ ـ قرّرت الوثيقة أنّ مركز السلطة في المدينة هو النبيّ ﷺ، فهو صاحب القرار في السماح أو المنع من تنقّل الأشخاص إلى خارج المدينة، فلا يُسمح لأحد من اليهود ـ بالخروج إلّا بإذن رسول الله ﷺ.

٤ ـ إنّ مسؤوليّة دفع الظلم تقع على عاتق الجميع، ولا تختصّ بمن وقع عليه الظلم.

٥ ـ مَنَحَت الوثيقة المتهوِّدين من الأنصار حقوقهم العامّة، كحقّ الأمن والحرّيّة والمواطنة، بشرط أن يلتزموا بقوانين الدولة، وأن لا يُفسدوا ولا يتآمروا على المسلمين والإسلام[1].

وكان لهذه الوثيقة أثرٌ في حفظ الاستقرار في المدينة، إذ لم تقع أيّة نزاعات بين أهل المدينة حتّى السنة الثانية للهجرة.

رابعاً: موادعة اليهود

اليهود المقصودون في وثيقة الصّحيفة الآنفة الذكر هم: المتهوِّدون من قبائل الأنصار، وليس اليهود الذين هم من أصل إسرائيليّ (بنو قينقاع، والنضير، وقريظة)، فقد شعر هؤلاء بأنّهم قد عُزلوا عن أنصارهم من المتهوِّدين بعد توقيع الصّحيفة، فجاؤوا إلى رسول الله ﷺ، فكتب لهم النبيّ ﷺ بذلك أن لا يُعينوا عليه أحداً، ولا يتعرّضوا لأحد من أصحابه بلسان ولا يد، ولا بسلاح، لا في السرّ ولا في العلانية، فإن فعلوا فرسول الله ﷺ في حلّ من سفك دمائهم، وسبي ذراريهم ونسائهم وأخذ أموالهم[2].

خامساً: إعداد القوّة العسكريّـة

فقد عمل رسول الله ﷺ على تقوية دعائم الدّولة من خلال تدريب القوى البشريّة ودعمها بالسلاح والخيل، ونظَّم المدينة على أساسٍ عسكريّ، وكوّن من شعبها مجتمع حرب، فقسّم المسلمين في المدينة إلى عرافات، وجعل على كلّ عشرة عريفاً، وجعل من جميع الذكور البالغين جنوداً، وكوّن منهم الجيوش، والسرايا العسكريّة. ويُمكن رسم الملامح العامّة للإدارة العسكريّة في عهد النبيّ ﷺ بما يلي:

(١) للإطلاع على مزيد من التفاصيل حول هذه الوثيقة وبنودها، راجع كتب السيرة، منها: السيرة النبويّة لابن هشام: ج٢، ص١٤٧ ـ ١٥٠.

(٢) بحار الأنوار، ج ١٩، ص١١٠.

أوّلاً ـ القرار العسكري: الذي كان بيد النبيّ ﷺ وحده، ولم يكن لأحدٍ من المسلمين سلطة اتخاذ قرار عسكريّ بشكلٍ منفرد بعيداً عن النبيّ – ﷺ –.

ثانياً ـ تشكيل الجيش: حيث كان ﷺ يُشكِّل الجيش والوحدات العسكريّة من الذّكور البالغين، ولم يكن يقبل في عداد الجيش غيرهم.

ثالثاً ـ التدريب: ثبت عن رسول الله ﷺ أنّه أمر بالتدريب على الفروسيّة والرّمي، وجعل التّدريب العسكريّ من مقدّمات الثّقافة العامّة للمجتمع الإسلاميّ.

الأبعاد الجمالية والمعرفية للتصوير عند الإمام الصادق عليه السلام "دراسة في نصوص مختارة"

حسين فاضل الحلو

يُعدُّ الخطاب الدينيّ أبرز عطاء إنسانيّ للأمة، بل هو جوهر الخطاب الإنسانيّ بين بني البشر، وإنَّ ما يميز الخطاب الأدبيّ _بشكل عام_ عن سائر مستويات الكلام الأخرى هو القيمة الجماليّة التي يثيرها الأدب في نفوس متلقيه، وهذا الجمال الذي تثيره النّصوص الإبداعيّة في النفس الإنسانيّة هو سرّ حياتها وخلودها.

ولكن ما ينماز به الخطاب الدّينيّ، أنَّه تعامل مع اللغة الأدبيّة حينًا، ومع اللغة العلميّة حينًا ثانيًا، واللغة الملفقة بينها حينًا ثالثًا، وسرّ ذلك يكمن في أنّ النَّصَّ التشريعيّ يستهدف توصيل الحقائق إلى الآخرين وحينئذٍ فإنَّ اللغة تظلّ أداة توصيلية وليست هدفًا.

وتكمن فاعلية اللغة الجمالية في الخطاب الدِّيني في تعميق الدّلالة المستهدفة، وذلك من خلال عناصرها الإيقاعية والصورية والتّركيبية والبنائية، وسوف نتناول في هذا البحث بعض ما انمازت به لغة الإمام الصادق عليه السلام من أبعاد تصويرية جمالية فضلاً عن الأبعاد المعرفية في بعض النّصوص المختارة من أقواله المباركة.

ونقف عند العنصر التّصويري الأوّل وهو التّشبيه، الذي يُعرّف بأنّه ((ربط شيئين أو أكثر في صفة من الصفات))[1]، ويُعدُّ من أهم الفنون البيانية الممتلكة للطاقات التّعبيرية التي تُساهم في التَّشكيل الأدبي. ويُستهدف بوساطة الصور التّشبيهية مد جسور جماليّة ووظيفية تأخذ بالمتلقي إلى عوالم متعدّدة.

وقد حفلت نصوص الإمام الصادق عليه السلام بعنصر التَّشبيه بشكلٍ بارز، مثال ذلك ما نجده في وصيّته عليه السلام لأبي

(١) عجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ٢/ ١٧٠، وينظر: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب: ١٧٢.

جعفر محمّد بن النعمان، التي كان يؤكّد فيها قضايا أخلاقيّة متعدّدة ويُحذّر من رذائلها ولاسيما إذاعة الحديث. وقد استهدف الإمام صرف ذهن المتلقي بعدد من التشبيهات الرّائعة.

من ذلك قوله عليه السلام:

((المُذيعُ عَلَينا سِرَّنا كالشّاهِرِ بِسَيفِهِ عَلَينا))[1]، فالإمامُ عليه السلام يُشبّه المذيعَ سرّهم صلوات الله عليهم بالشاهر عليهم السيف ويحاربهم، ويلحظ هنا ما يشخصه الإمام من ظواهر سلوكيّة منحرفة في المجتمع آنذاك مثل إذاعة السّرِّ _سرّ أهل البيت تحديدًا_، فوظَّف الإمام هذا التشبيه لبيان خطر هذا الأمر، فحال من يذيع سرّهم كحال من يشهر سيفه عليهم. وبعد أن يعرض الإمام قضايا أخرى _في الوصية نفسها_ يعود إلى تشبيه آخر، هو قوله:

((يا ابنَ النُّعمانِ، إنَّ المُذيعَ لَيسَ كَقاتِلِنا بِسَيفِهِ، بَل هُوَ أعظَمُ وِزراً، بَل هُوَ أعظَمُ وِزراً، بَل هُوَ أعظَمُ وِزرا))[2]، يُلحظ في هذا التشبيه حدّة أكثر من ذي قبل، فقد هيّأ الإمامُ عليه السلام المتلقي ليبيّن خطر إذاعة الحديث، ففي المرة الأولى كان المذيع كالشاهر، ثم رقي الإمام ليقول (ليس كقاتلنا) فهو أعظم وزرًا، وهذا التكرار لعنصر التشبيه في موقعين مختلفين له قيمته الفنيّة الكبيرة، إذ اخضع التشبيه لنمو أو تطور عضوي، إذ إنَّه في التشبيه الأوّل اكتفى بالقول بأنَّ مذيعَ الحديثِ كشاهر السيف، أما في التَّشبيه الآخر، نراه قد عبر مرحلة اشهار السّيف إلى (القتل) ثم عبر مرحلة القتل إلى مرحلة أعظم وزرًا [3]، ويبدو هذا النمط من التشبيه (مُدهِشاً) إذ خضع لعملية نمو وتطور فنيّ يشبه نمو الكائن الحي وتطوُّره[4] .

ونجد في هذه الوصية تشبيهات رائعة ذات أبعاد اجتماعية، منها قوله عليه السلام:

((وَاللهَّ، إنّي لَأعلَمُ بِشِرارِكُم مِنَ البَيطارِ بِالدَّوابِ، شِرارُكم الّذينَ لا يَقرؤونَ القُرآنَ إلّاهُجراً وَلا يأتون الصّلاةَ إلّادُبراً وَلا يَحفَظونَ ألسِنَتَهُم))[5] .

يشبّه الإمام معرفته بفئة اجتماعية معينة بمعرفة البيطار بالدّواب، وتظهر في هذا النّص قدرة الإمام الإبداعية باختياره الموفق للألفاظ المُصوِّرة لهذه الفئة والموحية بتدنّي مستوى بعض الفئات الاجتماعية. وتفصح هذه الصورة الفنيّة عن نظرة الإمام تجاه المجتمع الذي يعيش فيه وبيّن بعض سلبيّاته، و((هذا التشبيه في واقعه ضربة موجعة للناس حيث جعل القارئ يستوحي بأنّ النّاس هم شرٌّ من الدَّواب في سلوكهم غير المقترن بالوعي العبادي))[6] .

(١) مكاتيب الأئمة: ٤/ ٢١٧.

(٢) المصدر نفسه: ٤/ ٢١٨.

(٣) ينظر: تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي: ٤٢٤.

(٤) ينظر: م. ن: ٤٢٤.

(٥) مكاتيب الأئمة: ٤/ ٢١٧.

(٦) تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي: ٢٤٥.

وقد جسّد هذا التشبيه _وما تقدمه من التشبيهين_ نمطاً من التركيب الصوري المدهش الذي يتجاوز التشبيهات التقليدية ليتجه الى صياغة صور ذات طرافة وجدة وعمق وإثارة[١]. ثم تتابعت التشبيهات في هذا النص على نحو متجانس ومتنامٍ عضويًّا مما اضفى جمالية على عمارة النص بشكل عام [٢] .

ومن صور التشبيه الأخرى نقف عند ما جاء في وصيته لولده موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام يصف فيها حال الفُجّار، ناهيًا عن زيارتهم:

((يا بُنَيَّ، إذا زُرتَ فَزُرِ الأخيارَ وَلا تَزُرِ الفُجّارَ؛ فَإنَّهُم صَخرَةٌ لا يَنفَجِرُ ماؤُها، وَشَجَرَةٌ لا يَخضَرُّ وَرَقُها وَأرضٌ لا يَظهَرُ عُشبُها))[٣] .

شبّه الإمام عليه السلام الفجّار بالصَّخرة التي لا ينفجر ماؤها وبالشّجرة التي لا يخضر ورقُها، وبالأرض التي لا يظهر عشبُها. وقد اتخذ الإمام من العناصر السابقة وسيلة لإيصال أفكاره إلى المتلقي بقوالب جمالية، إذ عبّر عن المجرد بالمحسوس، فضلاً عن أنّه لم يكتفِ بتشبيه واحد بل ترادفت التشبيهات واحدًا بعد الآخر؛ إذ استهدف الإمام من خلال الصّور الثلاث السّابقة (صخرة، شجرة، أرض) إبلاغ المتلقي رسالة مفادها ضرورة الابتعاد عن الفُجّار؛ خشية التّأثّر بالسلوكيات المنحرفة التي يتعامل بها الفجار والوقوع بالمحظور.

ويقترب طرفا التّشبيه ليكونا أقرب إلى التَّوحّد وذلك بحذف أداة الشبه، كما في قول الإمام الصادق عليه السلام:

((يا أبا عَبدِ الله، لَيسَ العِلمُ بِالتَّعَلُّمِ، إنَّما هُوَ نورٌ يَقَعُ في قَلبِ مَن يُريدُ اللهُ تباركَ وَتَعالى أن يَهدِيَهُ، فإن أرَدتَ العِلمَ فاطلُب أوّلًا مِن نَفسِكَ حَقيقَةَ العُبودِيَّةِ، وَاطلُب العِلمَ باستِعمالِهِ، واستَفهِمِ اللهَ يُفَهِّمكَ))[٤] .

إنّ غياب أداة التشبيه في النَّصِّ السَّابق حقق قدرًا من التَّقارب والالتحام بين طرفي التّشبيه (العلم_ نور).

ومن التشبيهات الأُخرى التي اعتمدها الإمام الصادق عليه السلام قوله:

((صَبِّر نَفسَكَ عِندَ كُلِّ بَلِيَّةٍ في وَلَدٍ أو مالٍ أو رَزِيَّـةٍ، فَإنَّما يَقبَضُ عارِيَتَهُ وَيَأخُذُ هِبَتَهُ، لِيَبلُوَ فيهِما صَبرَكَ وَشُكرَكَ...))[٥].

فلقد شبه الإمام عليه السلام الولد والمال بالعارية والهبة [٦]، دلالة على عدم دوام الحال بل تقلّبه، فالله تعالى الذي وهب وأعطى يستطيع أن يقبض ما وهبه اختبارًا للعبد ليكشف مدى صبره وتحمّله. ووواضح ما تدل عليه لفظ

(١) تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي: ٢٤٥.

(٢) يُنظر: مكاتيب الأئمة: ٤/ ٢١٨و ٢٢٢.

(٣) المصدر نفسه: ٤/ ٢٣٤.

(٤) المصدر نفسه: ٤/ ٢٣١.

(٥) المصدر نفسه : ٤/ ٢٠٩.

(٦) ((والْعَارِيَّةُ مَا يُسْتَعَارُ فَيُعَارُ مَأْخُوذَةٌ مِنْ التَّعَاوُرِ وَهُوَ التَّدَاوُلُ يُقَالُ تَعَاوَرَتْهُ الأَيْدِي وَتَدَاوَلَتْهُ أَيْ أَخَذَتْهُ هَذِهِ مَرَّةً وَهَذِهِ مَرَّةً))٠

(يَقبَض) على دلالة السرعة في الأخذ والتناول فضلاً عمّا تحمله من بعد استعاري، فالقبض عادة يكون باليد والله عز وجل ليس كمثله شيء.

وقد استقى الإمام الصّادق عليه السلام هذا التّشبيه من الموروث الدّينيّ، مستحضرًا قول رسول الله صلى الله عليه وآله: ((**إِنَّ مَنْ فِي الدُّنْيَا ضَيْفٌ وَمَا فِي أَيْدِيهِمْ عَارِيَّةٌ وَإِنَّ الضَّيْفَ مُرْتَحِلٌ وَالْعَارِيَّةَ مَرْدُودَة**))[1].

تدلُّ هذه الصّور على بُعد الإمام المعرفي وإحاطته بالتراث، فكان للتراث أثره في رسم صوره وتحقيق غاياته المعرفيّة والجماليّة. أي أنَّ ذلك يدل بوضوح على قدرة الإمام عليه السلام على توظيف النّصوص توظيفًا حيًّا في مكاتيبه.

أمّا العنصر الثاني من العناصر الجمالية التي يوظفها الإمام الصادق عليه السلام وتخدم الجوانب المعرفية فهي الاستعارة التي تُعدّ من أبرز وسائل الإثراء اللغوي والإبداع الفنّي؛ ذلك لأنَّها عملية خلق جديد لمعاني الألفاظ في اللغة؛ إذ إنها أكثر عمقًا وأشدّ تأثيرًا في النّفس، وتكتسب الاستعارة قيمتها الفنّيّة المميزة نتيجة تضافر مجموعة من العناصر يأتي في مقدّمتها: الإيجاز والمبالغة والإثارة والخيال[2] . والتي قيل في تعريفها إنها: ((أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر، مدّعياً دخول المشبه في جنس المشبه به، دالّاً على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخصّ المشبه به))[3].

ومن أمثلة الاستعارة ما جاء في وصيّة الإمام الصادق عليه السلام لرجلٍ في أفضل الوصايا: ((**أَفْضَلُ الْوَصَايَا وَأَلْزَمُهَا أَنْ لَا تَنْسَى رَبَّكَ وَأَنْ تَذْكُرَهُ دَائِماً وَلَا تَعْصِيَهُ وَتَعْبُدَهُ قَاعِداً وَقَائِماً وَلَا تَغْتَرَّ بِنِعْمَتِهِ وَاشْكُرْهُ أَبَداً وَلَا تَخْرُجْ مِنْ تَحْتِ أَسْتَارِ عَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ فَتَضِلَّ وَتَقَعَ فِي مَيْدَانِ الْهَلَاكِ وَإِنْ مَسَّكَ الْبَلَاءُ وَالضُّرُّ وَأَحْرَقَتْكَ نِيرَانُ الْمِحَنِ وَاعْلَمْ أَنَّ بَلَايَاهُ مَحْشُوَّةٌ بِكَرَامَاتِهِ الْأَبَدِيَّةِ وَمِحَنُهُ مُورِثَةٌ رِضَاهُ وَقُرْبَهُ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ فَيَا لَهَا مِنْ مَغْنَمٍ لِمَنْ عَلِمَ وَوُفِّقَ لِذَلِك**))[4].

حملت الوصية السَّابقة استعارات متعدّدة مستمدّة أغلبها من الطبيعة، فالإمام عليه السلام يُحذّر من المعصية التي تؤدّي على الخروج من (أَسْتَارِ عَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ) فالإمام أسند دلالات مستعارة من حقول دلاليّة أخرى الى العلامات اللغوية الموظفة في بِنى الاستعارة. فالهلاك ينزاح من دلالاته المعجمية الاعتيادية ويتجه باتجاه الدلالة على المكان عبر (ميدان) فيكسب السمات الدلالية للمكان، ثم تتكثف الصورة حينما يستعير الإحراق للمحن، إذ جعل الإمام عليه السلام للمحن نارًا تحرق الرجل. وجعل عليه السلام البلاءَ فضاءً محشوًا بالكرامة الأبدية، فضلاً عن جعله المحن إنسانًا يُورث الرّضا والقرب. إنّ جعل البلاء فضاء للكرامات الإلهية الأبدية يثير الدّهشة لدى المتلقّي؛ فالصورة النّاجحة

(١) بحار الأنوار: ٧٤/ ١٨٧.

(٢) رؤى في البلاغة العربية، دراسة تطبيقية لمباحث علم البيان: ١١٨

(٣) مفتاح العلوم: ٤٧٧.

(٤) مكاتيب الأئمة: ٤/ ٢٣٥.

هي التي ينبغي أن ((تمتلك شيئًا مدهشًا وغير منتظر كما يجب أن تحدث مفاجأة نتيجة لاكتشاف علاقة غير متوقعة بين الأغراض المتباينة))[1].

شكّلت الطّبيعة الجامدة في هذا النَّصِّ معظم الاستعارات، إذ استمد الإمام عناصر الطبيعة في صوره الاستعارية هذه(ميدان_ نار)، وهذا ما أكسب الصّور الاستعارية جمالاً وحيوية.

تحمل الصورة الاستعارية (مَيْدَان الْهَلَاكِ) دلالة الاتساع والحركة، فهو في أصله _الميدان_ مكان للسباق، وهو بهذا يدعو للخوف والرّهبة، فضلاً عما تحمله (نِيرَان الْمِحَنِ) من الخوف والرّهبة وتترك أثرها في نفس المتلقّي لما تحمله دلالة النار من الهلاك والتّدمير، لكن هذا الخوف يُشفع بأمل واستقرار نفسي يبثه الإمام حينما يُصرّح بأنَّ هذا البلاء قد يُحشى بكرامات أبدية ورضا إلهيّ؛ لتُشكّل الصّور المار ذكرها صورَ الخوف والرجاء والشّعور بالأمن والطّمأنية حين يعلم المتلقي أنّه سيقطف ثمارًا من تلك المحن العظيمة، حتى إن الإمام ليعجب ويعدّها مغنمًا.

ونجد استعارة أخرى في سياق يصف فيه الإمامُ الرسولَ ﷺ ((...**وَوَفى بِعَهدِكَ وَصَدَّقَ وَعدَكَ وَصَدَعَ بِأمرِك**...))[2].

الإمام عليه السلام حين يصف الرسول ﷺ فإنّه يستمد صورته الاستعارية من القرآن الكريم، فهو عليه السلام عمد إلى الاقتباس البسيط من القرآن الكريم، إذ نسج الإمام المفردة القرآنية في إطار صورته الاستعارية. والاستعارة هنا مكنية، فالمستعار منه الزّجاجة والمستعار له الصّدع، وجاءت صورته محملة بدلالة الخضوع التام لله عز وجل من النبي ﷺ وعدم الالتفات إلى سواه.

ومن الصور الاستعارية التي حملتها المكاتيب قول الإمام الصادق عليه السلام: ((**يا ابنَ جُندَب، قَديماً عَمَرَ الجَهلُ وَقَوِيَ أساسُهُ، وَذلِكَ لاتِّخاذِهِم دينَ اللهِ لَعِباً حَتّى لَقَد كانَ المُتَقَرِّبُ مِنهُم إلى اللهِ بِعِلمِهِ يُريدُ سِواهُ، أُولئِكَ هُمُ الظّالِمونَ**))[3].

فقد شبه الإمام عليه السلام الجهلَ _من حيث القوة_ بالبناء ثم حذف المشبه به وأبقى شيئًا من لوزامه وهو عَمَر، وقد استمدت العبارة قوّتها من العبارة التي تتلوها (وَقَوِيَ أساسُهُ)، فالإمام عبّر بالصّورة الحسّيّة عن المعنى الذّهنيّ وهنا كمن جمال الاستعارة في هذا النّصّ، والقصد من ذلك تقريب المعنى لذهن المتلقي واستثارة خياله.

---

(١) الصورة الشعرية في البلاغة الحديثة: ١٣٨.

(٢) مكاتيب الأئمة: ٤/ ٢٥٤.

(٣) المصدر نفسه: ٤/ ٢٠٧.

وصوّر الإمام عليه السلام أمورًا معنويّة، وقرّبها للمتلقي وجعلها كأنّها محسوسة، فجعل لها نصيبًا من بعض حالات تلك المواد، من ذلك قول الإمام الصادق عليه السلام: ((...**وَمَن حَسَدَ مُؤمِناً انماثَ الإيمانُ في قَلبِهِ كَما يَنماثُ المِلحُ في الماء**))[1]، فجعل الإمام الإيمان مادة تذوب بسبب الحسد كما يذوب الملح في الماء، وَوَصْفُ الإمام عليه السلام للإيمان بالذوبان من شأنه أن يؤثر في المتلقي، فاتخذ الإمام من هذه الاستعارة وسيلة لنقل الإيمان من عالمه المعنوي إلى المحسوس فهو يذوب بسهولة بسبب الحسد، وهذا من شأنه أن يشدّ فكر السّامع ويجعله متفاعلاً مع النّص للوصول إلى فكرة الباث لأنّ النفس تلتفت إلى المادي أكثر من المعنوي.

واستطاع الإمام عليه السلام أن يُعيد تشكيل الأشياء في صورهم الاستعارية، إذ نقل الأشياء من خواصها إلى خواص أشياء أخرى، فمثلاً نقل النور من خاصية الرّؤية البصرية إلى خواص أخرى في مواضع استعارية متعدّدة منها[2]، نحو قوله عليه السلام:((**يا مُعَلَّى مَن أذاعَ أمرَنا وَلَم يَكتمْهُ أذَلَّهُ اللهُ بِهِ في الدُّنيا وَنَزَعَ النّورَ مِن بَينِ عَينَيهِ في الآخِرَةِ، وَجَعَلَهُ ظُلمَةً تَقودُهُ إلى النّارِ**))[3] .

استعار الإمام النّور للهداية ونزعه _الظلمة_ دلالة على الضّلال، إذ شبهت الضّلالة بالظلمة بجامع عدم الاهتداء وهي استعارة تصريحية، ولا يخفى الأثر النّفسيّ الذي تتركه هذه الاستعارة في نفس المتلقّي وما تدل عليه من دلالة التّحذير العنيف، ومن يمعن النظر في هذا النص يجد ما يؤديه التّقابل من إبراز للمعنى بين الحالتين (الدنيا_ الآخرة) (النّور_ ظلمة) وكذلك التوكيد في (أذاع_ لم يكتم)، فهذه الألفاظ كلّها عزّزت ما يتركه نزع النّور من خوف ورهبة.

ويتّضح الأثر القرآنيّ الذي استند عليه الإمام عليه السلام في استعارته هذه. قال تعالى: (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[4]؛ إذ إنّ الرافد الدّينيّ القرآنيّ من أهم الروافد في تشكيل الاستعارة في مكاتيب الإمامين الصادق والكاظم (عليهما السلام).

أمّا العنصر الجمالي الثالث الذي جاء في نصوص الإمام الصادق عليه السلام فهو الكناية التي يمكن تعريفها بأنّها ((ترك التصريح بذكر الشيء إلى ما يلزمه لينتقل من المذكور إلى المتروك...))[5] .

(١) مكاتيب الأئمة: ٤/ ٢٠٨.

(٢) ينظر: مكاتيب الأئمة: ٤/ ٢٠٧ و ٤/ ٢١٢.

(٣) المصدر نفسه: ٤/ ٢٤٨.

(٤) سورة الانعام: ١٢٢.

(٥) مفتاح العلوم:٦٣٧.

وتساهم الكناية في بثّ المعاني للمتلقي، إذ إنّ هذه المعاني الكنائية تقوم على الدلالة المباشرة، ومن خلالها يستطيع المخاطب تلمّس المعنى الثاني ومعرفته، أيّ: ما يسمى معنى المعنى [١] .

فالإمام الصادق عليه السلام يستقدم الجانب النّفسي لدى المتلقّي بغية التأثير فيه بطريقة جمالية في مواطن متعدّدة عن طريق الكناية، من تلك الكنايات التي تعرض صفات «الموالي» قوله:

((شيعَتُنا لا يَهِرُّونَ هَريرَ الكَلبِ، وَلا يَطمَعونَ طَمَعَ الغُرابِ، وَلا يُجاورِونَ لَنا عَدُوّاً وَلا يَسألونَ لَنا مُبغِضاً وَلَو ماتوا جوعاً. شيعَتُنا لا يأكُلونَ الجِرّي، وَلا يَمسَحونَ عَلى الخُفَّينِ، وَيُحافِظونَ على الزَّوالِ ولا يَشرَبونَ مُسكِراً))[٢].

الصورة في النّص تمثّل وصفا حسّيًّا وحيًّا لما يتّصف به «الموالي» فـ(لا يَهِرُّونَ هَريرَ الكَلبِ) كناية عن رفع الأصوات في منازعات لا داعي لها، فالهرير: صوت الكلب إذا أنكر شيئاً أو كرهه، وقيل: صوته دون نباحه من قلة صبره على البرد. وتدل أيضًا على أنّهم لا يجزعون عند المصائب أو لا يصولون على الناس بغير سبب كالكلب.

(وَلا يَطمَعونَ طَمَعَ الغُرابِ) وطمعه معروف يضرب به المثل فإنَّه يذهب فراسخ كثيرة لطلب طعمته، وقد نفى الإمام هذه الصّفة عن شيعته.

إنَّ التجاذب بين المعنى الكنائي والمعنى المباشر خلق تناغمًا نفسيًّا عند المخاطب؛ وهذا ما تقوم به الصّورة؛ إذ لا تكتفي بمجرّد التّنفيس، بل تحاول عامدة أن تنقل الانفعال إلى الآخرين، وتثير فيهم نظير ما أثارته تجربة الباث فيه من عاطفة [٣] .

وتلوّنت الصور الكنائية السّابقة بالإيحاء إلى أنّ غير الموالي يكون أقرب إلى هذه الصفات، بل هي متجسّدة فيه أيضًا.

وقد تجلّت الكناية بأبهى صورها في وصف رسول الله صلى الله عليه وآله، وذلك في دعاء الإمام الصادق عليه السلام، ومنه قوله:

((اللّهمَّ وَاجعَل صَلواتِكَ وَغُفرانَكَ وَرِضوانَكَ... على مُحَمَّدِ بنِ عَبدِ اللهِّ، سَيّدِ المُرسَلينَ وَخاتَمِ النَّبيّينَ وَإمامِ المُتَّقينَ وَمَولى المُؤمِنينَ وَوَلِيِّ المُسلِمينَ وَقائِدِ الغُرِّ المُحَجَّلينَ وَرَسولِ رَبِّ العالَمينَ إلى الجِنِّ وَالإنسِ وَالأعجَمينَ، وَالشّاهِدِ البَشيرِ، وَالأمينِ النَّذيرِ، الدّاعي إلَيكَ بإذنِكَ السِّراجِ المُنيرِ))[٤] .

يُلحظ التكثيف الدلالي في النّص السّابق؛ وذلك بتراكم الكنايات؛ فالإمام عليه السلام يكني عن رسول الله صلى الله عليه وآله بـ (سَيّدِ

(١) ينظر: أساليب البيان العربي في السور المئين(اطروحة دكتوراه) :٢٠١.

(٢) مكاتيب الأئمة: ٤/ ٢٠٨

(٣) ينظر: وظيفة الأدب بين الالتزام الفني والانفصام الجمالي: ٢٦.

(٤) مكاتيب الأئمة: ٤/ ٢٥٦

المُرسَلينَ) و(خاتَمِ النَّبيّينَ) و(إمامِ المُتَّقينَ) و(مَولى المُؤمِنينَ) و(وَلِيِّ المُسلِمينَ) و(قائِدِ الغُرِّ المُحَجَّلينَ) و(الشّاهِدِ البَشيرِ)، و(الأمينِ النَّذيرِ)، (السِّراجِ المُنيرِ). فهذه الكنايات كلها لموصوف واحد هو النبي العظيم ﷺ. ورافق التكثيف الدّلالي تكثيف صوتي، تمثل بالسجع بين (المُتَّقينَ_ المُؤمِنينَ_ المُسلِمينَ_ المُحَجَّلينَ) وبين (البَشيرِ_ النَّذيرِ_ المُنيرِ). وهذا التكثيف على المستويين الدلالي والموسيقي يلحظ فيه العفوية والإنسيابية من دون تكلّف، بل يلحظ تآلف الأفكار مما رسم الصورة المستحقة المشرقة للرسول ﷺ.

ويلحظ الزخم الدلالي ذاته في دعائه للرسول ﷺ، إذ يقول عليه السلام:

((اللّهمَّ بَيّض وَجهَهُ وأعلِ كَعْبَهُ، وَأفلِج حُجَّتَهُ وَأجِب دَعوَتَهُ، وَابعَثهُ المَقامَ المُحمودَ الّذي وَعَدتَهُ، وَأكرِم زُلفَتَهُ وَأجزِل عَطِيَّتَهُ، وَتَقَبَّل شَفاعَتَهُ وَأعطِهِ سُؤلَهُ، وَشَرِّف بُنيانَهُ وَعَظِّم بُرهانَهُ، وَنَوِّر نورَهُ وَأوردنا حَوضَهُ، واسقِنا بِكأسِهِ وَتَقَبَّل صَلاةَ أُمّتِهِ عَلَيهِ، وَاقصُص بِنا أثرَهُ وَاسلُك بِنا سَبيلَهُ وَتَوَفَّنا على مِلَّتِهِ وَاستَعمِلنا بِسُنَنِهِ...))[1].

الكثافة الدلالية في النّصّ المذكور تنم على قصدية الإمام عليه السلام في هذا التوظيف؛ إذ إن أغلب الكنايات السابقة كانت تدعو إلى علو منزلة الرسول ﷺ وعلى دوام سروره من مثل (بَيّض وَجهَهُ) و(أعلِ كَعْبَهُ)، و(أفلِج حُجَّتَهُ) وغيرها الكثير. وهذا يدلّ على أنَّ الإمام عليه السلام قد استعمل هذا الزّخم الدّلالي ليصبَّ في خدمة مقاصده الفكرية والعقدية فضلاً عن الوظيفة النَّفسية التي يحقّقها هذا التّكثيف.

وتتراكم المعاني الكنائية في مقطع آخر:

((اللّهمّ إنّي أسألُكَ مَسألَةَ المِسكينِ المُستكينِ، وَأبتَغي إلَيكَ ابتِغاءَ البائِسِ الفَقيرِ وَأتضَرَّعُ إلَيكَ تَضَرُّعَ الضّعيفِ الضّريرِ، وابتَهِلُ إلَيكَ ابتهالَ المُذنِبِ الخاطِئِ، مَسألَةَ مَن خَضَعَت لكَ نَفسُهُ، وَرَغِمَ لَكَ أنفُهُ، وَسَقَطَت لَكَ ناصِيَتُهُ، وانهمَلَت لَكَ دُموعُهُ، وفاضَت لَكَ عَبرَتُهُ، واعتَرَفَ بِخَطيئَتِهِ، وَقَلَّت حِيلَتُهُ، وَأسلَمَتهُ ذنوبُهُ أسألُكَ الصّلوةَ على مُحَمّدٍ وَآلِهِ أوَّلًا وآخِراً))[2].

رسمت لنا الصور الكنائية السابقة الحالة المثالية للإنسان وهو يناجي ربَّه،(رَغِمَ لَكَ أنفُهُ)، (سَقَطَت لَكَ ناصِيَتُهُ)، (انهمَلَت لَكَ دُموعُهُ)، (فاضَت لَكَ عَبرَتُه).

ويُلحظ البعد النفسي متشحًا بالتذلّل والخضوع للباري عز وجل من غضون هذه الصور الكنائية المتكررة، ويُلحظ كذلك اختيار الإمام عليه السلام لأفعال الزمان الماضي التي تدل على أنّ هذا الأمر من الخضوع والتذلل حاصل لا محالة ومفروغ منه، كما في (رَغِمَ وسَقَطَت وانهمَلَت وفاضَت...). هذا فضلاً عن السمة الصوتية التي تحقّقت من كثافة

(١) مكاتيب الأئمة: ٤/ ٢٥٧.

(٢) المصدر نفسه: ٤/ ٢٦٠

تكرار صوت السين في النص المتقدّم.

وهذا الزخم والتّأكيد في صفة واحدة أو صفات معيّنة متقاربة، فإنّه يدل على رسالة النّص وأهمّيّتها فضلاً عن أنّه ((يكشف لنا عن توهج الإبداع الأدبي وارتفاع مؤشره البياني على مستوى النص، مما يكشف لنا من جهة أخرى عن علاقة الثبات بالرسالة))[1] .

وقد ألبس الإمام الصادق عليه السلام المعقول ثوب المحسوس، في قوله:

((وَأحسِنوا إلى أنفُسِكُم ما استَطعتُم، فإن أحسَنتُم أحسَنتُم لِأنفُسِكُم، وَإن أسَأتُم فَلَها وَجامِلوا النّاسَ وَلا تَحمِلوهُم على رِقابِكُم، تَجمَعوا مَعَ ذلِكَ طاعَةَ رَبِّكُم))[2] .

حقّق الأسلوب الكنائي في النص السابق العلاقة بين المعاني بطريقة فنيّة جمالية وهذا الأمر لا يتحقّق بالتعبير المباشر، فالإمام عليه السلام كنّى عن التسلط والاستيلاء بقوله (وَلا تَحمِلوهُم على رِقابِكُم).

وترك الإمام الصادق عليه السلام التصريح ببعض الألفاظ إلى ما هو أجمل كما في وصيته لرجل في أفضل الوصايا:

((أُوصيكَ بِحفظِ ما بَينَ رِجلَيكَ، وَما بَينَ لَحيَيك))[3] .

لجأ الإمام عليه السلام إلى التلميح والإشارة؛ إذ ابتعد عن التصريح ببعض الألفاظ بل جاء ذكرها عن طريق الكناية.

وفي قول للإمام الصادق عليه السلام نجده يكني عن صفة الجوع بـ(البطن الخالية) في قوله:

((وَلا تَستَصغِرَنَّ مِن حُلوٍ أو فَضلِ طَعامٍ، تَصرِفُهُ في بُطونٍ خالِيَةٍ يَسكُنُ بِها غَضَبُ اللهِ تَبارَكَ وَتَعالى))[4] .

يكني الإمام عليه السلام عن الفقر والجوع بالبطون الخالية، وقد اختار الإمام عليه السلام طريق الكناية في التعبير عن الجوع (صفة معنوية) بالبطن الخالية (صفة محسوسة)؛ إذ إن الخطاب جاء في سياق يدعو فيه الإمام عليه السلام على الحث على الإنفاق والتكافل الاجتماعي.

ويوجه الإمام الصادق عليه السلام عبدَ الله النجاشي عامل الأهواز مسخرا بعض الأساليب البلاغية، ومنها الكناية إذ وظفها بطريقة فنية مؤثرة:

((...وَزَعَمتَ أنَّكَ بُليتَ بِوِلايَةِ الأهوازِ، فَسَرَّني ذلِكَ وَساءَني... وَأمّا ساءَني مِن ذلِكَ، فَإنَّ أدنى ما أخافُ عَلَيكَ أن تَعثُرَ بِوليٍّ لَنا فَلا تَشُمَّ رائِحَةَ حَضيرَةِ القُدُسِ))[5].

---

(١) البنية التكوينية للصورة الفنية، درس تطبيقي في ضوء علم الأسلوب: ٢١١.

(٢) مكاتيب الأئمة: ٤/ ١٢٩.

(٣) المصدر نفسه : ٤/ ٢٣٦.

(٤) المصدر نفسه: ٤/ ١٤٦

(٥) المصدر نفسه: ٤/ ١٤٥

يبث الإمام عليه السلام في رسالته هذه قيمًا إنسانية ودينية متعددة بهدف التأثير في المتلقي وتوجيه سلوكه توجيهًا صحيحًا في واقع مليء بالاضطرابات، وقد استعمل الإمام عليه السلام طريق اللطف في توجيه الخطاب الإرشادي؛ إذ عمد إلى النّصح والإرشاد ويمكن القول إنَّ هناك أمرًا يختفي خلف هذا النص، هو التحذير من مغبة (التعثر) بشيعة أهل البيت عليهم السلام؛ إذ كنى الإمام الصادق عليه السلام عن جزاء من يخذل الموالين لأهل البيت عليهم السلام بأنه يُبعد ويُطرد حتى إنه لا يشم رائحة الجنة، وقد وظّف الإمام العناصر المحسوسة لوصف الأمر المعنوي؛ إذ استعمل (يعثر ويشم رائحة) حرصًا منه على إثارة الجانب النفسيّ لدى المتلقّي ليجعله على حذر دائم في التعامل مع الرّعيّة بوصف المخاطب هو من طلب من الإمام النّصح والإرشاد؛ لذلك نرى الإمام أوّل ما حذر منه هو الإساءة إلى أولياء آل محمد بقول أو فعل. ولا يخفى ما تعنيه (فَلا تَشُمَّ رائِحَةَ حَضيرَةِ القُدُسِ) من تحذير شديد اللهجة تجعل المتلقي في حذر دائم من الوقوع في هكذا أمور.

نلحظ مما تقدم التآزر الحاصل في نصوص الإمام الصادق عليه السلام المقدسة بين الجوانب الجمالية والمعرفية والنفسية لخدمة مشروعه المبارك في بناء الإنسان.

الإمام العسكري عليه السلام بين تأصيل مرجعية الفقهاء العدول وبناء الكوادر العلمية

الشيخ عبدالله اليوسف

عمل الإمام الحسن العسكري عليه السلام على تأصيل مرجعية الفقهاء العدول، ووجوب الرجوع إليهم في معرفة مسائل الشّريعة، وأخذ الموقف الشّرعي تجاه القضايا الحادثة، وكان الإمام عليه السلام يوجه أتباعه وشيعته إلى مراجعة الفقهاء وتقليدهم، وأخذ معالم الدين وأحكامه منهم، حيث جاء عنه الحديث المشهور:

"من كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً على هواه، مطيعاً لأمر مولاه، فللعوام أن يقلدوه"(١).

وفي هذا الحديث يبين الإمام العسكري عليه السلام صفات الفقيه الذي يجوز الرجوع إليه في التقليد، والذي يجب أن تتوافر فيه هذه الصفات وهي: صيانة النفس، وحفظ الدين، ومخالفة الهوى، وإطاعة أمر الله -تعالى.-

وقد أرسى الإمام جعفر الصادق عليه السلام قواعد الرجوع إلى الفقهاء قائلاً: « انظروا إلى من كان منكم قد روى حديثنا، ونظر في حلالنا وحرامنا، وعرف أحكامنا، فليرضوا به حكماً فإني قد جعلته عليكم حاكماً، فإذا حكم بحكمنا فلم يقبل منه، فإنما بحكم الله استخف، وعلينا رد، والراد علينا الراد على الله، وهو على حد الشرك بالله عز وجل»(٢).

كما أنَّ الإمام الهادي عليه السلام بيَّن مكانة العلماء، ودورهم في الحفاظ على الدين، وضرورة الرجوع إليهم، فقد قال عليه السلام:

---

(١) الوسائل، الحر العاملي، ج ٢٧، ص ١٣١.

(٢) تهذيب الأحكام، الشيخ الطوسي، ج٦، ص ١٧٨.

«لولا من يبقى بعد غيبة قائمنا عليه السلام من العلماء الدّاعين إليه، والدَّالِّين عليه، والذابين عن دينه بحجج الله، والمنقذين لضعفاء عباد الله من شباك إبليس ومردته، ومن فخاخ النواصب لما بقي أحد إلَّا ارتد عن دين الله، ولكنهم الذين يمسكون أزمة قلوب ضعفاء الشيعة، كما يمسك صاحب السفينة سكانها، أولئك هم الأفضلون عند الله عز وجل»[1] .

ومنذ ابتداء الغيبة الكبرى سنة ٣٢٩هـ والتي ابتدأت بوفاة السفير الرابع علي بن محمد السمري-رضوان الله عليه- رجع الناس في كلِّ عصر إلى الفقهاء العدول لأخذ معالم دينهم منهم، ومعرفة مسائل الحلال والحرام، والإجابة على تساؤلاتهم المختلفة.

إذ يُمثّل الاجتهاد في عصر الغيبة الكبرى الوسيلة الوحيدة لبيان أحكام الدِّين، والإجابة عن تساؤلات المكلّفين، وتوضيح رأي الإسلام تجاه المستجدات الحادثة. فالاجتهاد استفراغ الوسع في تحصيل الحجة على الحكم الشرعي، وبدون ممارسة الاجتهاد لا يمكن معرفة الكثير من أحكام اللهَّ -عزَّ وجلَّ-، فالمجتهد هو وحده القادر على استنباط الأحكام الشرعية من أدلّتها.

ويقوم الفقهاء بدور ضروري ومهم لبيان الحلال والحرام، والإجابة عن الاستفتاءات المختلفة، وتوضيح رأي الشّارع المقدّس تجاه مختلف القضايا المطروحة. إلا أنَّ ضرورة الاجتهاد تبدو أكثر أهمية عندما تلامس قضايا الواقع، ومشكلات الحاضر، ومستجدّات (الحوادث الواقعة) والتي تتزايد وتيرتها بصورة تصاعدية نتيجة التّقدّم الهائل في مختلف المعارف والعلوم، وانفجار المعلومات بشكل مذهل؛ مما أوجد الكثير من الإشكاليات الجديدة، والمسائل المستجدّة والتي تتطلّب من المجتهدين أجوبة مفصّلة كي يسير الناس وفق هديها.

وبناءً على ذلك تأتي أهمية التجديد في الاجتهاد، والتجديد يجب أن يشمل مناهج الاجتهاد، ومجالات وحقول الاجتهاد إذا ما أريد لحركة الاجتهاد أن تنمو وتتطوّر وتستجيب لمتطلّبات وتحدّيات العصر.

وتنبع أهمية وجود المجتهد المطلق من قدرته على الإجابة عن أسئلة العصر، والإبداع في معالجة القضايا الجديدة، وليس فقط ممارسة الاجتهاد في المسائل العبادية للفرد المسلم. إذ أنَّ المطلوب من المجتهد في كل عصر هو معالجة قضايا عصره، والإجابة عن أسئلة زمانه، وعدم الاقتصار على ما سبق للفقهاء المتقدمين أن أجابوا عليه؛ وإلَّا فإنَّ الاجتهاد يفقد حيويته وقدرته على مواكبة المتغيرات الزّمانية والمكانية.

ولا يمكن للتراث الفقهي -رغم ضخامته وأهمّيته- أن يجيب عن كل تساؤلات العصر، بل المطلوب من المجتهد المعاصر ممارسة الاجتهاد، في القضايا الجديدة كما القديمة؛ لأن الاجتهاد يجب أن يشمل جميع جوانب الحياة.

(١) بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج٢، ص ٦.

أما المراوحة عند القضايا والمسائل التي أشبعت بحثاً واستدلالاً فقد يكون ذلك ضرورياً لبناء ملكة الاجتهاد، وممارسة المران والتدريب على الاجتهاد، ولكن لا يصح أن يظل المجتهد طوال عمره كذلك، بل يجب إعمال الرأي والنظر في كل القضايا والمسائل وخصوصاً المسائل الجديدة والمستجدة.

وفي كلِّ عصر يبرز من الفقهاء من يتميز بالنبوغ والعبقرية والذكاء الخارق ممن يكون لديهم القدرة على التجديد في الفقه وأصوله، ومعالجة القضايا المستجدة والمسائل الحديثة بأسلوب استدلالي معمق؛ وهذا ما يعطي للفقهاء القدرة على مواكبة (الحوادث الواقعة)، وتطوير أبواب الفقه، واستحداث أبواب جديدة تفرضها طبيعة متغيرات العصر وتطوراته.

ولهذا استمرت مؤسسة المرجعة الدينية وتطورت مع تطور الزمان والمكان، وأصبح في كل عصر فقهاء عدول يرجع الناس إليهم في أخذ الفتاوى والأحكام الشرعية، ومعرفة الموقف الشرعي تجاه مختلف القضايا والمستجدات المعاصرة، وستستمر هذه المؤسسة التي أَصَّلَ لها الأئمة الأطهار عليهم السلام، وخصوصاً الإمام العسكري عليه السلام الذي أكد على وجوب الرجوع للفقهاء والعلماء العدول، وأخذ الأحكام الشرعية منهم حتى ظهور القائم المنتظر.

كما اعتنى الإمام العسكري عليه السلام ببناء كوادر علمية مؤهلة في مختلف التخصصات العلمية المهمة، كي يقوموا بأدوار قيادية ودينية وعلمية وفكرية، ومن أهم هذه الأدوار نشر العلوم والمعارف الإسلامية في أصقاع الدنيا، وإيصال منهج وفكر أهل البيت عليهم السلام للناس، وربط المجتمع بالقيادة الشرعية، وتدوين الأحاديث والروايات، وبثّها بين العلماء والفقهاء، وتأسيس المدارس العلمية لتأهيل علماء وفقهاء ينتمون لمدرسة أهل البيت عليهم السلام.

وبناء الكوادر العلمية ليس بالأمر السهل في ظروف سياسية بالغة التعقيد كعصر الإمام العسكري عليه السلام، حيث وضع تحت المراقبة الشَّديدة، ومع ذلك تجاوز كلَّ القيود والسدود من خلال المكاتبة لأصحابه وتلامذته، وتزويدهم بتوجيهاته وإرشاداته الدينية والعلمية، والالتقاء بهم متى ما سمحت له الظروف بذلك.

وقد كان لتلامذة وأصحاب الإمام العسكري عليه السلام دور بارز في نشر علوم ومعارف الإمام عليه السلام، وقد كان فيهم الرواة الأثبات للحديث، وفيهم الفقهاء الكبار، وفيهم الوكلاء والثقات، وفيهم الكُتّاب المتميزون.

ويعود لهؤلاء الفضل في نشر علوم الإمام ومعارفه بين الناس، فقد دوّنوا ما سمعوه أو وصل لهم كتابة من الإمام، وما كتبوه بأقلامهم من كنوز وتراث وعلوم الإمام، ونشره في الآفاق بالرغم من كلِّ الظروف الصعبة، والتضييق عليهم، إلَّا أنهم استطاعوا إيصال بعض فتاوى وأحاديث ووصايا الإمام العسكري عليه السلام إلى العلماء والفقهاء والموالين والأتباع من مدرسة أهل البيت عليهم السلام، بل وغيرهم من سائر المذاهب الإسلامية.

وقد اختلف الباحثون والمؤلفون لسيرة وحياة الإمام العسكري عليه السلام في عدد تلامذته وأصحابه بين الكثرة والقلة، فالشيخ باقر شريف القرشي أحصى (١٠٦) من أصحاب الإمام وتلامذته ورواته وثقاته، وقد ترجم لأغلبهم ترجمة وافية، وبعضها مختصرة، وذكر منزلتهم ودرجة وثاقتهم، وجملة من مروياتهم ومؤلّفاتهم[١] .

أمَّا الشيخ محمد حسن آل ياسين -رحمه الله- فقد ترجم لـ (١٠٣) من الرواة والمحدثين والتلامذة، وقد ركز على ذوي المصنفات والمؤلفات منهم[٢].

أمَّا الشيخ محمد جواد الطبسي -رحمه الله- فقد بلغ عدد ما أحصاه من أصحاب وتلامذة الإمام عليه السلام (٢١٣) محدثاً وراوياً، إذ يقول: « وأما نحن فلم نكتفِ بما نقله الشيخ الطوسي من أصحابه، بل أضفنا إليه أسماء من صحبه- ولو كان قليلاً- وروى عنه قولاً أو فعلاً وهكذا تعرضنا لذكر من كاتبه وروى عنه بعض المسائل بالمكاتبة وإن لم يشاهده ويلتقِ به»[٣].

أما السيد محمد كاظم القزويني-رحمه الله- فقد ترجم لـ(٢٤٢) راوياً ومحدثاً وتلميذاً، ورتبهم على طريقة (الألف باء)، وقد تتبع ترجمات أصحاب الإمام عليه السلام، وأشبعه بحثاً وتحقيقاً، ودوّن أقوالهم وما نقلوه عن الإمام العسكري عليه السلام من رواية، أو رسالة، أو فتوى، أو وصية، أو حكمة، أو توجيه وإرشاد...حتى أصبح معظم كتابه عن تراجم أصحاب الإمام العسكري» .[٤]

بينما الشيخ الطوسي ذكر في رجاله من أصحاب الإمام الحسن العسكري عليه السلام ما عدده (١٠٣) فقط .[٥]

وواضح أنَّ من أسباب اختلاف العدد هو اختلاف المنهج في إضافة أيّ راوٍ أو تلميذٍ لمدرسة الإمام العسكري عليه السلام؛ فالشيخ الطبرسي سجَّل كلَّ من كاتب الإمام ونقل عنه من أصحابه ورواته، أما الشيخ محمد حسن آل ياسين فركَّز على أصحاب المؤلَّفات والمصنفات من تلامذة وأصحاب الإمام... وهكذا يتباين العدد بين القلّة والكثرة.

ومهما يكن العدد، فإنَّ الشيء المؤكّد أنَّ الإمام العسكري عليه السلام كان له اهتمام بالغ -كآبائه الأطهار- عليهم السلام بتربية جيل من الرواة والمحدثين والثقات والأصحاب والطلاب كي يتحملوا مسؤولية نشر الإسلام، وبث علوم ومعارف أهل البيت عليهم السلام في كلِّ أصقاع الدنيا، وربط الناس بالقيادة الشرعية، والتمهيد لمرحلة الغيبة الكبرى، وما ستواجه الأمة الإسلامية في مستقبل أيامها، وبيان كيفية التَّعامل مع الحوادث الواقعة.

---

(١) انظر موسوعة سيرة أهل البيت: الإمام الحسن العسكري عليه السلام، باقر شريف القرشي، ص ١٦٥-٢٠٩.

(٢) انظر كتاب الإمام الحسن بن علي العسكري عليه السلام، محمد حسن آل ياسين، ج٣، ص ٢٤٠-٢٥١.

(٣) حياة الإمام العسكري عليه السلام، محمد جواد الطبسي، ص ٢٥٩.

(٤) انظر كتاب: الإمام العسكري عليه السلام من المهد إلى اللحد، ، ص ٦١-٢٩١.

(٥) رجال الطوسي، ص ٢٩٧-٣٠٣.

وقد حظي مجموعة من الأصحاب والرواة بالتتلمذ على الإمام الحسن بن علي العسكري عليه السلام، ونالوا شرف حضور مجالسه العلمية، وبحوثه الفقهية والقرآنية، فنهلوا من علومه ومعارفه، واستضاءوا بنور حكمته وهديه مما جعلهم يبلغون مراتب عالية في معرفة الدين، وكسب العلوم والمعارف الإسلامية.

وكان منهم المحدثون والرواة والفقهاء والمفسّرون والقادة والكُتَّاب والعلماء، وقد كان لهم دور ملموس فيما بعد في نشر معالم ومفاهيم الدين، وبيان مسائله وأحكامه، وتوضيح أصوله وفروعه.

وأصحاب الإمام العسكري عليه السلام وتلامذته ليسوا في مرتبة واحدة، سواء من الناحية العلمية، أو من جهة العدالة والوثاقة والضبط، بل يتفاوتون كما يتفاوت غيرهم من الطلاب والتلاميذ، فقد امتاز بعضهم بتدوين الأحاديث وتسجيل الأصول، وامتاز بعضهم بالفقه وما يرتبط به من علوم، وامتاز آخرون بتصنيف المؤلفات حيث أنجزوا عشرات المؤلفات في شتّى العلوم والمعارف الإسلامية.

وكان من أبرز طلّابه وتلامذته ورواته: إبراهيم بن أبي حفص، وإبراهيم بن مهزيار، وأحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن داود بن حمدان، وأحمد بن إدريس بن أحمد القمي، وإسحاق بن إسماعيل النيسابوري، والحسن بن موسى الخشاب، وداود بن القاسم الجعفري، وسعد بن عبد الله بن أبي خلف الأشعري القمي، وعبد العظيم بن عبد الله الحسني، وعبدالله بن جعفر الحميري القمي، وعبدالله بن حمدويه البيهقي، وعثمان بن سعيد العمري، وعلي بن جعفر الهماني، والفضل بن شاذان، ومحمد بن أحمد بن جعفر القمي، ومحمد بن الحسن الصفار، ومحمد بن الحسين بن أبي الخطاب، ومحمد بن عثمان بن سعيد العمري....وغيرهم.

وقد كان لهؤلاء الرواة والتلاميذ والأصحاب ممن تخرّجوا في مدرسة الإمام العسكري عليه السلام العلمية دور مهم ومؤثّر في نشر علوم ومعارف الإمام الحسن العسكري عليه السلام في مختلف الحواضر العلمية، وأسهموا من خلال مؤلّفاتهم وتصنيفاتهم العديدة في إيصال فقه وفكر مدرسة أهل البيت عليهم السلام إلى العلماء والفقهاء والمحدثين والرواة والمفسرين، وهو الأمر الذي ساهم في نشر علوم وآثار ومعارف أئمة أهل البيت الأطهار عليهم السلام إلى المدارس والمراكز والحواضر العلمية الكبرى.